آلام فرتر

فهرسة أثناء النشر / إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية، إدارة الشئون الفنية

غوتة، يوهان فولفغانغ فون، ١٧٤٩-١٨٣٢
مترجمة: أحمد حسن
آلام فرتر
نيوبوك للنشر والتوزيع
14 × 21 سم
تدمك: 9879779960104
رقم الإيداع: 2019/15447
1 ـ القصص الألمانية
2 ـ العنوان

دار النشـــر: نيوبوك للنشر والتوزيع
عنوان الكتاب: آلام فرتر
الـكـاتـب: أحمد حسن الزيات
رقم الطبعة: الأولى
تاريخ الطبع: 2020

جميع حقوق الملكية الأدبية والفنية محفوظة للناشر

NEW BOOK
نيو بوك للنشر و التوزيع

ويحظر طبع، أو تصوير، أو ترجمة، أو إعادة تنضيد للكتاب كاملًا أو جزئيًا، أو تسجيله على أشرطة كاسيت، أو إدخاله على الكمبيوتر، أو برمجته على أسطوانات ضوئية، إلا بموافقة الناشر الخطية الموثقة

نيوبوك للنشر والتوزيع
6 عمارات الدفاع الوطنى ـ حدائق القبة ـ القاهرة
تليفون: 01092673274
newbooknb@gmail.com

آلام فرتر

نقله عن الفرنسية

أحمد حسن الزيات

المحتويات

بين مينرفا وتليماك ٧
تليماك يجادل العشاق ١٩
في بيلوس.. تليماك يسائل نسطور عن أبيه ٣٢
العشاق يتآمرون ٤٥
أوديسيوس يبحر من جزيرة كاليبسو ٦٦
حفل أوليمبي ١٠٠
في أرض المردة (السيكلوبس) ١١٦
أوديسيوس يروي قصته ١٣٣
رحلة أوديسيوس إلى العالم الثاني ١٥٢
تمام قصة أوديسيوس ١٧٣
أوديسيوس يصل إلى إيثاكا ١٩٠
مع الراعي ٢٠٧
عودة تليماك ٢٢٣
أوديسيوس يلقى تليماك ٢٣٧
أوديسيوس في قصره ٢٤٦
أوديسيوس يتشاجر مع شحاذ ٢٥٦

المرضع العجوز تعرف أوديسيوس ٢٦٥
نذير من السماء ٢٧٥
وما رميت إذ رميت ٢٨٢
الانتقام الهائل ٢٩٢
بنلوب.. وأخيرًا.. بنلوب! ٣٠١
أوديسيوس يصل إلى إيثاكا ٣٠٩

من حياة جيته

ولد جان وُلفجَاج جيته شاعر ألمانيا وفيلسوفها فى (فرنكفورت سيرليمين) عام ١٧٤٩، ثم صبت نفسه إلى درس الحقوق فدرسها فى (لبزج ثم فى استرسبورج). ولما نال الدكتوراه فيها سنة ١٧٧١ صدف عنها ورغب فى الأدب فكان مبعثاً لحركته وروحًا لنهضته. ثم استقر به المقام فى (ويمر) لدى الغرندوق (شارك أوجست) سنة ١٧٧٥.

وفى خلال ذلك نشر رواية (جوتز براليشنجن) سنة ١٧٧٢ على طريقة شكسبير، وآلام فرتر سنة ١٧٧٤ وهى تاريخ فترة من شبابه أجمل فيها آمال عصره، وعبر بها عن منازع نفسه، وخلق فيها نوعًا طريفًا من الأدب. ثم كتب قصة الكنت ديجمونت سنة ٧٥، ووليم مستر سنة ٧٧، و(ايفجينى) سنة ٧٦. ثم أزمع الرحلة إلى إيطاليا فأقام بها ثلاثة أعوام كتب فيها (تركاتوتاسو). وفى سنة ١٧٩٤ اتصلت المودة بينه وبين (شلر) ونشر كثيرًا من القصائد الرائقة والكتب الممتعة. ثم ألف الجزء الأول من رواية (فوست) عام ١٧٩٨، وزاره نابليون فى (ارفرت) وقلده (صليب اللجيون دى نور) سنة ١٨٠٨، ثم أصبح وزيرًا لحكومة دوق ساكس ويمر سنة ١٨١٥، وشغل فراغه بالكتابة فكتب مذكراته ورحلته إلى إيطاليا، وأكمل رواية (فوست) ثم قضى نحبه فى ٢٢ مارس سنة ١٨٣٢ بويمر.

مقدمة

بقلم الأستاذ الدكتور طه حسين

لعل حاجتنا إلى النقل والترجمة لم تبلغ قط من الشدة ما بلغته اليوم، فنحن فى عصر انتقال من طور إلى طور، واخص ما يميز عصور الانتقال الظمأ إلى العلم بكل شىء، والرغبة فى تعرف كل جديد.

يسأم الشعب فى هذه العصور ما ألف قراءته من كتب، وما تعود استماعه من مختلف النظريات العلمية، والوقوف عليه من آثار الفن، ويود لو استطاع أن يجد من الطريف المستحدث ما يشفى علته، وينقع غلته، ويخرجه من هذه البيئة التى طال بها عهده وثقل عليه فيها احتمال الحياة. وقد كان يحسب نفسه كل شىء فإذا هو يشعر بأن على الأرض شعوبًا أخرى تقاسمه الحياة وتشاطره ما اشتملت عليه من لذة وألم، ومن سعادة وشقاء، وأن هذه الشعوب قد اتخذت لنفسها من نظم السياسة والاجتماع، ومن مناهج البحث والتفكير ما لم يألفه ولم يهتد إليه. فما أشد ظمأه إلى أن يعرف من أمر هذه الشعوب ما جهل، ويقف من حياتها الاجتماعية والعقلية على ما خفى عليه فكل من نقل إليه كتابًا من كتب العلم، أو لخص له فصلًا من فصول الفلسفة، أو ترجم له من الآثار الفنية والأدبية ما يعرب عن شعور هذه الشعوب وعواطفها، وعن ضروب إحساسها للأشياء وتأثرها بها، فقد صادف منه مكان الحاجة وأشرف به من البغية على ما يريد.

ليس هذا الأمر من اليسر والسهولة بحيث يظن كثير من الذين يتصدون للنقل والترجمة، فإن سأم الشعب من كل قديم، وتهافته على كل جديد، من غير أن يُرَوى فى النفع والضر، أو الخير والشر، يهيئه لقبول ما ينقل إليه من حسن وردىء. فخليق بالناقل أن يلاحظ استعداد الشعب وحاجته، وألا ينقل إلا ما يوافق استعداده ويلائم مزاجه، ويكون من النفع والفائدة بحيث يصلح من حاله ويقوّم من عوجه ويعينه على التطور والانتقال؛ وليس هذا بالهين ولا باليسير.

فإذا وفق الناقل إلى اختيار ما ينقل فأمامه من الصعاب ما يعسر تذليله، ومن العقاب ما يصعب تمهيده. أريد صعوبة النقل فى نفسه، فإن الناقل ليس حريًّا أن يحسن اللغة العربية التى ينقل إليها، واللغة الأجنبية التى ينقل عنها فحسب، بل هو خليق أن يحسن الفن الذى ينقله إحسانًا تامًا، وأن يكون من إجادته بحيث يستطيع النقد والمناقشة إذا كان موضوعه علميًا أو فلسفيًا؛ فإذا كان فنيًا أو أدبيًا فالصعوبة أثقل عبئًا وأشق احتمالًا، لأن الناقل ملزم حينئذ أن يكون من القدرة والكفاية بحيث يستطيع أن يقوم مقام المؤلف الأول فيشعر بقلبه ويحس بحسه، ويرى الأشياء بتلك العين التى رأى بها المؤلف، ويصفها بهذا اللسان الذى وصفها. فإن الترجمة فى الفن والأدب ليست وضع لفظ عربى موضع لفظ أجنبى، إذ الألفاظ شديدة القصور عن وصف الشعور فى اللغة الطبيعية، فكيف بها فى لغة أخرى. إنما الترجمة الفنية والأدبية عبارة عن عملين مختلفين كلاهما صعب عسير: الأول أن يشعر المترجم بما شعر به المؤلف، وأن تأخذ حواسه وملكاته من التأثر والانفعال نفس الصورة التى أخذتها حواس المؤلف وملكاته إن صح هذا التعبير. والثانى أن يحاول

المترجم الإعراب عن هذه الصورة والإفصاح عن دقائقها وخفاياها بأشد الألفاظ تمثيلا لها وأوضحها دلالة عليها.

وخلاصة القول أن المترجم يجب أن يجتهد ما استطاع لا فى أن ينقل إلينا معنى الألفاظ التى خطتها يد المؤلف، بل فى أن ينقل إلينا نفس المؤلف جلية واضحة تبين فيها من غير مشقة ولا عناء ما أثر فيها من ضروب الإحساس والشعور.

* * *

لقد وفق صديقنا الزيات إلى هذا كله حين نقل إلى اللغة العربية آلام فرتر للشاعر الفيلسوف «جوت»: وفق إلى حسن الاختيار، فما كان لشعب يجل نفسه ويريد أن يعد بين الأمم الحية أن يجهل شاعرًا فيلسوفًا كجوت قد أثر نبوغه الفنى والفلسفى فى الحياة العلمية والنفسية للعالم الحديث أشد تأثير. وما كان لهذا الشعب أن يجهل كتابًا كآلام فرتر قد عرفه الناس جميعًا فى أوربا فأحبوه وكلفوا به، حتى إنك لا ترى فتى ولا فتاة فى السادسة عشرة من العمر إلا قرأه وقرأه وحاول أن يتفهم معانيه ويتأسى بما فيه، وخيل إليه أن هذا الكتاب لا يصف ما جال فى نفس خاصة من فكر، وما ملكها من هوى، وما أثر فيها من عاطفة، إنما هو يصف الحياة النفسية لكل شاب وشابة على اختلاف الأزمنة والأمكنة، وعلى تباين الأحوال والظروف.

تلك خصلة تمتاز بها الكتب التى أنشئت لتبقى أبد الدهر وقضى أن يكون الخلود لها نصيبًا، تخلد لأنها لا تصف الأشخاص التى تفنى وتزول، وإنما تصف النوع الذى يبقى ويدوم. وخصلة أخرى قضت

لهذا الكتاب بالبقاء والخلود، هى أنه لم يقف عند تمثيل الحياة النفسية للشباب فى طور من أطوارها، وإنما وضع للإنسانية مثالًا من الفضيلة تحس كل نفس الميل إليه، وتود لو بلغته أودنت منه. فهو يمثل الإيثار والتضحية أحسن تمثيل، ويصور الولاء للأصدقاء والوفاء للأحباء أجمل تصوير. كل ذلك من غير تكلف ولا تصنع، ومن غير محاولة ولا عناء.

تبع المؤلف طبيعته، وجرى مع فطرته، فما كان إلا أن تناول القلم وخط به فأخرج من ذلك أحسن صورة حية خلابة يرى فيها كل امرئ نفسه، ويشعر مع ذلك بأنه فى حاجة إلى شىء من الجد غير قليل، وإلى مقدار من العناء غير يسير، ليبلغ ما تصوره من الكمال.

وفق صديقنا الزيات إلى حسن الاختيار، فإن الكتاب الذى ترجمه على ما له من شهرة تلزم كل ناشئ أن يقرأه ويتفهمه، يمثل حياة الآداب الأوربية فى عصر هو أشد العصور شبهًا بهذا العصر الذى نسلكه، فقد كانت أوربا حين كتب جوت آلام فرتر تعبر عصر انتقال كعصرنا الذى نعبره. سئمت مثلنا كل قديم وشغفت مثلنا بكل طريف، وددت لو أراحها الكتاب والشعراء من تلك الأساليب العتيقة التى ألفوها فيما يكتبون وينظمون، ومن تلك الآراء البالية التى كانوا يرددونها فى كل ما يقولون، حتى كأن حياتهم العقلية والنفسية لم تكن إلا صورة وفق الأصل لحياة من سبقهم من الكتاب والشعراء مع تغير الأحوال الاجتماعية والسياسية، واستحالة النظريات العلمية والفنية. وليس على هذا السأم والملل من دليل يعدل ما كتبه (جوت) إلى أحد الشعراء: «دعنى أشعر بشىء لم أحسه من قبل، وأفكر فى شىء لم أعهد التفكير فيه، أشكر

لك ذلك شكرًا جميلًا، فأما وضع الضجيج والعجيج مكان التأثر والانفعال فلسنا فى حاجة إليه الآن».

كذلك كان يفكر (جوت) فى ألمانيا، وكذلك كان يفكر غيره فى فرنسا وإنجلترا. كان الكتاب الأوربيون يودون لو خلصوا من تلك الأعباء الثقيلة التى كانت تنوء بالفن الأدبى، ورجعوا فى التعبير عن إحساسهم وعواطفهم إلى الطبيعة الحرة الطليقة. لذلك نشأت طريقة (روسو) فى فرنسا وهى بعينها طريقة (جوت) فى ألمانيا. كلا الرجلين يريد أن يترك لوجدانه وعواطفه الحرية فى أن تظهر للناس واضحة جلية لا يشوبها شوائب الزخرف والتنميق ولا تشوهها معايب التصنع والتقليد.

لذلك كان «روسو» ينادى باقتفاء أثر الطبيعة فى كل شىء، فى النظم والنثر بل فى أنظمة الحياة الاجتماعية والسياسية. وكان «جوت» ينادى بمثل هذا فى الآداب والفنون الجميل. كانت آثار هوميروس وشكسبير وبَيْرَن رفاقه فى وحدته، ونموذجه فى طريقته؛ وهو لم يكتف بمجاراتها وتقليدها، بل كان شخصيته أشد وأقوى من أن تقف عند المجاراة والتقليد فظهرت واضحة جلية فى كل ما كتب.

كان «جوت» شديد الاعتراف بشخصيته والميل إلى إظهارها، فلم يستطع أن يسلك طريق غيره من الكتاب فيتخذ لكتبه وقصائده موضوعات لا تمس شخصه ولا تتصل به، بل كان فى كل ما كتب إنما يعبر قبل كل شىء عن عواطفه الخاصة وما لقى فى دهره من خير وشر.

* * *

ليست آلام فرتر قصة منتحلة أو بناءً متكلفًا استعيرت أجزاؤه المختلفة من الخارج، إنما هى قصة ما أصاب «جوت» نفسه إبان شبابه. ومن هنا برئ الكتاب مما يشوه غيره من آفة الكذب والاختراع.

هام «جوت» بينما كان فى «وتسلار» يتدرب على المحاماة بفتاه يقال لها «شرلوت» وهامت به هذه الفتاة، ولكنها كانت مخطوبة إلى فتى يقال له «كستنر» فلم يستطع هذا الهيام إلا أن يأخذ شكل الصداقة والإخاء الصحيحين. وقد حاول «جوت» أن يحفظ لهذه الصلة شكلها البرئ فاتصل الإخاء بينه وبين كستنر، وألف العاشقان والعشيقة جماعة تصل بين أفرادها صلة طاهرة نقية. ولكن الحب كان أشد قوة وبأسًا من الشجاعة النفسية والحرص على المودة والوفاء.

أشفق «جوت» على نفسه وعلى صاحبيه فترك «وتسلار» وتم القران بين الخطيبة وخطيبها، فأحدث ذلك فى نفس شاعرنا ضروبًا شتى من التأثر والانفعال. فتارة يرضى وتارة يسخط وأحيانًا يذعن وأخرى يثور. ونجد ذلك كله مصورًا فى آلام فرتر. ولكن الكتاب يخالف الواقع فى شىء واحد هو أن «جوت» لم ينتحر كما انتحر فرتر، ولم يكن بينه وبين صديقه «كستنر» من البغض والعداء ما كان بين «فرتر» و«ألبير» فى آخر أيامه. إنما أخذ «جوت» فكرة الانتحار من حادثة وقعت فى «وتسلار»؛ وهى أن شابًا قد عرفه العاشقان سرى الخلق رقيق الطبع انتحر لإخفاقه فى قصة غرامية بينه وبين فتاة من فتيات المدينة. فأخذ «جوت» من هذه الحادثة ما ختم به حياة «فرتر».

ألف «جوت» آلام فرتر سنة ١٧٧٤ فلم يمض على انتشاره أشهر حتى عرفته ألمانيا كلها، وحتى كان مجد مؤلفه شاهقًا متين

الأساس. ولكن وقع هذا الكتاب الغريب فى نفس صديقته شرلوت وكستنر كان شديدًا. فاشتد اللوم والعتاب من جهة، واشتد الاعتذار والاستغفار من جهة أخرى، ثم كان العفو والإعذار. ولعل من ألذ ما يقرأ القارئ ما كان بين هؤلاء النفر الثلاثة من الرسائل الذى نشرها للناس رابع أولاد «شرلوت» و«كستنر» فى منتصف القرن التاسع عشر.

لا يزال الكتاب يختلفون ويتناقشون، فبعضهم يبيح للكاتب والشاعر وللناقش والمصور أن يتخذ الأشخاص الأحياء وحياتهم موضوعًا لنظمه ونثره، ولنقشه وتصويره، لأن ذلك إن آذى الأشخاص وأساء إليهم ففيه للجماعة خير وإحسان. وبعضهم يحظر عليه أن يسلك هذا المسلك لأن حياة الأشخاص وأسرارهم وشعورهم وعواطفهم مقدسة ليس لأحد أن يبيحها أو يذيعها مهما كان ذلك نافعًا ومهما اشتمل عليه من الخير. وسواء أخطأ أولئك أم هؤلاء فإن آلام فرتر قد نشرت فى أوربا فتهافت عليها الناس وأحدثت فى نفوسهم من الأثر الحسن أو السيئ ما كانت خليقة بإحداثه. وهى لا تزال إلى الآن وستبقى أبد الدهر موضع بحث العلماء وعناية الفنيين.

* * *

من الناس من يأخذ على هذا الكتاب أنه يحمل الشباب على الانتحار ويرغبهم فيه، ويستدل على ذلك بالعدد الوافر الذى انتحر من الشباب فى ألمانيا وفرنسا وغيرهما من بلاد أوربا عند قراءته ، ويخيل إلىّ أن هؤلاء لم يوفقوا إلى القصد ولم يهتدوا سواء السبيل. هب

أن الكتاب قد ساء أثره حينًا ما فإن هناك حقيقة ليس إلى إنكارها من سبيل: هى أن الكتاب قد بلغ من الجمال والروعة مبلغًا يُلزم كل محب للفن أن يقرأه، ونزل من آثار الفن الحديث منزلة توجب على كل أستاذ من أساتذة الأدب أن يقف عليه. على أنى أعتقد أن ما كان من سوء أثر الكتاب عند ظهوره قد بولغ فيه وأسرف الناس فى وصفه؛ فإنما أساء بعض الشبان ذوى آلنفوس المريضة فهمه والاستفادة منه، لأن ظروف الحياة الاجتماعية كانت من الشدة والضيق فى أوربا بحيث تجعل نفوس كثير من الناس ضعيفة رخوة، وخانعة مستسلمة، لا تستطيع مقاومة ولا احتمالًا، وآية ذلك أن الكتاب لا يزال يقرأ ويدرس، بل هو الآن يمثل فى الملاعب ويغنى فى دور الموسيقى من غير أن يحدث من سوء الأثر وقبح العاقبة ما أحدثه حينًا ما.

ذلك لأن الظروف الاجتماعية الخاصة التى ملأت نفوس الأوروبيين سأمًا وملالا فى أوائل القرن التاسع عشر قد انقضت واستحالت، وأصبح الناس وقد ملأهم الأمل وملكتهم الرغبة فى الحياة وما فيها من لذة ونعيم، فلم يبق من ذها الكتاب إلا أثره النافع وهو كما قدمنا عظيم جليل الخطر.

* * *

وفق صديقنا الزيات إلى حسن الاختيار ووفق إلى حسن الترجمة أيضًا على ما كان يعترضه فى سبيل ذلك من المصاعب والعقبات. فإن آلام فرتر ليست من السهولة واليسر بحيث يستطيع القارئ أن يفهمها لأول قراءة بَلهَ القدرة على نقلها وترجمتها. ذلك لأنها صورة نفس كبيرة دقيقة الحس والعاطفة هى نفس «جوت»، ولأن فيها من

دقيق الوصف الحسى من جهة، والآراء الفلسفية من جهة أخرى ما يعسر فهمه والوقوف عليه. أضف إلى ذلك أن اللغة العربية لم تألف هذا النوع من الوصف والفلسفة لأن أبناءها لم يسلكوا بها هذا الطريق. فإذا لاحظنا أن الأستاذ الزيات لم ينقل هذا الكتاب من لغته الأولى، وإنما نقله عن الفرنسية[1]، وأنه قد استطاع مع هذا كله أن يخرج لنا منه صورة صحيحة رائقة، عرفنا مقدار ما عانى فى سبيل ذلك من مشقة، وما كابد من صعوبة. ولكننى أخشى إن أطلت فى مدح صديقى وقدمت إليه من الشكر والثناء ما هو خليق به أن أسىء إليه أو أن أوذيه، فقد عودنى وعودته أن نتقارض النقد لا أن نتقارض الثناء فإلى الشباب المصرى أقدم باسم صديقى هذا الكتاب وأنا واثق أنه سيجد من عنايتهم به، وانكبابهم على قراءته وتفهمه، أجمل شكر على ما بذل من جهد، وأحسن تشجيع على ما هو باذل فى خدمة الأدب منذ اليوم إن شاء الله.

طه حسين

(١) ترجم عن طبعة فلامريون وترجمة (سفلنج) و(بيتوب) وقوبل على ترجمتين أخريين.

اهداء المترجم

صدقى أ. ز. نزيلَ نوتِنْجهام

لو سألتنى وأنا أعلم الناس بك أن أصف خطَرات نفسك، وأصوّر نزَعات وِجدانك وحِسّك، لما كنتَ إلا فرتر!

فيك دقة شعوره ورقة قلبه؛ فيك قوة إخلاصه وشدة حبه، فيك حدة ذكائه وتصوره؛ فيك سرعة بكائه وتأثرِه؛ فيك حدَ به على المستضعفين، وسخطه على المستكبرين؛ فيك خياله الوثاب وروحه الجذاب وخلقه المصفَّى و... غرامه اليائس....!

قرآتُ فرتر ليالَى ناءت بقلبك الغص عاطفة أليمة فأقَضَّت مضجعك، وأسالت مدمعك، وتركتك كالملاك رُوحا من غير جسم، وهوًى من غير إثم، ونَبْعًا يجيش بالوجدان الحى والشعور الصادق والحب البرئ، فكانت حالتك تمثيلًا لحالته، وآهتك تفسيرًا لعبارته. ثم ترجمتُه وقد سافرتَ كما سافر، فكان شخصك فى ناظرى، ووحيك فى خاطرى، ولفظك على لسانى، ويراعك فى يدي.

أنما المثل الأعلى للشبيبة الحساسة العاملة. وما رجوت من نقل هذه النفحات السماوية إلا إيقاظ العواطف السامية فى صدور الشباب، فإن مبعث النهضات الاجتماعية إنما هو العواطف المتقدة، والخواطر الملتهبة، والنفوس المضطرمة؛ أما العقول الرزينة الهادئة، والأذهان المنطقية الساكنة، فهى خمود فى ثورة القلوب، وقعوده فى نهضة الشعوب!

فإليك يا صديق النفس ومَهْوى الفؤاد أقدم هذا الكتاب، لأنك أعلم الناس بواجبه، وأفهم القارئين لكاتبه، وليكون تحية على البعد خالدة، وآية على الإخلاص والود شاهدة.

أول مارس سنة ١٩٢٠

«**أ. الزيات**».

تقدمة المؤلف

عُنيتُ بجمع ما تيسر لى جمعه من نبأ البائس فرتر. وإنى أقدمه إليك وأعلم أنك ستحمد ما صنعت، وتشكر لى ما جمعت.

إنك لن تستطيع وأنت تقرأه أن تحبس نفسك عن الإعجاب بفكره وقوة حسه، ولا قلبَك عن الولوع بخُلقه وشرف نفسه، ولا عينَك عن البكاء لعثار جَدّه وبؤسه!

وأنت أيتها النفس اللطيفة الشاعرة! إذا أشجاك ما أشجاه من غصة الهم وحرقة الجوى فاستمدى الصبر والعزاء من آلامه، وتلمسى البرء والشفاء فى أسقامه، واتخذى هذا الكتاب صاحبًا وصديقًا إذا أبى عليك دهرك أو خطؤكِ أن تجدى من الأصدقاء من هو أقرب إليك، وأحنى عليك.

«جيته»

الجزء الأول

٤ مايو سنة ١٧٧١

لَشَدّ ما أبهج نفسى وأثلج فؤادى أننى سافرت! وتلك عجيبة من عجائب القلب يا صديقي! كيف أُسرّف وقد روَّعنا البيْنُ[١]، وصدَّعنا الفراق، وأنت الذى أُشْرِبْتُ[٢] محبته وما كنت أُطيق الصبر عنه؟ على أننى واثق منك بالصفح والمغفرة.

إن صلاتى بغيرك كانت على ما رأيتُ وسيلة من وسائل القدر لتعيب قلب شديد الحساسية كقلبى. وارحمةً لك يا لينور! لقد تألمتِ فى رضاى، وشقيتِ فى هواى، ولكننى ما لقيتِ برئ.. ما ذنبى إذا كان الهوى ينبت سرًا فى قلبها البائس على حين كانت أختها تبتغى الوسيلة إلى قلبى بملاهيها الجميلة ورشاقتها الفاتنة؟ على أننى لا أبرئ نفسى كل البراءة. ألم أناقلها أحاديث الهوى والصبابة؟ ألم أَلْهُ بهجتها الساذجة الصادقة فى شرح وجدانها وشعورها؟ ولطالما أضحكنى ذلك منها وإن لم يكن فى الأمر ما يضحك! ألم.. أواه! ما الإنسان حتى يجرؤعلى شكاية نفسه؟

---

(١) البين: البعد.

(٢) خالط حبك قلبى.

لقد وعدتك يا صديقى أن أصلح نفسى فلا أريد أن ألحَّ كما كنت أصنع فى اكتناه[١] الأشجان اليسيرة التى تشرقنا بها يد القدَر. أريد أن أنعم بالحاضر وأعدَّ الماضى نسيًا منسيًا.

لقد أصبتَ. فإن الناس لو لم يَرُوضوا[٢] مخيلاتهم ويريدونها على أن تذكر الام الماضى لكانوا أخف أحزانًا وأقل أشجانًا. والله يعلم لمَ جُبلوا كذلك وقد كانوا أحرياء أن يعملوا على أن يجعلوا كفاف حاضرهم محتملًا مقبولًا.

قل لأمى ولك الفضل ـ إننى سأُعنَى بقضيتها وسأطالعها بخبرها عما قليل...

لقد قابلت خالتى فوجدتها ليست من الخبث فى المنزلة التى أحللناها إياها. أجل، إنها حديدة الطبع قصيرة الأناة[٣]، ولكنها طيبة القلب نبيلة النفس... بسطت لها ما تشكوه أمى من أمر ترائها[٤] المغصوب فوَقَفَتنى على أسباب تلك الشكوى؛ وقالت: إنها مستعدة أن تنزل لنا عن أكثر مما ندعيه على شروط ذكرتها.. وقصارا اليوم أن أقف فى هذا الموضوع عند ما كتبت. فقل لوالدتى إن الأمر سينتهى على ما تُحب.

زادتنى هذه المفاوضة القصيرة علمًا بأن سوء التفاهم والإهمال

---

(١) اكتنه الشىء: بلغ كنهه أى حقيقته وغايته.
(٢) يذللونها ويعودونها.
(٣) الحلم والوقار.
(٤) الميراث.

ربما أحدثا من الشقاق والخلاف أكثر مما يحدثه الخِبُّ[١] والخبث. فإن تساويا فى الأسباب فهذان أندر وجودًا.

أصبحت فى هذا المكان رافهًا وادعًا، أجد فى مناظره بهجة الفردوس وزهرة النعيم، وفى الخلوة به دواءً القلب وشفاء النفس، وأقبس فؤادى المقرور[٢] من هذه الحرارة الفائضة والحياة النابضة فى ذلك الربيع الطلق.

عملت فيه يد الطبيعة فجعلت كل شجرة وكل سياج لفيفًا من الأهار فمن رآه تمنى لو يعود فراشة فيطير فوق هذا المحيط المائج بالعطر والطيب يلتمس فيه غذاءه الوحيد.

المدينة قليلة الرُّواء والجمال؛ ولكن الله عاضها من ذلك بهجة حواشيها ونضرة ضواحيها، فإن جمال الطبيعة فيهن لا يدركه وصف، ولا يسأمه طَرْف... وذلك ما حدا بالكُنتِ (م) أن يخط حديقته على ربوة من تلك الرُّبى الجميلة التى تتلاقى فتكوّن الأودية المونقة الرائعة.

هذه الحديقة ساذجة النظام والزخرف؛ بتشمل فى خاطر داخلها لأول وهلة أن رسومها لم تخطها يد جنّان[٣] صَنَاع[٤]، بل دبجها قلب حساس ليتمتع فيها بنفسه، وليذهب مع خياله وحسه.

---

(١) المكر.
(٢) البارد.
(٣) البستانى.
(٤) الحاذق.

وقفت بالجوسق[1] البالى الذى شاده صاحب الحديقة بها ليكون مثوى لنفسه، وملاذًا لها من همه، فأرسَلَتْ عيناى عبرتين على ذِكرَى هذا الراحل، واتخذت هذا المكان من بعده حِمى ومستقرًا.

سأصبح عما قليل رب الحيقة، فقد توثقت بينى وبين البستانى عرى المودة. ولن يجد منى بحمد الله ما يُعقبه على تلك الصداقة ندمًا.

١٠ مايو

أصبحت نفسى طليقةً من عِال الهموم، غريقةً فى صفاء الهدوء، مشابهة للربيع الطلق فى سكون صباحه الضاحك، وجمال ضُحَاه الزاهر، متمتعةً بما تشاهد من جلاله ورُوائه؛ وغدوتُ فى هذا البلد الملائم لمثل قلبى وحيدًا مرسلَ النفس مطلق العنان فى مُتَع الحياة ومسراتها.

أنا يا صديقى رخيّ البال سيعد النفس، وإن قواى ومَلَكاتى لفانية مستغرقة فى سكرة هذه الحياة الراضية المطمئنة؛ وذلك ما يُسخط الفن ولا يُرضى القلم؛ فإن من المحال فى مذل هذه الحال أن أرسم خطًا أو أخط رسمًا. على أننى لم أكن كاليوم أقوى شعورًا بالكون، ولا أتم استعدادًا بللرسم. أقلب النظر حولى فأرى ذلك الوادى الحبيب وقد غشيه من البخار سحاب مركوم[2]، وأبصر الشمس فى مُتُوع النهار تبدد بلألائها ظلام الغابة الحالك، وتتسرب أشعتها إلى

(١) الكشك بلغة العامة.

(٢) مجتمع بعضه فوق بعض.

جوف محرابى المقدس، وأتبين ضروبًا شتى من النبات وتتسرب أشعتها إلى جوف محرابى المقدس، وأتبين ضروبًا شتى من النبات وأنا أنظر إلى أديم الأرض مفترشًا بساط الأعشاب السامقة على مقربة من هدير الجدول، وأتأمل ذلك العالم الصغير يموج بعضه فى بعض تحت وُرَيقة من أوراق الكلأ[١]، وتلك الحشرات والخوامّ ذوات الأشكال العديدة والألوان المختلفة التى تتحدى الناظر وتُعَاجز المراقب؛ وأحس فى نفسى شهود القوى القادر الذى برأنا [٢]على صورته، وأمنا برَوْحه[٣] وقوته، وقادنا إلى النعيم المقيم بفضله ومِنته. أرى كل ذلك يا صديقى وأشعر به فترتفع عن ناظرى أغشية الحجُب، وتنطبع فى خاطرى صورة هذا العالم الكبير كما تتطبع فى القلب صورة المحبوب، فتستخفنى نَزِيَّةٌ[٤] من الشوق إلى تصويره، وأقول لنفسى: «آه! ليتنى أستطيع أن أشرح كل هذا! وليت يدى تقدر على إراز ما أثر فى نفسى من هذه المناظر والمظاهر على القرطاس جيًّا نقيًا، فتكون هذه الصورة مرآة نفسى كما أن نفسى مرآة الله»، ولكن بهاء هذه الصور، وسناء تلك الرُّؤى[٥] يملكان عليَّ طريق العمل فأقف إزاءها وضيعًا، وأخرّ أمامها صريعًا!

---

(١) متوع النهار: غاية ارتفاعه قبل الزوال.

(٢) خلقنا.

(٣) الرحمة والمساعدة.

(٤) حدة.

(٥) جمع رؤيا Visionوهى ما يوحيه الله فى الخواطر أو فى النواظر من الأشباح والصور.

١٢ مايو

لعمرك ما أردك أأرواح ساحرة تجول فى هذا الوادى، أم خيال سماوى تملَكَ فؤادى وخلع على ما حولى من الأشياء وَضَاءَة الحسن ونضارة الفردوس؟ على مقربة من هذا المكان ينبجس ينبوع عذب بتُّ به مفتونًا وبقربه مسحورًا كأننى ميلوزين[١] وأخواتها. يهبط الذاهب إليه رابية صغيرة فيجد بنادً معقودًا ذا عشرين دركةً[٢] تنزل به إلى ذلك الماء النمير الذى يَسَّاقط من خلال الرخام قطرة فقطرة. أقف بهذه المغارة فأشاهد الحائط القصير الذى يكنُفُها، والأشجار الباسقة التى تكلللها، وطراءة الهواء المنعشة التى تملؤها، فتفيض جوانب نفسى جلالًا ورهبة. وبعيدٌ أن يتصرم يوم دون أن أقضى فى هذه المغارة ساعة من نهار. كذلك فتيات المدينة يَرِدْنها كل يوم فيملأن جرارهن، وذلك عمل نافع برئ ما كانت بنات الملوك قديمًا يخجلن من مزاولته، ولا يزنفن من مباشرته.

لا أكاد أجلس فى هذا المكان حتى تتمثل فى خاطرى ذكرى العهود الأولى عهود الحياة الأبوية[٣]، فيخيل إليَّ أنى أرى أولئك الآباء الكهول وهم على الماء يتعارفون ويتصافقون[٤] ويزوجون

---

(١) جنية خرافية نصفها امرأة ونصفها الآخر أفعى. يزعمون أنها بانية قصر لوزينيان وحاميته. ومن عادتها ألا تظهر على برجه الأكبر إلا إذا حانت منية أحد من أهله.

(٢) الدركة: المنزلة من السلم إذا اعتبرت النزول ويقابلها الدرجة للصاعد.

(٣) يريد العهود الأبوية Patriarcal حين كل للأب سلطان واسع على أفراد الأسرة الراشدين منهم والقاصرين.

(٤) يتبايعون.

بنيهم من بناتهم بدالًا، وتتراءى لعينى أرواح خيرة تطوف حول آبار وعيون.

من لم ينل يا صاح نصيبه من هذا الشعور، ويدرك قسطه من هذا التأثر لم يذق قط حلاوة النسيم الرطب، على شفير المنهل العذب، بعد مسير يوم قائظ تتوقد هواجره، وتتحرق سمائمه.

١٣ مايو

بعثت إلى تسألنى هل ترسل كُتبى إليّ؟ نشدتك الله ألا تفعل! دعنى أستنشق نسيم الراحة. لا أريد أن أقاد ولا أن أُهاج ولا أن أُحرَّض. إن قلبى كالسيل المتدفق الهادر؛ فهو أحوج إلى أن يُهَدْهَدَ[1] بالغناء حتى يقر ويسكن؛ وإن فى شعر هوميروس لبلاغًا وغُنية. لَشَدَّ ما وجدت فى هذه الأشعار مُسكِّنًا لدمى الفائر، ومهدئًا لقلبى الثائر! فإنك لا ترى فى القلوب أشد تغيرًا ولا أكثر اضطرابًا من قلبى. وهل أنا فى حاجة إلى أن أبوح لك بهذا القول وأنت الذى طالما ابتأست إذ ترانى أتحول فجأة من شدة الوصب إلى هِزَّة الطرب، ومن سكون الحشمة إلى حدة الهوى؟ أنا أُعامل قلبى معاملة الطفل المريض: أسير على حكمه، وأقف عند إرادته. لا تجهر لأحد بهذا، فإن من الناس من يراه جريمة.

١٥ مايو

سرعان ما عرفنى أهل القرية وأحبنى كبارها، وأنس إليَّ صغارها

(١) هدهدت الصبى أمه: حركته لينام.

وقد كنت فى بادئ الأمر كلما دانيتهم برفق، أو ساءلتهم بلطف، نفروا منى وأعرضوا عنى، كأنهم يظنون أنى أهزأُ بهم وأسخر منهم. ما كنت أكثرت لهذا ولا أعوج [١] به، إلا أنه زادنى يقينًا بما لاحظته غير مرة: لاحظت أن بعض الخاصة يعتزلون الشعب ويترفعون عنه ترفعًا ثقيلًا، كأنهم يخشون أن يطأطء ذلك من عزتهم، ويغض من قيمتهم. وآخرون منهم طائشون لا يقتربون من الدهماء [٢] إلا ليؤلموهم بالنظرات المزرية، ويَخِزُوهم بالكلمات المنْدِية [٣].

أعلم علم اليقين أن الناس ليسوا جميعًا سواء، وزن من المحال أن يكونوا كذلك؛ ولكنى أرى أن من يجد نفسه فى حاجة إلى أن يقف على مرحلة مما يسمونه الشعب ليعظم قدره فى النفوس وترسخ مهابته فى الصدور، ليس أقل خطأ من ذلك الجبان الذى يختبئ من قِرنه خشاة أن يهوى صريعًا لديه أمامه.

ذهبت إلى الينبوع بالأمس فبصرت عنده بفتاة قد وضعت جرَّتها على الدركة السفلى، ثم تلفتت يمنة ويَسرة لعلها تجد من صواحبها من تعينها على حمل الجرّة، فهبطت إليها وقلت لها بعد أن تأملتها: «أتقبلين يا بنيتى العزيزة أن أساعدك على حمل جرتك؟» فضرَّج الخجل وجنتيه وأجابت بلهجة الصاغر [٤] المشْدُوه: أوه! عفوًا يا مولاى! فقلت لها: هلمى فلا بأس من ذلك ولا كلفة. فأصلحت حَويَّتها واستقلت جرَّتها، ثم صعدت السلم ممتنة شاكرة.

---

(١) لا أحفل به.

(٢) العامة.

(٣) المخجلة.

(٤) الصاغر: الذليل، والمشدوه: الدهش المتحير.

١٧ مايو

عرفت الناس آحادًا من كل نمط، وما وُفقت إلى اختيار صحابة منهم بعدُ. ولا أدرى أى شىء فيَّ يعطف الناس عليَّ ويجذبهم إليَّ، فإن كثيرًا منهم يُعجبون بخصالى، ويصلون حبالهم بحبالى، وقد أحسُّ من قلبى الإصغاء[١] إليهم بالمودة حتى ليحزُننى وأنا أُماشيهم أن تقف بنا الطريق فلا نواصل السير جميعًا.

إذا سألت ما حال الرجال فى هذا البلد فاعلم أن الناس هم الناس فى كل مكان، وأن بنى آدم على غرار[٢] واحد. تجد سوادهم ينفق معظم أوقاته فى الكَدْح لحياته، فإذا بقيت لهم ساعة من فراغ كانت على كواهلهم عبئًا لا يألون جهدًا فى الخلاص منه. يا للإنسان ما أنكد حظه!! وهم ما عدا ذلك على شىء من الشهامة والكرامة.

يحدث أحيانًا أن أنسى نفسى فأشاطرهم ما بقى للإنسان من مُتع العيش، كالالتفاف حول خِوان يحفه الإخلاص والوفاء، والخروج فى مركبة إلى نزهة خلوية، والاجتماع فى مرقص أقيم لمناسبة داعية، فأجد بتلك الملاهى روحًا[٣] ومسرة ما دمت فى ذهول عن نفسى، فلا أذكر أن لى قوَى عاطلة أصدأها الإخلاد إلى التبطل والاستنامة إلى الراحة، وأصبح سترها عن الناس واجبًا مرعيًا. أواه! لشد ما يقنبض لذلك صدرى ويلتاع فؤادي! على أن حظى وحظ أمثال أن نعيش فى هذه الحياة مجهولين غير مفهومين.

---

(١) الميل.

(٢) على طريقة واحدة ومجرى واحد.

(٣) فرحًا.

واويلتاه! ولِمَ فجعنى الموت فى صديقة صباى ولماذا عرفتها؟ لقد كنت أقول لنفسى وهى ترتاد لها حبيبًا: «يا حمقاء! إنك تطلبين محالًا وتتبعين خيالًا» فلما لقيتها وجدت ذلك الحبيب وعرفته، وشعرت أن بقربى قلبًا كريمًا ونفسًا نقية كنت وأنا معها أجدنى أطيب عنصرًا وأخلص جوهرًا من قبل؛ لأنى كنت كل ما أستطيع أن أكون. يا للهه! وهل كانت قوة من قوى النفس والحس لا تجد إذ ذاك عملها؟ ألم أكن أمامها أستطيع أن أبسط تلك الحاسة العجيبة التى أستوعب الطبيعة بها وأفهمها؟ ألم نتساقط[١] أعذب الأحداث الجامعة بين العواطف الرقيقة والأفكار الدقيقة؟ تلك الأحاديث المُصَرَّفة[٢] المطبوعة بطابع الذكاء والعبقرية حتى فى سفهها ومجونها؟ أما الآن فواحَرَباه! إن السنين التى تزيدها عليَّ فى العمر عَجلت بها إلى القبر! فهيهات أن أسلو تلك الفتاة الوقورة الصبورة، ومحال أن أنسى تلك النفس المحتسبة السمحة.

لقيت منذ أيام فتى أصحر[٣] القلب وضّاح المحيا يدعى (ن) لا يزال حديث عهد بالجامعة. وهو وإن لم يعد نفسه فى العلماء يعتقد أنه أعلم من غيره. وقد لاحظت مرارًا أنه يحسن الانتفاع بوقته وأنه على حظ من العلم والأدب غير قليل.

لم يكد يعلم أنى أحسن التصوير وأجيد اليونانية (وهذا شيئان

---

(١) نتناقل.

(٢) المشتق بعضها من بعض.

(٣) ظاهر السريرة مكشوف الضمير.

غريبان هنا) حتى سعى إلى معرفتى وأخذ ينفض إليَّ جملة علمه، ويخرج دفائن صدره: من (باتو) إلى (وُود) ومن (بيلس) إلى (وَنْكلمان). وأكد لى أنه استوعب الجزء الأول من (نظرة الفنون الجميلة) لمولزر، وأن تحت يده مؤلفًا مخطوطًا فى موضوع الفن القديم (لهين)؛ فتركته يعب عُابه دون مراجعة ولا مقاطعة.

كذلك عرفت نائب الأمير وحاكم البلد وهو رجل طاهر القلب سريُّ الخلق حر الضمير. وقد يقال إن منظره بين أطفال التسعة ليملك القلب ويستهوى الخاطر. والناس يهتفون[1] بأبنائه، ولكنهم يخصون بنته البكر باثناء والإعجاب. دعانى إلى زيارته فلبيت. وسأدوره بكرة الغد. إنه يقطن منزل صيد للأمير على فرسخ ونصف من المدينة استأذن المالك أن يلجأ إليه عقب وفاة امرأته فرارًا من الإقامة فى بيت فجع فيه بشريكة حياته ومسكن نفسه.

لقيت عدا من ذكرت أنماطًا غريبة من الناس كل ما فيهم غير محتمل، ولا سيما تلك الجمل الجوفُ التى يزَوِّرونها[2] بين يديّ تأكيدًا لصداقتهم، وتأييدًا لمودتهم!

ذلك يا صديقى كتاب قصصى سيعجبك ويطربك، وإنى أستودعك الله.

---

(١) هتف بفلان: مدحه.

(٢) يهيئونها ويزينونها.

٢٢ مايو

يرى بعض الناس أن الحياة حُلم؛ وذلك ما أراه وأسمع صداه فى كل مكان. كلما رأيت أن قوى الإنسان العاملة العاقلة محصورة فى حدود ضيقة، وأن جهدنا الجاهد لا يصرف إلا فى قضاء حاجتنا وإمضاء رغباتنا، وما لهذه الحاجات ولا لتلك الرغبات غاية غير تطويل هذه الحياة الحقيرة؛ وكلما تحققت أننا لا نستطيع أن نُريح أفكارنا ونرضيها بالاطمئنان إلى الحق الصُّرَاح فى مسألة من المسائل، بل نُرَفِّه عنها بتسليم وإذعان مصحوبين بأحلام وأوهام، كالسجين يحصره الظلام والقيد فينقش على جدران سجنه صورًا زاهية وأشكالًا زاهرة؛ كلما خطرت لى هذه الخواطر أقف أمامها مشتركًا مشدوهًا[١] لا أحير جوابًا ولا أعرف صوابًا!

ثم أرجع إلى نفسى فأجدنى منطويًا على عالم آخر أشبه بهذا العالم الخارجى، يقوم على المشاعر المتوقعة بالمبهة، والرغائب المشتبهة الغامضة، دون الصور البينة والحقائق الواضحة. حينئذ تمر الأشياء أمامى خفاقة طافية تكسوها زغطية كثيفة من السحب، فأواصل السير خلال هذا العالم باسمًا حالمًا.

أطبق[٢] علماء التربية على أن الأطفال لا يعلمون لما يريدون سببًا. ولكنك إذا قلت لهم إن الرجال كالأطفال يسيرون فى هذه الأرض خَبْط عشواء بأقدام زَلِقة، وأحلام قلقة، لا يعرفون لوجودهم وِردًا

(١) المشترك: من يحدث نفسه كالمهموم الموسوس. والمشدوه من دهش ونتحير.
(٢) أجمعوا رأيهم.

ولا صَدَرًا، ولا يدرون لعملهم غايةً ولا غرضًا، وأنهم كالأطفال يساسون تارة بالحلوى وتارة بالعصا، أكبروا هذا القول وجعلوه دَبْر آذانهم؛ مع أن الواقع يؤيده، والحواس تدركه!

أوافقك ـ لأنى أعلم ماذا سيكون ردك ـ على أن أسعد الناس هم أولئك الذين كالأطفال يذهلون عن الماضى ويغفلون عن المستقبل ولا يفكرون إلا فى الحاضر. يُهدهِدون[1] عرائسهم الخشبية ويلبسونهن حللهن مرة وينضونها عنهن أخرى، ويطوفون حول خزانة الحلوى بإجلال وهيبة؛ حتى إذا نفحتهم أمهاتهم ما يرغبون التهموه ملء أفواههم ثم صاحوا قائلين: «نريد أيضًا». هؤلاء سعداء بلا ريب. ومثلهم أولئك الذين ينحلون[2] أعمالهم الحقيرة وآمالهم الباطلة العناوين الضخمة والمظاهر الفخمة، ويقنعون الناس بذلك التمويه والتلبيس أنها أعمال جسيمة تكفل للإنسان سعادة النفس ورغد العيش وزينة الحياة. طوبى لمن استطاع أن يكون كذلك. ولكن الرجل الذى ينظر ساكنًا خاشعًا إلى عُقبى هذه الأشياء، ويرى بإحدى مقلتيه ذلك الحضرى المترف يجعل من جنينته الصغيرة جنة كبيرة وهو مبتهج جَذِل، ويلحظ بالأخرى ذلك البائس الفقير يمشى دائبًا تحت عبء الشقاء، متساقطًا من الأين[3] والإعياء وهو مستسلم صابر، وكلاهما يطمح إلى أن يرى نور الشمس ولو دقيقة فوق عمره؛ ذلك الرجل يعيش رخيَّ البال سابحًا فى عالم قد خلقه من نفسه لنفسه

(١) هدهدت الصبى أمه: حركته لينام.
(٢) نسبوا إليها ما ليس لها.
(٣) التعب.

بنفسه؛ وهو أيضًا سعيد لأنه رجل. ومهما تكن الحوائل التى تتصداه وتعوقه، فلا ينفقك حافظًا فى قلبه أعذب الشعور بأنه طليق، وأنه يستطيع متى شاء أن يخرج من هذا السجن العميق.

٢٦ مايو

أنت تعلم منذ بعيد مذهبى فى السكنى إذا طابت لى الإقامة واطمأن بى المنزل: أنتبذ مكانًا خليًّا فأخيم به، ثم أعيش عيشة قانعة متواضعة. ولقد وجدت هنا محلة صغيرة سحرنى جمالها، وسرنى انعزالها.

على نحو فرسخ من المدينة تقوم على إحدى الربى الجميلة دَسكرةٌ[١] تدعى وَلْهِم[٢] لا تقع العين على مثلها فى جمال الموقع وطيب الموضع. وإذا صعَّدت فى الذاهبة إليها أخذت عينُك منظر الوادى بنظرة واحدة. صعَّدت فى الطريق ذاهبة إليها أخذت عينُك منظر الوادى بنظرة واحدة. فى هذه القرية فندق صغير لامرأة ذات مروءة ونشاط تبيع فيه النبيذ والجعة والقهوة. وأجمل ما تراه هنالك شجرتان من شجر الزيزفون تغطيان بأفنانهما المتهدلة الساحة الصغيرة الواقعة أمام الكنيسة، وقد أحاطت بهما أكواخ القرويين وأهراء[٣] الغلال من كل جانب.

---

(١) القرية العظيمة.

(٢) لا يتعب القارئ نفسه فى البحث عن الأمكنة المسماة هنا فقد اضطررنا أن نغير أسماءها ونحفى معالمها «جوت».

(٣) جمع هرى: مخازن الغلال.

تحت هاتين الشجرتين وجدت ذلك المكان المنعزل الخالى، فنقلت إليه من الحان كرسيًّا ومنضدة وأقمت به أشرب القهوة على أشعار هوميروس.

قادتنى المصادفة إلى هاتين الشجرتين فى عصر يوم جميل، وكان الحى خِلْوا من أهله، والفالحون يعملون فى الحقول، فلم أَرَ إلا غلامًا فى عامِه الرابع قد أجلس رضيعًا فى شهره السادس بين ركبتيه، وضمه إلى صدره بذراعيه، وهو ساكن الحركة مطمئن الجِلسة على حِدَّة نظَراتِه وسرعة لفتاته. راقنى هذا المنظر القروى، وسرنى هذا المظهر الأخوى، فجلست تلقَاءه على محراث وأخذت أرسمه.

أضفت إليه السياج الملاصق وباب مخزن من المخازن وبعض العجلات المحطمة كلًّا على حاله، ثم نظرت بعد ساعة فيما صنعت فإذا بى قد رسمت صورة رائعة دون أن أزيد عليها شيئًا من عندى. فوطد ذلك عزمى على أن أقف عند الطبيعة لا أجاوز سيرها، ولا أستمد غيرها، فهى المنجم الذى لا ينفد، والمنبع الذى لا ينضب. وهى التى تخلق نوابغ الفن وتلهمهم أسرارها.

إن لقواعد الفن محاسن يعرفها لها كل الناس كما يعرفونها لقوانين المجتمع. فالفنّان[1] الذى يأخذ نفسه بتلك القواعد لا يأتى عملًا محالًا فِعْلُه، ولا رديئًا كلُّه؛ كذلك الرجل الذى يجرى على منهاج الأدب ويسير على أنظمة المجتمع لا يكون جارًا ثقيلًا ولا شقيًّا شريرًا. ولكن مهما قيل فإن القواعد تجنى على الطبيعة:

(١) كلمة استعرناها لصاحب الفن Artiste.

تفسد عاطفتها الصالحة، وتبهم عبارتها الواضحة. سترمينى بالجور والمبالغة وتقول: إن القواعد تضع الحدود المناسبة، وتشذّب الغصون الزائدة، وهلم جرًّا. ولكنى أقرِّب الأمر إليك بالتشبيه: الفن والحب سبيلهما واحدة وأمرهما متفق. فلو أن شابًّا فَتِيَّ القلب تيَّمَه حب غادة فأنفق على حديثها ساعاته، وقصَر عليها مَلَكاته[1] وممتلكاته ليدلها على أنه وهبها فؤاده، وملَّكها قياده. ثم جاءه مدنى متحذلق[2] وقال له: «سيدي! إن الحب توجبه الإنسانية، وتقتضيه الطبيعة البشرية؛ ولكن أجمل بك أن توفق فى الحب بين عقلك وقلبك. قسم زمانك فاجعل ساعات العمل نصيبك، وخُص بساعات الفراغ حبيبك. ثم احسُب دخْلك وخرْجك، فإذا فضل بعد نفقتك شيء فلا أمنعك أن تُطْرف غادتك ببعض التحف على شرط أن تقصد فى ذلك وتقصره على يوم ميلادها أو يوم عيدها».

لو أن هذا الشاب ألقى سمعه إلى هذا الناصح وأخذ برأيه لأصبح نابغًا خطيرًا، ولاخترته أن يكون لأحد الأمراء مديرًا، ولكنه يقتل حبه إن كان هيمانًا، ويفسد قريحته إن كان فنانًا.

قفوا أسائلكم يا أخلائى وصحبي! ما لِسيل القرائح لا يفيض إلا قليلًا؟ ولم لا ترونه يندفع فيبهر النفوس الدهشة الحائرة باصطخاب أمواجه وجرجرة أواذيِّه؟ أليس ذلك لأن سادتنا أولى[3] الأذهان

(١) مواهبه.

(٢) الذى يدعى أكثر مما عنده pédant.

(٣) جوت من مبتدعى الطريقة الإبداعية (رومانتيك) فلعله يعرض فى هذا القول برجال الطريقة المدرسية المتشبثين بالقواعد الموضوعة (المترجم).

الساكنة الفاترة قد عرَّسوا[1] بشاطئيه ووقفوا يرصدون له الأهبة، حتى إذا خشوا منه أن يفيض فيدمر المساكن ويحطم أعواد السوسن ويخرب البساتين، عاجلوه بالحواجز وعالجوه بالثقوب ليهدئوا ثائرته ويأمنوا غائلته؟

٢٧ مايو

أرانى قد استرسلت فى حُميَّا الاستعارة واستغرقت فى سَوْرة[2] الخطابة حتى نسيت أن أقص عليك خاتمة أمرى مع الطفلين. وذلك أنى لبثت ساعتين جالسًا على المحراث وقد استولى عليَّ انفعال غريب يعرفه الشاعر والمصور، وحاولت أن أصفه لك فى كتاب الأمس فجاء الوصف مهلهلًا سقيمًا. فلما كادت الشمس تؤوب أقبلت إلى الطفلين امرأة فى رونق الشباب على ذراعها سلة – وكان الصبيَّان لا يزالان على حالهما من السكون والدعة – فهتفت بالكبير فيليب وأثنت على شهامته ورزانته، ثم حيتنى فرددت التحية، ونهضت فدنوت منها وسألتها أهى أم هذين الغلامين الجميلين؟ فقالت نعم، وناولت الأكبر نصف رغيف وحملت الأصغر بين ذراعيها وقبلته قبلة لا تخرج إلا من بين شفتى أم. ثم قالت: «تركت الوليد فى رعاية فيليب وذهبت مع ولدى البكر إلى المدينة نبتاع خبزًا وسكرًا ومقلاة من الخزف ـ وكان كل ذلك فى السلة رأيته حين سقط غطاؤها ـ «وسأصنع الليلة حساء لذيذًا ليحيى (اسم الوليد)؛ أما المقلاة فهى

(١) نزلوا وأقاموا.
(٢) حمية.

بَدَلٌ من التى كسرها بالأمس ولدى البكر الطائش عقب شجار بينه وبين فيليب المسكين على قَدِيح[1] المرق». فسألتها أين غادرت ولدها البكر. فلم تكد تقول إنه كان يركض وراء الأوز فى المرج حتى رأيته مقبلًا يعدو وفى يده قضى من شجر البندق أتى به إلى أخيهِ الأصغر.

مضيت فى الحديث مع هذه المرأة فعلمت أنها بنت معلم القرية وأن زوجها سافر إلى سويسرا ليحصل على نصيبه من تركة ابن عم له قالت: «إن بعض الناس حاولوا أن يخرجوه من الميراث وقد راسلهم فما أجابوه. فآثر أن يشخص إليهم بنفسه. وقد انقطع علم ما بينى وبينه. فعسى أن يكون خيرًا ما حبَس عنى رسائله!».

تركت هذه الفتاة البرَّة على مضض من فراقها بعد أن تناولت كلًّا من بينها (كُرُتْزَر)[2] وأعطيتها نصيب الوليد لنشترى له خُبْزة متى ذهبت إلى المدينة.

لا أَكْذِبُك يا صديقي؛ فلقد أكون وعقلى مسبوه[3] وفكرى مشرَّد ونفسى مبلبلة فما ينفّس[4] عنى غير أمثال هذه المرأة التى تضطرب فى دائرة حياتها الضيقة هادئة القلب سعيدة النفس، وتعيش فى يومها غير عابئة بغدها، وترى أوراق الشجر تتساقط وتتناثر فلا تفهم من ذلك غير دنو الشتاء!

---

(١) ما يبقى فى أسفل القدر فيغرف بجهد Gratin.

(٢) عملة ألمانية تساوى مليمين تقريبًا.

(٣) ذاهب.

(٤) يفرج.

منذ ذلك اليوم كثر اختلافى إلى هذا المكان فاسترسل الأطفال بأنسهم إليَّ، ورُحت أعطيهم من السكر عندما أشرب القهوة وأقاسمهم فى المساء الخبز والقشدة، فإذا جاء الأحد أخذ كل منهم (كرتزره)، وإذا لم أكن وقت الصلاة هناك قام بذلك التوزيع ربة الحان على أمر منى.

أُحْبِبْ إلى نفسى بذلك الأنس والعطف من تلك القلوب الطاهرة الكريمة! وما أسعدنى بما أسمع من أقاصيهم المختلفة وبما أرى من غيرتهم المحبوبة التى تتجلى خلال أهوائهم الطفلية وسذاجتهم الفطرية متى رأوا صغار القرية يجتمعون حولي!

٣٠ مايو

ما قلته لك آنفًا عن التصوير يقال ولا شك عن الشعر أيضًا، فإن موضوعهما تعرُّف الجمال والقدرة على تعريفه. ذلك وهو الحق لفظ قليل فيه معنى كثير.

شاهدت اليوم منظرًا من رواية الحياة لو نقل عن حاله، ومُثْل على جماله، لكان أجم منظر غَزَلى فى العالم. ولكن ما نفع كلمات الشعر والغزل والمنظر فى هذا الموضع؟ أمن الضرورى أن نعمد إلى جمال الصناعة وزخرف القول كلما أردنا أن نشرح منظرًا من مناظر الطبيعة؟

إذا رجوت أن تعلم بعد هذه المقدمة شيئًا عظيمًا فخمًا فقد خدعتك نفسك، وكذَبك حَدْسك. فإنه لم يملك عليَّ نفسى، ولم يثر كامن حسى، غير فلاح قروى ساذج! سأقص عليك الأمر على عادتى بالقصور والعى، وسترمينى أنت على عادتك بالإسهاب

والغلو. إنها وِلْهِمُ أيضًا، وما برحت ولْهِمُ مصدر ذلك الجمال ومنبع هذا السحر!

تفيأت جماعة ظلال الزيزفون ليشربوا القهوة فثقُل خلاطهم على طبعى، فتذرعت بحيلة وانتبذت عنهم ناحية، فرأيت فتى قرويًّا قد خرج من أحد البيوت المجاورة إلى المحراث الذى كنت أرسم فوقه منذ قليل وأخذ يصلح شيئًا فيه.

راقتنى صباحة وجهه فدانيتُه وبدأتهُ الحديث مستفهمًا عن حاله وشأنه. فلم يكن غير قليل حتى تم التعارف وزالت الكلفة واستفاض الحديث، كدأبى من أهل هذه الطبقة الكريمة. حدثنى أنه فى خدمة أرملة حَدِبة[1] عليه رفيقة به. ثم أفاض فى الحديث عنها معلنًا مفاخرها معددًا مآثرها، حتى ما شككت فى إخلاصه لها قلبًا وقالَبًا. وكان من قوله إنها ليست شابة، وإن ما لاقته فى زواجها الأول من نكد العيش ومضض الخلاف صرفها عن الزواج ثانية. ولقد تبينت من خلل حديثه أنه يراها بارعة الجمال فتانة المحاسن، وأنهُ يود لو تختاره زوجًا ليبسط من جبينها غضون الشقاء الأول.

ما أحوجنى إلى أن أعيد عليك ما قال كلمة كلمة لتشعر بولائه ووفائه! وما أفقرنى إلى مواهب الشاعر المفلق لأصورَ لك صورة حية من إشارة حركاته، ورخامة نغماته، وتوقد نظراته! هيهات! ليس فى مقدور اللغة أن تعبر عن هذا الحنان الذى تنم عليه سحنته وهيئته. ومهما حاولت فلن آتى إلا بكلام غليظ على الطبع، ثقيل

(١) مشفقة.

على السمع. وأشد ما أثر فيَّ خوفُه أن أسئ الظن بتصرف هذه المرأة أو أشك فى علاقته بها. الله ما أجمل أن تسمعه يتكلم عن ملامح وجهها، ومقاطع جسمها، ذلك الجسم الذى تَبَّله[1] وذَلله وإن فقد مع الزمن وفرة شبابه وبضاضة إهابه[2]! لا أستطيع أن أعيد ذلك إلا على نفسى، ولا أردده إلا فى أعماق صدرى، فإنى لم أرَ قبل اليوم هوى محرقًا وشوقًا مبرِّحًا يحدوهما العفاف ويكنفهما الطهر؛ بل ما كنت أتصور اجتماع ذلك حتى فى الحلم!

لا تلمنى إذا قلت لك إنى ما ذكرت لك هذه العاطفة الخالصة البريئة إلا شعرت بنار تتسعر فى أحشائى، وتتمشى فى أعضائى. إن صورة هذا الحنان الصادق لا تزايل بصرى ولا تترك أثرى. وكأنى أصبحت فريسة لمثل تلك النار الكامنة فأنا أذوى وأموت. سأحاول ما استطعت زيارة هذه المرأة. ولكن لا. إن خيرًا من ذلك أن أجتنب تلك الزيارة وألَّا أراها إلا بعين حبيبها. فلعلها تكون فى ناظرى أقل منها فى خاطري! وما أرَبى[3] أن أعمد إلى صورة جميلة تنازعنى إليها نفسى فأعبث بها وأشوهها؟

١٦ يونيو

تسألنى ما بالى لا أكتب إليك؟ وقد كنت تقَدْر وأنت فى عداد العلماء أن تحزَرَ أنى سعيد، وأنى.... بالاختصار عرفت فتاة أخذت بمجامع قلبى، واستأثرت بخالص حبى.

---

(١) ذهب بعقله.

(٢) جلده.

(٣) حاجتى.

سأكلف نفسى خطة شديدة إذا التزمت أن أقص عليك أمر اتصالى بهذه الفتاة على اطراد وتساوق.

أنا مثلوج الصدر سعيد، إلا أننى مؤرخ غير مجيد. إنها ملاك كريم... أف! ما غناء[1] هذا القول؟ كل يقول ذلك عن حبيبه. إنه لا سبيل إلى أن أصف لك مقدار جمالها، ولا أن أذكر سبب كمالها، وقصاراى أن أقول لك إنها ملك مشاعرى وذهبت بفؤادى كل مذهب.

قل ما شئت فيها من سذاجة فى رحاجة عقل، وشفقة فى قوم حزم، ونفس صافية فاضلة فى عيشة راضية عاملة.

كل ما أقوله لك عنها ليس إلَّا هُرَاء مملًا أو إيجازًا مخلًّا، لا يؤدى إلى ذهنك معنى من ذاتيتها ولا هوِّيتها. فى مرة أخرى.. ولكن لا. مالى وللمرة الأخرى؟ سأقص عليك حديثها الآن، فإنه إن لم يكن اليوم فلن يكون أبدًا. ذلك لأنى - ولا أَكْذِبُك - منذ بدأت الكتاب هممت ثلاث مرات أن أضع القلم وأُسرج الجواد لأذهب إليها. مع أننى آليت لألزمنَّ بيتى سحابة هذا اليوم. وهأنذا أطَّلِع من النافذة كل لحظة لأرى الشمس على أى ارتفاع فى الأفق....!

لم أستطع البَرَّ بيمينى، فقد كانت زيارتها أمرًا لا محيد عنه! وهأنذا بعد العودة أكتب إليك. أى شىء أبهج للنفس وأملك للوجدان من رؤيتها شمسًا لدارة[2] أخوتها الثمانية من بنات وبنين يتألق فى

---

(١) نفع.

(٢) الدارة للشمس كالهالة للقمر.

جباههم ضوء البشر، وتقرأ فى وجوههم آية اللطف؟.. إذا مضيت فى الحكاية على هذا النحو خرجتُ منها ونهايتها فى ذهنها كبدايتها. ولكن لا بأس! سألزم نفسى أن أجيئك بالحديث على سَرْده.

كتبت إليك منذ زمن أنى تعرفت إى الحاكم (س)، وأنه دعانى إلى زورته فى صومعته، أو بالحرى فى مملكته. فشغلتنى الشواغل عن هذه الزيارة؛ وما كنت لأفكر فيها لولا أن المصادفة كشفت لى عن الكنز المدفون فى هذا المكان المعزل. وذلك أن شبابنا أقاموا مرقصًا فى الريف فطابت نفسى إلى حضوره، ورضيت أن أكون مراقصًا لفتاة من فتيات المدينة ظريفة الطبع كريمة الخلق، إلا أنها غير جذابة ولا خلَّابة. وكان اتفاقنا على أن أحتال مركبة تقِلنى أنا ومراقصتى وابنة عمها إلى الحفل؛ ثم نعرج فى طريقنا على الآنسة شرلوت. س. فنحملها معنا.

انطلقت بنا المركبة تؤم بيت بيت الصيد حيث يسكن الحاكم، وبينما هى تسير فى غابة مظلمة قالت لى رفيقتى: إنك ستتعرف الآن إلى فتاة فتانة. وقالت ابنة عمها: لا تُمَنَّ نفسك بها، ولا تُطع قلبك فى حبها. فقلت لها: ولماذا؟ قالت: إنها مخطوبة لفتى كريم اضطره موت أبيه إلى أن يسافر بينظم أموره ويلتمس له وظيفة سامية. فسمعت هذه الأشياء وعلمتها دون أن أحفل بها أو أكترث لها. ثم واصلنا المسير حتى وقفت العربة على باب الفناء، وقد كادت الشمس تتوارى خلف الجبل، وكان الحرى يقطع الأنفاس ويزهق النفوس، والسحاب المتراكم المُرْبَدُّ يطرز حواشى الأفق، فهفا قلب السيدتين

فزعًا من دنو العاصفة. فادعيت علم الظواهر الجوية لأحل عن قلبيهما عقدة الخوف. ولا أَكْذِبُ الله فقد تنازعتنى الشكوك وقام فى نفسى أن لهونا سيقصَّر، وصفونا سيكدَّر.

نزلنا من المركبة وجاءت خادمة إلى الباب ترجو منا أن ننتظر الآنسة شرلوت هنيهة فإنها لا تلبث أن تجىء. أَجَزْت[1] الفناء وصعدت السلم الخارجى ووضعت قدمى على وصيد[2] الباب فإذا منظر ساحر لم يقع طرفى على أتم منه جلالًا وروعة! رأيت فى الدهليز ستة أطفال تتراوح أعمارهم من سنتين إلى إحدى عشرة وقد أسرعوا إلى الغرفة الأولى وتجمعوا حول فتاة لطيفة التكوين مربوعة القامة عليها ثوب ساذج أبيض تجمّلُه عقَدٌ ورية على رُدْنَيه[3] ومنطقته. وكان فى يدها رغيف أسمر تقطعه دوائر لكل طفل قطعة تناسب سنه وقابليته، ثم تعطيه إياها بوجه منطلق وصدر منشرح، فيأخذها بيده الصغيرة ـ وقد مدها طويلًا قبل أن يُقَطع الخبز ـ ويصيح بملء فيه: «شكرًا شكرًا» ثم انصرفوا فرحين بما أُوتوا، بعضهم يطفر[4] فرحًا، وبعضهم يمشى سُجُحًا[5]، وكلهم متجهون إلى باب الفناء ليروا الأجانب، ولينظروا المركبة التى ستقل عزيزتهم شرلوت.

أقبلت الفتاة، وكان أول ما قالت: عفوًا يا سيدى عن تحميلك

---

(١) اجتزته.
(٢) عتبته.
(٣) مفرده ردن وهو الكم.
(٤) يثب.
(٥) متئدًا مترفقًا.

مؤونة النزول، وتكليف السيدتين مشقة الانتظار، فقد زنسانى هندمة لباسى وبعض أوامر منزلية تقتضيها غيبتى أن أُعَصّر[1] الأطفال، وهم يأبون إلا أن يتناولوا عُصورهم من يدى.

فحييتها تحية عادية لا روح فيها ولا معنى. فإن نفسى بأسرها كانت مأخوذة بسحر محياها ورخامة صوتها وجمال هيئتها. ولم أكد أخرج من دهشتى وأصحو من سكرتى حتى رأيتها ذاهبة إلى غرفتها لتأتى بقفازها ومِرْوحتها. ورأيت الأطفال على بعد ينظرون إليَّ من طَرفٍ خَفى، فَدَنوت من أصغرهم سنًّا وأبلجهم غُرة فنكص على عقبيه، وكانت أخته إذ ذاك خارجة من المنزل فقالت له: لويس! مد يدك إلى ابن عمك. فمد الصغير يده إليَّ فلم تمنعنى وساخة وجهه وقذارة أنفه من أن أُقبله بقلبى وشفتى. ثم قلت لشرلوت وقد مددت يدى إليها: ابن عمه؟ أتحسبيننى أهلًا لأن أعد من أقربائك؟ فقالت وقد افتر ثغرها عن ابتسامة خبيثة: إن لنا كثيرًا من أولاد العم فرقتهم عُدَواء[2] الدار، ومن الصعب عليّ أن أظنك شرًّا من هؤلاء جميعًا!

ولما همت بالخروج أوصت أختها صوفيا وهى طريدتها[3] فى العمر أن تكلأ[4] إخوتها وتقرأ على أبيها السلام لدى عودته من نزهته. ثم أمرت الأطفال أن يُلقُوا إلى أختهم بالطاعة فينقادوا لها

---

(١) نستسمح رجال اللغة فى وضع هذه الكلمة للوجبة الخفيفة التى تؤكل وقت العصر Gouter.

(٢) البعد.

(٣) ولدت بعدها.

(٤) ترعى.

ويُحلوها منهم محلها. فكلهم صدع بالأمر إلا بُنَيَّةً شقراء فى السادسة من عمرها قالت لشرلوت بلهجة المتعاظم: «إنها مع ذلك ستكون سواك، وإن حبنا لك لأشد».

خرجتُ بها إلى المركبة فإذا أخواها الأكبران قد تسلقاها، فرجوت من شرلوت أن تسمح لهما أن يصحبانا حتى مدخل الغابة فقبلتْ بعد وعداها الوقارَ والسكونَ. ولم يكن إلا ريثما أخذنا مجالسنا من المركبة وتبادل السيدات جمل المجاملة، ولاحظن بعض الشىء على هندامهن وقبعاتهن، وتناولن بالنقد جميع المدعوات فى الحفل حتى وقفت شرلوتُ الحوذىَّ وأنزلت أخويها. فرجَوَا منها أن تعطيهما يدها ليقبلاها، فقبلها الأول قبلة الشاب الحنون الرشيد، وقبلها الثانى قبلة الصبى الأهوج الغرير، وحمَّلتهما عبارات اللطف والحنان إلى من تخلف فى البيت من إخوتها. ثم استأنفنا المسير وأخذنا بيننا بأطراف الأحاديث، فقالت ابنة العم لشرلوت: «هل قرأتِ الكتاب الذى بعثت به إليكِ؟ فقالت: كلا. إنه كسابقه لا يروقنى وإذا شئتِ رددته إليكِ» فسألتها ما شأن هذين الكتابين؟ فأدهشنى جوابها أنهما من تأليف...[1] ووجدت فى كل ما قالت غرابة وشذوذًا. كنت ألمح فى كل كلمة من كلماتها معنى جديدًا من معانى السحر، وفى كل سرار من أسارير وجهها شعاعًا جديدًا من أشعة الذكاء. وكان البشر يتهلل فى غربتها كلما علمتْ أن كلامها لم يَنِدَّ عنى منه حرف. قالت:

(١) سترنا مضطرين فى هذا الموضع أسماء الأعلام حتى لا يتألم لهذا القول أحد، على زن الواجب ألا يعبأ مؤلف بحكم فتاة واحدة ولا رأى فتى طائش مذبذب.

كنت وأنا صغيرة لا يلذ لى غير القصص، والله يعلم كم كنت أسر حينما أجلس وحدى يوم الأحد فأشارك (مس جانى) وأمثالها فى النعمى والبؤسى. لا أنكر أن لهذا الضرب من الكتب لذة وجمالًا، ولكنى أوثر أن يكون ما أطالعه مفيدًا رشيدًا ما دمت لا أجد للقراءة من الفراغ إلا يسيرًا. يعجبنى المؤلف الذى أجد فيه عالَمى الذى أَلِفتُه، على شرط أن يشعرنى كتابه بما فى حياتى العادية الخاصة من تأثير وإخلاص وصداقة، ويحملنى على أن أرى فيها أسباب السعادة ومنبع الغبطة دون أن يرفعها خياله إلى مستوى الفردوس.

حاولت أن أخفى ما أثارته فى قلبى تلك الكلمات الأخيرة، ولكننى لم أقوَ على كتمه طويلًا، فإننى حين سمعتها تتكلم عرضًا عن (نائيب وكفييلد) تأليف...[1] بلسان صادق وفكر صائب لم أتمالك أن بحت لها بما فى نفسى وجهت شرلوت الحديث إلى السيدتين بعد أن استأثرنا به حينًا وقد لبثتا أثناء المناظرة صامتتين، عيونهما شاخصة وثغراهما مفغوران. ولطالما نظرت ابنة العم إليَّ نظرة الهازئ الساخر فلم أشغل بذلك فكرى. ترامى بنا الحديث إلى لذة الرقص فقالت شرلوت: إذا كان الرقص نقيصة فأشهد الله أنى له محبة وفيه راغبة. وإذا نزت فى الرأس نَزْوة الهم لا يُسْليها إلا أن أعمد إلى بياني[2] المصدوع فأعزف عليه لحن (الكنتردنس).

---

(١) كذلك اضطررنا هنا أن نحذف أسماء كثيرمن الكتاب والمؤلفين فى هذا البلد. فأما الذين نالوا إعجاب شارلوت وثناءها فسيعلمهم القارئ بالحدس والتخمين. وأما الآخرون فلا يعنى أحدًا منهم أحد (جوت).

(٢) فضلنا أن نبقى لفظة البيانو ونعربه بحذف الواو على أن تستعمل فيه (المضراب أو نضع له كلمة جديدة.

بينما كانت تتكلم أنعم بالنظر إلى عينيها الدعجاوين، وأشعر أن نفسى تترامى على شفتيها القرمزيتين وخدها الأسيل النضر. وأعجب الأشياء أنى كنت ثملًا بسلافة[1] حديثها، معجبًا بنبالة معانيها، دون أن أسمع فى الغالب ألفاظها التى تؤديها. تستطيع أن تتصور ذلك أنت لأنك تعرفنى. وجملة القول أننا بلغنا منزل الرقص ونزلت من المركبة كأنى صحوت من حلم؛ وقد كنت تائهًا فى عالم الخيال غريقًا فى بحار الفكر فلم أفطن إلى نغمات الموسيقى وهى خارجة إلى أسماعنا من قاعة متلألئة الأضواء، بديعة الرونق والبهاء!

جاء يستقبلنا لدى الباب الأكبر فَتَيان يدعى أحدهما أُدْران وأما الآخر فلا أذكره؛ وكانا مراقِصَيْ ابنة العم وشرلوت، فأخذا بذراعيهما وصعدت خلفهما بمراقصتى.

ثم أخذنا فى الرقص، فرقصنا بادئ ذى بدء رقصة (المينوويت) مرارًا، ودعوت السيدات واحدة فواحدة فما نقض[2] مِرَّة صبرى غير تلكؤ القبيحات العابسات فى مد أيديهن إلى حتى نفرغ من هذه الرقصة.

أخذت شرلوت ومراقصها يرقصان رقصة إنجليزية، وليس يدرى إلا الله مقدار سرورى حينما جاءت نوبتنا فدخلت فى الرقص معها!

يجب أن تراها وهى راقصة: إنها تقبل بقلبها ونفسها على الرقص، وتترك جسمها يموج ويميد فى انسجام وانتظام، وترى حركاتها حرة

---

(١) الخمر.

(٢) أضعف قوة صبرى.

طليقة، ولفتاتها سريعة رشيقة، فلا تشك فى أن الرقص خلق لها فلا تفكر إلا فيه ولا تشعر إلا به، وأن كل شىء فى هذه اللحظة قد فنى فى خاطرها وناظرها. دعوتها للرقصة الثانية فأبت إلا الثالثة، وصارحتنى بكلمات هنّ أندى على الأفئدة من زلال الماء، قالت: «إنى أحب الرقصة الألمانية، وقد جرت عادة قومنا ألا ترقصها السيدة إلا مع مراقصها؛ وقد علمت أن مراقصى لا يحسها، وسيشكر صنيعى إذا أعفيته منها. كذلك حال مراقصتك لا تجيدها ولا تريدها. أما أنت فقد راقبتك حين رقصتَ الإنجليزية فوجدتك رشيق الحركة ماهر اللفتة. فاذهب إن رأيت إلى مراقصى فاطلب إذنه؛ وسأذهب إلى مراقصتك فأستنزلها عنك».

قبلتُ فى مثل ارتداد الطرف. وقد كان مفهومًا أن يلازم صاحبها صاحبتى أثناء رقصنا فيجالسها ويؤانسها.

بدئ الرقص فمهدنا له بحركات الأذرع المختلفة، وشاهدت من لباقتها ورشاقتها ما ملأ القلب دهشة وعجبًا. فلما تغير اللحن أخذ بعضنا يدور حول بعض دوران القمر حول الأرض، فنجم فى أول الرقص عن نُدرة الماهرين فى الراقصين اضطراب وفوضى، فقابلنا ذلك بالحكمة والحزم، وتربصنا[1] بالقوم حتى انكسرت سَورْتهم[2] وقَرّت فورتهم، وخرج جمهور العاجزين عن الحلقة فلم يبق فيها غيرنا وغير زوج آخر هو أدران ومراقصته. لم أكُ فى حياتى أنشط

(١) انتظرنا.

(٢) حدتهم.

جسمًا ولا أخف حركة منى اليوم، حتى ما كنت أحسبنى إنسانًا! آخذ بين ذراعيّ أجمل مخلوقة فى الناس، وأدور بها مثل لمح البرق، وأرى كل شىء مما يحيط بنا يزول ويفنى! وأشعر.... أقول لك بصراحة يا وليم إنى أوثر أن أموت على أن ترقص الفتاة التى أهواها وأرعاها هذه الرقصة مع غيرى.

رقصنا رقصات خفيفة ونحن ماشيان فى القاعة لنرفه عن نفوسنا. ثم عدنا فجلَستْ، وذهبت أنا إلى برتقالتين كنت ادخرتهما وليس فى المقصف غيرهما فقطعتهما أرباعًا ثم ناولتها إياهما فزاد ذلك فى سرورها. غير أنى كنت أحس خنجرًا يخترق فؤادى كلما رأيتها مضطرة إلى أن تعطى بعض الحمقى من جاراتها قطعة منهما.

وفى الرقصة الإنجليزية الثالثة كنا ثانى زوج، فمضينا فى أثر الراقصين نرسم خطوطًا مختلفًا، وجسمى معلق بذراعيها وقلبى مفتون بعينيها الفائضتين البشر الخالص والعفاف المحض، حتى حاذينا امرأة نَصَفًا تغترق الأبصار ملاحة وحسنًا؛ فنظرت إلى شرلوت باسمة، وأشارت إليها مهددة، ولفظت مرتين اسم ألبير بهيئة ذات معنى وهى مارة بنا على عجل. فقلت لشرلوت: هل أنت مخبرتى من ألبيرُ هذا إذا لم يكن فى الإخبار عنه ما تكرهين؟ فهمت بالجواب لولا أن انفصلنا مجبرين لننتظم فى السلسلة الكبيرة. ولما تقابلنا وجدتها ساهمة مفكرة، فأخذت بيدى وخرجنا نتروح النسيم ثم قالت: «لماذا أكتم الأمر عنك؟ إن ألبير فتى ظريف قد وعدوه أن أكون له خطيبة».

لم يكن هذا الخبر جديدًا على سمعى، فإن المرأتين حدثتانى به

فى الطريق ولكنه الآن وقع منى موقع الخبر الجديد، لأنى ما فكرت حين سمعته أنه يتصل بتلك التى أصبحت فى وقت قريب أحب الناس إليَّ وأعزهم عليّ. لا أطيل عليك القول فقد انماث[1] قلبى كما ينماث الثلج فى الحر، وعَقِرْتُ[2] حتى كدت أخرّ إلى الأرض، وذهب عقلى شعَاعًا من الكرب فأخللت نظام الرقص وهوشت ترتيب الصف، وكاد الأمر يسوء لولا أن شرلوت لحضور ذهنها وذكاء فهمها جذبتنى جذبًا فعاد النظام كما كان سريعًا.

أخذ البرق يشتد وميضه ويتتابع قبل نهاية هذه الرقصة، وقد رأينا سناه[3] منذ طويل يلمع فى سواد الأفق فما كنت أشك فى أنه برق خُلَّب. وزاد قصف الرعد حتى حجب عنا صوت الموسيقى. فاضطربت الحواس ورهبت القلوب وخرج ثلاث نسوة من الصف هاربات وتبعهن مراقصوهن ولم يك غير قليل حتى عمت الفوضى وكف العازفون.

من طبيعة الإنسان إذا بغتَه حزن أو خوف فى خلال مسرته أن يكون تأثيره فيه أشد منه فى كل وقت. ذلك إما لشدة شعوره بالضد، أو لأن مشاعره وهى هائجة ثائرة تكون أقوى تأثرًا وأشد انفعالًا.

لهذين السببين أعزو ذلك القطوب الغريب الذى بدا فجأة على أوجه كثير من أولئك النسوة.

---

(١) ذاب.

(٢) فجأنى الروع فلم أقدر أن أتقدم أو أتأخر.

(٣) ضوءه.

جلستُ أعقلهن فى إحدى زوايا القاعة وأدارت ظهرها إلى النافذة وأسدلت على أذنيها حجابًا. وجاءت أخرى فجثت بين يديها وخبأت رأسها بين ركبتيها. وأقلت ثالثة فدخلت بين أختيها وقبلتهما ثم انهلَّت دموعها انهلال القَطر[١].

بلغ الرعب بالسيدات أن أراد بعضهن العودة إلى ديارهنّ، وانخلعت قلوب الأخريات فما استطعن أن يَذُدن[٢] عن أنفسهن جرأة الشباب وعُدْوان الصبا حين أقبل بعض الفتية يقطفون من شفاه أولئك الحسان المحزونات تلك الدعوات المرفوعات إلى الله!

أما الرجال فقد نزل بعضهم يدخنون أعوادهم[٣] فى أمن ودعة، وقبل الباقون دعوة المُضيفة إلى غرفة ذات سدول وستائر. وما كدنا ندخل هذه الغرفة حتى أخذت شرلوت تصف الكراسى على شكل دائرة. وأجلست الجماعة كلًّا فى مكانه. ثم اقترحت عليهم لعبة يلعبونها، فرأيت كثيرًا من الناس قد نفخوا أشداقهم وعضوا شفاههم وجلسوا جلسة الآمل رجاة أن ينالهم بعض الفائدة من رهان مكتسب. قالت شرلوت: إنا سنلعب لعبة العدّ. تعدّون من واحد إلى ألف، فيلفظ كل منكم العدد الذى يقع عليه بسرعة؛ وسأدور حول الحلقة من اليمين إلى الشمال، فمن وجدته منكم تلكأ أو أخطأ لطمته مرة. قالت ذلك وابتدأ اللعب فقال الأول: واحد. والثانى:

---

(١) المطر.

(٢) يدفعن.

(٣) جمع عود والمراد به الشبك أو الغليون.

اثنان. والثالث: ثلاثة، وهلم جرًا وهى تدور حولنا مرفوعة اليد. فكان من ذلك منظر ينفس عن المكروب ويجلو صدأ القلوب. ثم أخذت تضاعف خُطاها رويدًا حتى كبا أحد العادّين فلطمته لطمة؛ وضحك جاره فأذهله الضحك عن عدده فلطمته أخرى. كل ذلك وهى تسرع فى الخطو فنسرع فى العدّ، وقد نالنى منها لطمتان كانتا على ما لاحظت أشد من لطمات الآخرين فطبت بذلك نفسًا ونعمت عينًا. ثم انفجر القوم جميعًا بالضحك فوقفت اللعبة دون تمام الألف. وخرج من الحلقة بعض الأصدقاء الأخصاء فجلسوا شراذم على حدةٍ؛ وتبعت شرلوت إلى قاعة الرقص وكانت العاصفة قد هدأت. فقالت لى ونحن سائران: إن اللطمات قد أنست القوم هول العاصفة. فلم أجد ما أجيبها به. فمضت فى الحديث قائلة: أنا من أشد الناس خوفًا وجزعًا، ولكننى اصطنعت الشجاعة والثبات لأطَمئن قلوب الآخرين فشجُعت. اقتربنا من النافذة وكان الرعد لا يزال يقصف على بُعد، والمطر ينهمر على الأرض فيسيل حُلوَ الخرير فى الحقول والأودية، والهواء الفاتر تهب نفحاته عابقة بالعَرف الذكى والأرَج المنعش، فوقفت شرلوت متكئة على مرفقها وسرحت طرفها فى الحقول ثم تطلعت إلى السماء وردت بصرها إليّ وهو مغرورق بالدمع ووضعت يدها فوق يدى وقالت: واكُلو بِستُك[1]!!

فسرعان ما جرى على خاطرى ذكر تلك القصيدة البليغة التى

(١) شاعر ألمانى يؤثره الألمان (١٧٢٤ - ١٨٠٢) ذكرت شرلوت اسمه بالأكبار والإعجاب حين ذكرها جمال المنظر الذى تشاهده بإحدى قصائده الرائعة فى وصف منظر يشبهه.

قصدتها وهيهات أن أصف لك ما أحدثته فى نفسى تلك الكلمة من شدة التأثر وقوة الانفعال. بهظنى الأمر فلم أستطع حمل نفسى فلمت على يدها فغسلتها بدمعى ومسحتها بلثمى. وما كان أروَح ذلك لقلبي! ثم أخذت عيناى تبحثان ثانية عن عينيها.

أيها الشاعر الكريم والعبقرى النابغ! ما كان أجدرك أن ترى تمجيدك وتعظيمك فى هذه النظرات! عسى ألا أسمع بعد الآن اسمك إلا مقرونًا بالتنزيه والتَّجِلَّة!

١٩ يونيو

لا أدرى أين وقف بنا الحديث آخر مرة. وكل ما أعلمه أن الساعة كانت الثانية بعد منتصف الليل حين آويت إلى مخدعى. ولعلنى لو كنت حدثتك بدل أن كتبت إليك لأسهرت جفنك حتى الصباح. لم أقص عليك ما جرى فى العودة من المرقص ولا أظن الوقت يتسع اليوم لتفصيله. تنفس الصبح ونحن فى الطريق فكان الشروق زاهيًا صافيًا، والطل يَسَّاقط من الشجر قطرة فقطرة، والروض يسيل عليه رُضاب الندى فيخضلُّ ويرطب، وكل ما فى الطبيعة حولنا ينتعش ويحيا إلا رفيقتبنا فقد بدت فى أجافنهما فترَة الكرى. فقالت لى حينئذ شرلوت: إذا شئت أن تأخذ حظك من الرقاد فافعل، فإنى لا أحب أن تتعب لأجلى. فقلت لها وقد حدقت فى عينيها: هيهات أن يخالط النوم جفنى ما دمت أرى هذه العين ساهرة. ولبثنا كذلك يقظانين حتى بلغنا بيتها، فجاءت الخادم وفتحت الباب رويدًا، فسألتها شرلوت عن أبيها وإخوتها، فقالت: إنهم على خير حال وأحسنه، ولا يزالون

فى سكرة النوم فوق الأسِرَّة. استأذنتها فى الانصراف بعد أن رجوت منها أن تسمح لى بزورتها فى اليوم نفسه فقبلت.

زرتها. وأقسم أنى منذ ذلك الحين أرى الشمس تشرق وتغرب، والقمر يبزغ ويأفل، والكواكب تطلع وتغيب، دون أن أعرف لها تقلبًا ولا مدارًا، ولا أعلم الوقت إن كان ليلًا أو نهارًا، فالعالم بأسره زال وانمحى من حولى فلا أجد له عينًا ولا أثرًا.

٢١ يونيو

مَثَل الأيام التى تمضى عليّ هنا كمثل الأيام السعيدة التى ادخرها الله لعباده المصطفين. فمهما أصابنى من مخبوء القدر فلن أقول لم أذق حلاوة العيشة الخالصة وسعادة الحياة المطمئنة.

لقد اتخذت ملجأى الذى تعرفه فى وِلْهِم مسكنًا مستقرًا، ذلك لأنه يبعد مقدار نصف ساعة عن بيت شرلوت، ولأنى أتمتع فيه بنفسى، وأتذوق من السعادة ما قدر الله لبشر أن يتذوقه. من كان يدرينى أن وِلْهِم التى اخترتها ليراضتى أدنى إلى الجنة وأقرب إلى السماء؟ كمن مرة رأيت فى جولاتى البعيدة هذا البيت بيت الصيد الذى تجمعت فيه اليوم كل رغائبى وجميع أمانيَّ، تارة من فوق الجبل، وتارة من جَدَد الأرض المنبسط وراء النهر!

عزيزى وليم! فكرت طويلًا فى أمر الإنسان فوجدته يتطلع إلى تقطيع وثاقه وتوسيع نطاقه، ويتشوف إلى كشف أشياء جديدة واختراق آفاق بعيدة، ثم هو مع ذلك تدفعه قوة باطنة إلى أن يكتفى بوجود محدود، ويقتفى آثار العادة غير ملتفت إلى ما يوجد عن يمينه أو عن شماله.

لدى حلولى هذا المكان كنت كلما أجلت النظر فى هذا الوادى الجميل من أعلى الربوة أشعر أن نفسى نزاعة إلى كل جهة من جهاته: أرى الغابة الصغيرة هناك فأشتهى أن أتفيّأ ظلها الوارف؛ وألمح قمة الجبل البعيد فأتمنى لو علوتها فأستكشف مساحة هذه البلاد؛ وأبصر الهضاب المتسلسلة والوديان المنعزلة فأود لو أضلّ فى شعابها وأجول فى رباها؛ فإذا ما ذهبت إليها طائرًا عدت أدراجى غير واجد ما كنت أرجوه وآمله!

هكذا أمر الغد: ظلام متكاثف منتشر أمام النفس يخوض فى أحشائه القلب، ويضل فيه ضلال البصر فى المنظر البعيد، ويذيبنا الشوق إلى الانتقال بأسرنا إليه لنحظى بالشعور الفرد والسرور المحض والعيش الرفيع، فنركب إلى الوصول إليه كل صعب وذَلول؛ حتى إذا تمثل الغد وتحقق المرجوُّ واقترب البعيد وجدنا كل شىء على حاله الأولى: حياة سيئة، ومعيشة ضَنك، ومسترادٍ حرج؛ ورأينا أنفسنا الصادية تحنّ عبثًا إلى الشراب البارد العذب الذى فاتها، ثم يعاودها الأمل فتأمل!

كذلك الأفاق ذو النفس القلقة والطبع الشرود، ينتهى به الأمر إلى أن يتمنى العودة إلى وطنه، فيجد فى كِسْر كوخه، وبين أحضان زوجه، وفى وسط أطفاله، وفى الكدح لعياله، تلك السعادة المرجوة التى نقب عنها فى معالم الأرض ومجاهلها فأخفق.

أخرج فى الغالب والشمس فى خدرها إلى وِلْهِم فأجنى البسلّى بيدى من بستان الفندق، وأجلس فأنزع القشور عنها وأنا أقرأ

هوميروس، ثم أتخير قدرًا من قدور المطبخ فألقى فيها البسلى مع شىء قليل من الزبد وأغطيها ثم أضعها على النار وأقعد بجانبها أحركها من حين إلى حين، فيتمثل فى خاطرى إذ ذاك كيف كان عشاق پنيلوب[1] الصَّلفون وخطابها الوقحون ينحرون الثيران والخنازير ويقطعونها ثم يشوونها بأيديهم!

لا شىء أملأ للنفس وأملك للحس من تلك الحياة الأبوية البدوية التى أستطيع بحمد الله أن أخلطها بحياتى اليومية دون مراءاة ولا تظاهر.

ما أسعدنى بذلك القلب الذى يقدر على إدراك هذا السرور الساذج البرئ سرور الرجل الذى يأكل على خوانه كرنبة من غرس يديه! أتحسب أنه يتمتع بأكلها فحسب؟ إنما يتمتع فى وقت واحد بذكرى تلك الأيام السعيدة التى قضاها فى زرعها، فيذكر الصباح الجميل الذى غرسها فيه، والليالى العِذاب التى أمضاها فى سقيها، وما كان يشعر به من غبطة ورضا حين كان يراها مباركة نامية.

٢٩ يونيو

فى أمس البارحة جاء طبيب المدينة يزور الحاكم فوجدنى جالسًا على الأرض بين أطفال شرلوت، بعضهم يحبو عليَّ، وبعضهم يمتد

(١) پنيلوپ Pénelope امرأة أوليس Ulysse وأم تليماك، غاب عنها زوجها عشرين سنة فتقدم إليها الخاطبون وألحوا. فدعاها الوفاء إلى بعلها أن تمكرهم فوعدتهم أن تختار منهم من تشاء إذا فرغت من نسيجها؛ ثم كانت تفتق بالليل ما نسجته بالنهار، وظلت كذلك تراوغهم وهم على بابها حتى عاد زوجها.

بالقرص إليَّ، وأنا أدغدغ[١]، هؤلاء وهؤلاء فنحدث ضوضاء وجلبة. الدكتور ـ وهو رجل نظريات وقواعد تراه مُخْشوشب الجسم كأنه عروس من الخشب ذات محرّك، يكلمك ويده تبسط ما تغضَّن من كمه، وترفع رباط رقبته إلى طرف ذقنه ـ يرى (كما يتبين من أنفه) فى تلك المداعبة منقصة لا يفعلها ذو نِهيْة[٢]. فلم أحفل بذلك وتركته يخوض فى مسائل مختلفة من العلم وأقبلت على قصر من الورق قد هدمه الصبيان فأعدت بناءه. ومشى صاحبنا فى المدينة يرفع عقيرته بالشكوى إلى الناس لأن ثرتر قد زاد أولاد الحاكم فسادًا وسوء أدب.

أجل يا عزيزى وليم! ليس على وجه الأرض شىء قلبى أشد ميلًا إليه وأكثر عطفًا عليه من الأطفال. أتأملهم فأرى فى جبلَّتهم[٣] أصول الفضائل والملكات التى يضطرون إليها بعد، وألمح فى لجاجهم وعنادهم اليوم صدقَ عزيمتهم ورصانة خليقتهم غدا، وفى طيشهم ونزقهم سهولة الطبع وبهجة النفس التى ستنير لهم وجوه الغِيَر[٤]، وتجلو أمامهم ظلَم الخطوب. كل ذلك أراه خالصًا غير مشوب، وكاملًا غير مثلوم، فلا أفتر عن ترديد هذه الجملة الذهبية التى قالها معلم[٥] الإنسانية: «إذا لم تصبحوا كهؤلاء!» فانظر ماذا نفعل يا صاح: نعامل أطفالنا وهم أمثالنا فى الخَلق وقدوتنا فى الخُلُق معاملة

---

(١) تخميش فى بعض الجسم يحدث عنه انفعال يضطر للضحك (زغزغة).

(٢) عقل.

(٣) طبيعتهم.

(٤) الحوادث.

(٥) السيد المسيح عليه السلام.

الأتباع والخدم. نريد ألا تكون لهم إرادة، فهل نحن خالون منها؟ علام اعتمدنا فى ادعاء هذه الخصائص؟ أعلى أننا أعلى منهم سنًّا وأحكم عقلًا؟ سبحانك اللهم إنك لا تنظر من عليا سمائك إلا إلى أطفال كبار وأطفال صغار ليس غير. وقد علّمنا المسيح منذ طويل أى الفريقين عندك خير مقامًا وأجمل ذكرًا. ولكنهم واأسفاه يؤمنون به ولا يسمعون إليه، وتلك مصيبة قديمة ثابتة. إنهم يَحْمِلون أولادهم على خصالهم، ويحذونهم على مثالهم، و... وداعًا يا وليم! فحسبك ما هذيت فى هذا الموضوع.

أول يوليو

إن قلبى ـ وهوأسوأ حالًا ممن شفّه المرض وأذواه ـ يشعر بما لشرلوت من جميل الأثر للمريض العميد.

تبلغت العلة بسيدة كبيرة فى المدينة ولم يبق منها كما حدّث الأطباءغير رمق ضعيف. فتمنت أن ترى شرلوت على سريرها وهى فى نزاع الموت فذهبت إليها، وستلبث لديها بضعة أيام.

وفى الأسبوع الماضى زرت معها قسيس قرية... وهى قرية صغيرة واقعة فى منعزل بين الجبل على فرسخ من هنا. فبلغناها زهاء الساعة الرابعة وكان مع شرلوت أختها الصغرى. فلما دخلنا فناء بيت القسيس المظلل بشجرتين من شجر الجوز وجدناه جالسًا على مقعد أمام الباب، فلم يكد يرى شلروت حتى عراه نشاط وهزة،

فخاطر بالنهوض إى لقائها تأسيسًا عصاه العقداء[1]. فهرولتْ إليه وأجلَسَته ثم جلست إلى جانبه تقرأ عليه تحيات أبيها وتلاطف ولده الأصغر وهو دميم الخلقة قذر الثوب تقذى به النواظر، وتتقزز منه النفس. لو كنت رأيتها وهى تحادث هذا الشيخ الساذج وترفع صوتها بالحديث لتبلغه إلى أذنه الموقورة[2]، وتذكر أنباء الشباب الأقوياء وقد أخذهم الموت على حين بغتة، وتثنى على ماء كرلسباد وتزين له الاصطياف بها من قابل، وتؤكد له أنه فى حاضره أنضر وجهًا وأنشط قلبًا منه فى غابره!

أما أنا ففى تلك الفترة كنت أقوم بواجب الأدب والمجاملة لزوجة القسيس، وقد راقنى جمال الشجرتين وشرح صدرى ما أضفتاه علينا من وارف الظل فلم أتمالك أن جهرت بالإعجاب بهما والارتياح لهما.

فطفق الشيخ وقد أخذته أريحيَّة السرور يقص علينا حديثهما قائلًا: «أما الشجرة العتيقة فلا يدرى إلا الله مَن غرسها. بعض الناس يقول القسيس فلان، وبعضهم يقول غيره. أما الحديثة فهى رِئْدُ[3] امرأتى، غرسها أبوها فى صباح يومٍ وُلدت هى فى مسائه. وسيكون لهما خمسون عامًا فى شهر أكتوبر.

---

(١) ذات العقد.

(٢) الثقيلة السمع.

(٣) قرينتها فى السن.

لقد كان أبوها سلفى فى هذه البِيعة[1]. وكان يعزُّ هذه الشجرة إعزازًا لا أستطيع لك وصفه. وقد ظفرتْ من قلبى بهذه المكانة أيضًا، لأن امرأتى كانت جالسة على خشبة تنسج فى ظلها حين دخلت هذا الفناء لأول مرة وأنا تلميذ بائس منذ سبعة وعشرين عامًا.

ثم سألت شرلوت عن حال ابنته وأين هى فقال لها: إنها خرجت مع السيد سميث إلى بعض المروج ترى العمال كيف ينجلون[2] المرعى. ثم عاد إلى حديثه فذكر ما كان له عند سلفه وابنته منالود المصفَّق والولاء الشديد، وكيف صار له مساعدًا ثم خلفًا.

لم يكد يفرغ من حكايته حتى رأينا ابنته مقبلة مع صاحبها بين أشجار الحديقة، فاستقبلت شرلوت بالترحيب والعناق. ولا أكذبك فقد خفت على قلبى. إنها سمراء اللون حَرِكة الجسم سَوية الخَلق، وقد يُثلج النفس أن تقضى معها تلك الساعات بين الحقول. أما حبيبها (كما تنطق بذلك هيئته) فرجل مهذب النفس حَسَن الحِلْية إلا أنه صموت، فلم يشأ أن يطارحنا الحديث على الرغم من محاولة شرلوت أن تجره إليه. وشر ما آلمنى ما علمت من سحنته أن سكوته يرجع إلى انقباض النفس أكثر مما يرجع إلى تخلف الذهن. وذلك ما انكشف عنه قناع الشك بعد قليل. خرجنا نتنزه فسارت فريدريك بجانب شرلوت. واتفق أن سارت بجانبى مرة أو مرتين فرأيت الرجل وقد اكفهر وجهه الأسمر واربدَّ، فجذبتنى شرلوت من كمى وأشارت إليّ أنى أسرفت فى مؤانسة فريدريك والتظرف إليها.

---

(١) الكنيسة.

(٢) ينجلون المرعى: يحشونها.

ما حزنت نفسى لشيء حزنها لأولئك الذين لا ينفكون متألمين متكئبين ولا سيما إذا كانوا فى ربيع العمر ومقتبل الشبيبة، حين تكون صدورهم مشروحة وقلوبهم مفتوحة لمسرات الحياة وملذات العيش، ويكدرون صفاء أيامهم الجميلة القليلة بانقباض النفس وابتسار[1] الوجه، ثم يدركون بعد أن قُضى الأمر أنهم فرطوا فى خير لن يرجع، وبذّروا فى ثروة لن تعود.

ولما رجعنا فى المساء إلى بيت القَسِّ وجلسنا إلى منضدة فى فناء الدار نشرب اللبن ونتحدث، أفضى بنا الحديث إلى مسرات الحياة وهمومها، فكرهت أن تمر هذه الفرصة دون أن أحمل على ذوى النفس المنقبضة والقلب الحزين. فقلت إنا معشر الرجال لا نفتأ نزعم أن الدنيا تسوء أكثر مما تسر، وتنفع قليلًا ثم تضر، والله يعلم أنا كاذبون فى هذا الزعم، ومسرفون فى هذا الوهم، وأن نفوسنا لو كانت مهيزة على الدوام للتمتع بما يسوقه الله إليها كل يوم من طيبات الرزق وغفلات العيش لتلقينا محن الدهر متى أقبلت بصدر واسع وخلق وادع وصبر جميل. فقالت زوجة القسيس: ولكن نفوسنا ليست طوع أمرنا، ولا نازلة على حكمنا، بل هى تابعة لجسومنا فى أكثر حالاتها، تمرض بمرضها وتصح بصحتها. فقلت لها: أنا مقتنع بذلك ويجب أن نعد الانقباض مرضًا، ونرى إن كان فى مقدورنا أن نطبّ له ونشفيه. فقالت شرلوت: أصبت شاكلة السداد، فإنى أعتقد فينا القدرة على ذلك كما خَبرْتُه بنفسى، فكنت إذا حضرنى الهم

(١) عبوسه وتغيره.

وساورنى القلق أمشى فى الحديقة مغنية لحنين أو ثلاثة من ألحان الرقص فتَنْسَلى[1] هموم صدرى، وتَنْجَلى كُرَب نفسى. فقلت لها: ذلك ما أريد أن أقول؛ فإن مثل المزاج المنقبض كمثل الكسل سواء بسواء: نجد فى صباعنا ميلًا إلى الفراغ واستنامة إلى الراحة، ولو أنا شجعنا مرة على طرح الكسل، وحسرنا عن يدنا للعمل، لوجدنا فى الجد لذة لا تَعْدِلُها لذة.

كانت فريدريك مصغية بسمعها إليّ، مقبلة بذهنها عليّ، فهاج ذلك فى الفتى حب الكلام فقال معترضًا: ولكن المرء عاجز عن كبح نفسه وضبط عواطفه. فقلت إن بحثنا يدور حول عاطفة مزدولة يود كل منا أن يتخلى عنها ويتخلص منها. ولا يدرى امرؤ إلى أى غاية تقف قواه إذا هو لم يبْلها[2]. فالمريض الذى تشتد رغبته فى نيل العافية لا ينى فى استشارة الأطباء طبيبًا طبيبًا، ولا يرفض الاستسلام للحِمية الشديدة المستمرة، ولا الصبر على مضض العقاقير المرة. ثم لاحظت الشيخ الصالح يرهف أذنه لما نقول ويجمع باله لما نذكر، فرفعت صوتى بالحديث وملت به إليه قائلًا: «درج الواعظون على أن يحذّروا الناس كثيرًا شر الرذائل ولم نسمع واحدًا منهم يحذرهم شر النفس المنقبضة»[3]. فقال القسيس: ذلك شأن وعاظ المدن. أما القرويون فلا يعلمون عن انقباض النفس شيئًا. على أن عظة

---

(١) انسلى الهم: انكشف.

(٢) يختبرها.

(٣) بين أيدينا الآن عظة نفيسة فى هذا الموضوع للافاتر من بين ما كتبه عن سفر يونس (عليه السلام). «جوت».

من هذا النوع قد تفيد الحين بعد الحين لتكون على الأقل درسًا لامرأتى ولسيدى الحاكم. فضحك الجماعة وقهقه هو حتى أخذته نوبة سعال شديدة قطعت حديثنا زمنًا. ثم عاد الفتى إلى الحديث فقال: إنك دعوت انقباض النفس رذيلة، وفى ذلك على ما أرى غلو ومبالغة. فقلت له: ليس فى الأمر شىء من ذلك ما دمنا نطلق هذا الاسم على كل ضارٍّ بنا وبأهلنا. أما كفى ألا نستطيع أن يسعد بعضنا بعضًا حتى يسعى كل منا فى اختلاس ما يجد أخوه من المسرة فى قلبه، وا يشعر به من الغبطة فى نفسه؟! أرونى رجلًا سوْداويًا قدر على كظم انقباضه ليحمل ثقله بنفسه دون أن يكدر صفاء من حوله؟ ما أولى انقباض النفس أن يكون غيظًا كمينًا من نقص كفايتنا وسقوط قدرتنا، وسخطًا على أنفسنا مصحوبًا برذيلة الحسد التى تهيج فينا الزهو الشديد والعُجْب المفرط؟ إذا رأينا قومًا سعداء لم نكن نحن مصدر سعادتهم كان ذلك علينا شديدًا غير محتمل.

فلما رأتنى شرلوت أتكلم هذكا وأنا ثائر مضطرب نظرت إليّ وابتسمت. أما فريدريك فرأيت فى مآقيها دمعة تترقرق، فحملنى ذلك على الاستمرار فقلت: بؤسًا لأولئك الذين يتخذون من سلطانهم على بعض القلوب سبيلًا إلى حرمانهم تلك المسرات البسيطة التى تنبعث فيها من تلقاء نفسها! فلا التحف والهدايا، ولا الظرف والملاطفة، بمعوضة عن تلك اللحظة التى سعدنا فيها بأنفسنا فسمّمها ذلك الخائن بحقده وغيرته.

فى تلك الساعة فاض قلبى بالخواطر وانثالت[١] على نفسى الذّكَر، فأجهشت عينى بالبكاء وصحت قائلًا: آه! حبذا لو كان كل منا يقول لنفسه كل يوم: إن أول الواجبات عليك لمن تحب أن تحفظ له مسرته، وتزيد سعادته وغبطته، وتشاطره فرحه وبهجته؛ وإنك لا تستطيع أن تأسو[٢] كلوم قلبه إذا صدعه الهم وأمضَّه الهوى؛ وإذا ما غشيت سكرة الموت تلك التى أذويت حياتها وهى ناضرة مزهرة، ورأيتها ممدودة معمودة[٣] قد دكها المرض وأضنتها العلة وعياها السادرتان[٤] شاخصتان إلى السماء، وجبينها الشاحب من عرَق الموت فى جزر ومد، عرفت بعد زن حُمَّ القضاء - وأنت واقف حيال سريرها وقفة المجرم المقضى عليه - أنك لا تملك لها نفعًا، ولا تستطيع لمكروهها دفعًا، فتذهب نفسك حسرات على أنك لم تنفق ما تملك لتبعث فى هذا الجسم الضارع[٥] المنحلِّ بقية من العزاء وأثارةً من الحياة...!

لم أكد أنطق بهذه الكلمات حتى قام فى خاطرى ذكرى موقف كهذا الموقف فغلبنى على نفسى واستمطر شئون[٦] عينى، فسترت وجهى بمنديل وانتبذت ناحية، فما عدت إلى رشدى إلا على صوت

---

(١) تتابعت وكثرت.
(٢) تداوى جروحه.
(٣) عمده المرض: أضناه وأوجعه وفدحه.
(٤) المتحيرتان من شدة الحمى.
(٥) الواهن النحيل.
(٦) مجارى الدمع.

شرلوت تدعونى إلى الرحيل. فلما انفرد بنا الطريق أخذت شرلوت تؤنبنى على شدة اهتمامى بكل شىء، وتنصح لى أن أُبقى على نفسى وأهاونها، فإن مغبة ذلك وخيمة عليّ.

أيها الملاك الكريم! إنى إذا حييت فلأجلك، وإذا سعدت فبفضلك!

٦ يوليو

لا تزال قائمة على سرير صاحبتها المحتضَرة، ولا تزال كما هى حاضرة الذهن رقيقة الطبع ترسل من نظراتها العزاء للمنكوبين والسعادة للمنكودين.

خرجت تتنزه مساء أمس مع أختيها مَرْيان وأميلى الصغيرة، وكان عندى بهذه النزهة علم، فوافيتهن إليها ومشينا معًا ساعة ونصفا؛ ثم ارتددنا إلى المدينة فمال بنا الطريق إلى المنبع الذى آثره قلبى بإعزازه، وأصبح منذ اليوم أعز عليّ أضعافًا مضاعفة. جلست شرلوت على حائطه الصغير ولبثنا أمامها وقوفًا. ثم ألقيتُ نظرة على ما حولى فلمحتُ فى صحيفة الماضى تلك الفترة التى قضيتها فى هذا المكان منعزلًا وحيدًا، فقلت: «أيها المنبع العزيز! مضى زمن لم أرفّه فيه عن نفسى بنسيمك الرطب ونَميرك العذب. ولطالما مررت بك وشِيكا من غير أن أنظر إليك، أو أقبل عليك»، ثم نظرت إلى أسفل فرأيت أميلى صاعدة وفى يدها قدح من الماء قد ربكها حمله. وكنت إذ ذاك أتأمل شرلوت وأشعر بأثرها فيَّ ومكانتها لديَّ. فلما أقبلت أميلى بالماء رغبت مريان فى شربه، فأبته عليها الطفلة

وصاحت بعبارة رقيقة عذبة: «لأنت يا شرلوت أول من يشرب من هذا الماء»! فاستخفنى ما سمعت فى جملة البُنَيَّة من صدق اللهجة ورقة القلب، فلم أجد طريقة أعبر بها عن شعورى وسرورى سوى أن رفعتها بين يديَّ وقبلتها بحنان وقوة؛ فهبت الطفلة من فورها تصرخ وتُعْوِل؛ فوقفت دَهشًا مبهوتًا! وجاءت شرلوت فقالت: «لقد أسأت صنعًا بالبنية!» وأخذت تلاطفها وتسرّى عنها بقولها: إليّ إليّ يا لِيلي! لا بأس عليك منه! ثم أمسكتْ بيدها وهبطت بها إلى المنبع وقالت لها: «اغسلى وجهك سريعًا بهذا الماء الخِصر[1] يذهب عنك ما يضرك». أما أنا فلبثت فى مكانى أنظر إلى البنية وهى تحك خديها بيديها الصغيرتين المبلَّلتين على اعتقاد راسخ بأن هذا الماء سيذهب عنها الرجس ويقيها شر الخجل من لحية[2] قبيحة كَثّة[3] تنبت فى ذقنها وعارضيها. وكلما صاحت بها شرلوت: «حسبك! حسبك!» ضاعفت الابنة همها واستفرغت جهدها، كأنها تعتقد أن الغسل الكثير أنقى من القليل وأبلغ.

أؤكد لك يا وليم أنى لم أر فيما عشت تعميدًا أفضل من هذا ولا أكمل. ولقد حدثت نفسى عندما صعدت شرلوت أن أسجد لها كما أسجد لنبى كفَّر عن خطيئات شعبه!

أخذتنى هزة السرور بهذا الحادث فما تمالكت أن أذعته فى مساء

---

(١) البارد.

(٢) من أساطير الأولين أن البنت إذا قبلها أجنبى نبت فى وجهها لحية كثيفة.

(٣) كثيفة.

ذلك اليوم إلى رجل كنت أظن أن له قلبًا كما أن له رأسًا فيَقدر هذه السذاجة الإنسانية حق قدرها. ولكنى كنت واهمًا فى زعمى ومخطئًا فى حكمي؛ فقد قال إن شرلوت ضلت ضلالًا بعيدًا، وإن من الخطل أن نحق الباطل ونزين العاطل للأطفال، وإن أمثال هذه الأقاصيص يفسح مجالًا لأباطيل وتُرَّهات كان أولى بالمربى أن يقتلع جذورها من قلوبهم وهى غضة... تذكرت حينئذ أن هذا الرجل قد عمَّد[1] منذ ثمانية أيام ولدًا من أولاده؛ فضربت عن ذلك صفحًا وبقيت مؤمن القلب بهذه الحقيقة، وهى أن نعامل أطفالنا معاملة الله لنا، فإنّا لا نكون أسعد نفسًا ولا أرغد عيشًا إلا إذا تركنا نهيم فى أودية الأحلام الواسعة، ونعيش فى سكرة الأوهام الخادعة.

٨ يوليو

لا جرم أنى طفل! ما بال قلبى يهفو فى إثر نظرة؟ لحقٌّ أنى طفل! كنا ذاهبين إلى ولِهم، وكان السيدات قد خرجن فى مركبة؛ ففى أثناء هذه النزهة رأيت يقينًا فى طرْف شرلوت الأدعج الساجي[2]... عفوًا أخى وصفحا! فإنى مائق أحمق. كنت أريد أن ترى بعينيك عينيها.. لا أُطيل القول فقد دب فى جفنى الكرى. صعد النساء المركبة ووقف على بابها الفتى (و) وسِلِسْتَاد وأدران ثم أنا. وأقبل النسوة على هؤلاء الفِتْية الهُوج الرقعاء يحادثهن، وطلبت نظرات شرلوت

(١) التعميد أول أسرار الدين المسيحى، وهو غسل الصبى بالماء باسم الأب والابن وروح القدس. وفى ذكر هذا تهكم بالرجل كما لا يخفى.
(٢) الساكن.

فوجدتها تنتقل من واحد إلى آخر. أما أنا! أنا الذى لم أشغل إلا بها، ولم أفكر إلا فيها، فلم تتجه إليّ ولم تقع عليَّ! ولقد كرر قلبى لها الوداع ألف مرة، وهى لم تنظر إليَّ مرة!

انطلقت المركبة فتغرغرت عيناى بالدمع وتبعها بصرى فرأيت رأس شرلوت بارزًا من باب المركبة. رأيتها تلتفت لتنظر، فليت شعرى إلى من تنظر؟ أإليَّ تلتفت وإياى تنظر؟ عزيزى وليم! أنا فى هذا الشك مضطرب متردد، ولا عزاء إلا أن أقول لها: ربما تكون قد التفتت إليّ! ربما.... لِيَهْنِك النوم يا عزيزي! آه! ما أجدرنى أن أُعد طفلًا!

١٠ يوليو

كنت أريد أن ترى وجهى كيف يغيره الحمق ويصوره إذا ما تكلم أحد عنها فى ملأ، ولا سيما إذا سألنى إنسان هل تعجبني! ما أثقل هذه الكلمة على سمعي! كيف يكون رجلًا من تعجبه شرلوت دون أن تمتلئ بها قواه ومشاعره؟ تعجبني! لقد سألنى بعضهم منذ قليل هل فى أُسْيان ما يعجبني!

١١ يوليو

لا تزال زوجة السيد (م) تكابد غصص المرض وتقاسى لهاث[1] الموت. وأنا أدعو الله أن يمسح عليها بيد العافية، فإنى أتألم مما يؤلم شرلوت. أصبحت لا أرى الحبيبة إلا نادرًا عند إحدى صواحبها. ولقد

(١) شدته وكربه.

قصت عليَّ اليوم هذه الحادثة الغريبة: وهى أن زوج المحتضرة رجل دنئ الحرص جماد الكف[١]، وقد جعل حياة امرأته بشحّه وتقتيره سلسلة آلام ومجمع هموم. غير أنها لم تَعْدم مع ذلك وسيلة تعيش بها وادعة قانعة. فلما أعضل[٢] الداء ونكل[٣] الأطباء وزهفت[٤] إلى الموت نادت زوجها على محضر من شرلوت وقالت له: «يجب أن أبوح لك بسر لو دفنته معى لأحدث بعد موتى ضررًا وبيلا وشقاقًا طويلًا. لقد دبرت منزلك منذ وليته إليالآن بما استطعت من ترتيب وتوفير وحكمة؛ بَيْدَ أنى أستميحك العفو عن خداعى لك وغشى إياك ثلاثين عامًا. إن لم تخصص فى العهد الأول من زواجنا إلا مبلغًا زهيدًا من المال نفقةَ لطعامنا وقضاء لحاجنا. فلما اتسع نطاقنا وكثرت نفقاتنا عجزتُ عن إقناعك بزيادة النفقة الأسبوعية. وجملة القول أنك طلبت منى أن أقيم أوَدَك وأسد عوزك، على ازدياد نفقاتك وكثرة طلباتك، بسبع فلورينات[٥] فى الأسبوع. كنت أرضى بذلك القدر مكرهة إجابة لطلبك واجتنابًا لغضبك، ولكن ما يعوزنى من نفقة الأسبوع كنت آخذه بيدى من كيسك معتقدة أن ذلك لا يدخل فى باب السرقة.

أنا ما بذرت ولا أسرفت. وقد اعترفت لك بهذا الأمر لا لأنه

---

(١) بخيل.

(٢) استعصى.

(٣) عجزوا.

(٤) دنت منه.

(٥) الفلورينة نقد نمساوى يساوى فرنكين وعشرة سنتيمات.

جريمة أخشى لقاء الله بها وعقابه عليها، فإنى راضية عن نفسى، مستريحة لعملي؛ ولكنى خشيت أن تقول للمرأة التى ستخلفنى على تدبيرك إذا فدحها الأمر وأعيتها الحيلة: إن امرأتك الأولى كانت راضية بذلك القدر قانعة به».

حادثت شرلوت مليًّا فى أمر الإنسان وعمايته المفرطة. يرى سبع فلورينات تقضى حاجة بيت جاوزت نفقاته الضعف ولا يجد فى الأمر شيئًا يستريبه وينكره! على أن فى الناس من يعتقد أن معجزة بعض الأنبياء فى جرّة اليت التى لا تنزح ولا تنفد قد انتقلت إليهم، وتجددت لديهم!!

١٣ يوليو

كلّا، لم أك مخدوعًا، فقد قرأت فى عينيها الدعجاوين عطفها عليَّا وعنايتها بأمرى. أجل! إنى أشعر ـ وقلبى لا يُتَّهم فى ذلك ولا يمين [١] ـ أنها.... أأجرؤ على النطق بهذه الكلمة التى تضمنت نعيم الحياة وسعادة الجنة؟ إنها تحبني! أذلك ما يتوهمه قلبى ويدعيه، أم هو الشعور الحق لا ريب فيه؟ أنا لا أعلم رجلًا يستطيع أن يغلبنى على حبها، أو يعبث بى فى قلبها. على أنها إذا حدثتنى عن ألبير بما شاء الله من حب أكيد وشوق شديد، أخذنى ما يأخذ القائد الرغيب[٢] العين الطموح النفس إذا حُط من مقامه، وجرد من وسامه، وأرغم على تسليم حسامه!

---

(١) يكذب.

(٢) الطامع.

١٦ يوليو

آه! ما هذه النار التى تتمشى فى أعضائى كلما اتفق أن مست يدى يدها أو لمست قدمى قدمها تحت المنضدة؟ إنى أجتذب يدى منها سريعًا كأنما لذعتها جمرة متقدة، ثم لا تلبث قوة خفية أن تدفعنى ثانية إليها. ما أعظم الدُّوار الذى استقل مشاعرى واستولى على سائري! ولكن نفسها البريئة النقية تجهل ما تَجُرُّ عليّ على هذه المداعبات القليلة من الأذى والمضرة. إذا تحدثت إليّ وضعت يدها على يدى، فإذا ما استمر الحديث اقتربت منى حتى أجد نفحات أنفاسها السماوية على شفتى... هناك يخيل إلى أن جسمى يتصدع ويذوب كأنما صعقته صاعقة.

هل أفكر يومًا ما يا وليم أن أدنس العفة وأخون هذه الثقة؟ حاشاى أن أفعل! فلست خبيث الدَّخْلَة فاسد القلب إلى هذا الحد. نعم إن قلبى ضعيف جد ضعيف.... ولكن ليت شعرى لم لا يكون ضعفه من فساده؟

إنى أجلها وأقدسها. فإذا كنت معها سكنت رغباتى وفنيت نزعاتى. ثم لا أدرى فى أية حال أكون إذا دانيتها: تكون نفسى حائرة مضطربة، وأعصابى هائجة منقلبة.

إنها تعرف لحنًا من ألحان الموسيقى تعزفه على البيان بما شاء الله من قدرة وسذاجة وتأثير. ذلك لحنها المختار إذا ما أخذت تعزفه سكنت آلامى، وتبددت وساوسى وأوهامى.

ليس شيء بعد ذلك فيما ذكره القدماء عن تأثير الموسيقى وفعلها

الساحر بمتَّهم عندى ولا مدخول. ما أفعلَ هذا اللحن بقلبي! وما أقدرها على اختيار الوقت المناسب لعزفه! إنها تعزفه ساعة لا أرجو الراحة والسكون إلا فى الموت، فتنجلى ظلمات قلبى، وتذهب ضلالات فكرى، وأردد أنفاسى وادعًا طليقًا.

١٨ يوليو

وليم! ما قيمة العالم بأسره فى نظر القلب، إذا ما خلا من نعمة الحب؟ إنه يكون أشبه بالفانوس السحرى من غير ضوء. فإذا ما أدخلت فيه المصباح لا تلبث أن ترى صورًا جمة الألوان على الحائط الأبيض. وترانا وإن لم نجد غير تلك الأشباح الزائلة، والأخيلة الباطلة، نسعد بالوقوف عليها والنظر إليها، كالأطفال ذوى القلوب الفتيَّة الغضة تبهرهم تلك الرؤى العجيبة والصور الغريبة!

لم أستطع الذهاب هذا اليوم إلى شرلوت، لأن جماعة ضربوا إليَّ موعدصا لا قِبل لى بإخلافه، فأرسلت إليها خادمى لا لشيء سوى أن يضكون بجانبى من دنا منها ونظر إليها هذا اليوم. لبثت أنتظره على أحر من الجمر؛ فلا رأيته عائدًا استطارنى الفرح وهممت أن أعانقه لولا أن قعد بى الحياء ومنعنى الخجل.

لقد كان فيما زعم الناس أن حجر بولونيا إذا عُرض للشمس اقتبس من أنوارها واختلس من أشعتها حتى ليبقى هزيعًا من الليل مضيئًا. وتلك كانت حال هذا الخادم معى، فإن شعورى بأن عينيها وقعتا على وجهه ووجنتيه وأزرار ثوبه وطوق عباءته، جعل هذهالأشياء فى عينى ثمينة مقدسة، وأنزله من قلبى منزلة سامية،

حتى لتأبى نفسى فى تلك اللحظة أن أبيعه بألف دينار. يا لله! كم كنت سعيد النفس بحضوره!

رَبأ الله بك يا وليم عن الضحك من هذه الأشياء، وأعاذك من نقيصة السخر والاستهزاء. وهل تنكر أن ما يسعد نفوسنا ويذهب بؤوسنا، ليس إلا أخيْلة طائفة، وأشباحًا هاتفة؟

١٩ يوليو

أول ما أهتف به فى الصباح هذه الجملة: «سأذهب لأراها»، ومنذ أنهض من منامى وتستقبل عيناى أشعة الشمس الجميلة لا أجد لى طول النهار مبتغى ولا متمنى غير أن أراها. تجمّع ما أتمناه فى هذه الأمنيَّة، وتحقق ما أبغيه فى هذا الرجاء، فلم يبق لى ما آمله ولا ما أرجوه.

٢٠ يوليو

ترى لى أن أصحب السفير إلى ڤيَنَّا، وعزيز عليَّ أن أصير إى ما ترى. لا أحب أن أكون تابعًا. وفوق ذلك فكلنا يعلم أن ذلك الرج لكريه بغيض. تقول إن أمى تريد أن ترانى مشغولًا... أمر مضحك! وهل أنا خَلٍ يا صديقي؟ ألم أكن الآن مشغولًا؟ وأى فرق فى الواقع بين أن أقشر بِسِلَّى أو باقِلَّى؟ كل ما فى العالم يؤدى إلى غاية دنْيَا حقيرة. فمن ينهك نفسه بالعمل فى اكتساب المال زو الجاه ابتغاء مرضاة الناس لا اتباعًا لأهوائه ورغائبه، ولا قضاء لأغراضه ومآربه، فقد ضل ضلالًا بعيدًا، وخسر خسرانًا مبينًا.

٢٤ يوليو

أراك تحرص على أن أرهف للتصوير عزمى وأحسِر له عن يدى، وذلك ما يحدونى إلى طى الحديث عنه حتى لا أعترف لك أنى ما أحدثت منذ بعيد شيئًا يذكر.

ما رأيتُنى كاليوم أسعد بالحياة نفسًا، ولا أتم بالوجود علمًا، ولا أصح للطبيعة فهمًا. تغلغل فكرى فى أعماق الكون، من الجبل إلى الحصاة، ومن الدوحة إلى العشبة، وأرانى مع ذلك إذا حاولت الشرح والبيان التاثَ[١] الأمر على ووجدت القول فيه وراء الطاقة وفوق الإمكان... ذلك لأن ملكة التعبير أدركها الوهن والعجز حتى لتمرُّ الأشياء بنفسى مرور الطيف خفّاقة مضطربة لا أستطيع أن أقتنص منها حرفًا، ولا أن أعرف لها وصفًا. ويخيل إلى أنى لو أُوتيت صلصالا[٢] أو شمعًا لصورت بيدى ما يجول بخاطرى وتحسه مشاعرى. ولو استمر ما بى على حاله لاتخذت الطين ثم صورته... ولو لم أصنع منه الأكُرَات وفرازِق[٣]!

حاولت ثلاث مرات أن أُصور شرلوت فأخفق ويضرج وجهى الخجل، ثم يعترينى فضلًا عن ذلك همٌّ وكآبة، لأنى كنتى قبل اليوم أرسم التشابه بحذق وتوفيق وسهولة. فلما أعيانى الأمر رسمت وجهها رسمًا تقريبيًا واضطررت أن أقنع به.

---

(١) التاث الأمر: صعب.

(٢) الصلصال: الطين.

(٣) أقراص.

٢٥ يوليو

نعم يا شرلوت ونَعَام عين! سأصْدُقك السعى فيما كلفتنى، وأكفيكِ من حاجتك ما استكفيتنى. فلا تخشى أن تحملينى من أمورك غير هذا فإنى خفيف إلى مبتغاك سريع إلى رضاك. ولا أسألك على ذلك شيئًا إلا أن تُعفى رسائلك إليّ من تجفيفها بالرمل؛ فإن رسالة اليوم رفعتها بقوة إلى شفتى فانجرس الرمل تحت أسنانى، ودهانى من ضَرَسها ما دهانى.

٢٦ يوليو

كثيرًا ما عاهدت نفسى ألا أزداد منها قربًا، وألا أزورها إلا غبًّا. ولكن من يستطيع أن يفى بهذا العهد، ويصدُق فى هذا الوعد؟ لقد يحدث كل يوم أن أقع فى المحظور فأذهب إليها مقسمًا جَهد اليمين ألا أبرح المنزل غداً. فإذا جاء الغد لا أعدم سببًا قاهرًا يسوِّغ زيارتها ويستدعى لقاءها، فأجد نفسى بجانبها قبل أن أفكر فى السبب. أو يحدث أنها تقول لى فى المساء: «أما أراك غدًا؟» ومن ذا الذى بعد ذلك يطيق دفاعًا أو يستطيع امتناعًا؟ أو تحملنى رسالة فأرى الأنسب أن أحمل إليها الجواب بنفسي؛ أو أجد السماء صحوًا والهواء رَخوًا فآخذ الطريق إلى ولِهْم؛ فإذا ما كنت هناك لا يكون بينى وبينها إلا نصف فرسخ. إنى إذن أكون شديد الاقتراب من جوها ومدارها فتجذبنى فأرى نفسى فجأة بين يديها.

لقد كانت جدتى تحدثنى عن جبل المغناطيس أن السفن إذا اشتد

دنوها منه طارت إليه دُسُرُها[1] وحدائدها وخلفت الملاحين فى يد الموت صرعى بين الأمواج المترامية والألواح المتداعية.

٣٠ يوليو

عاد ألبير فليس لى إلا الرحيل. فإن وراء احتمالى أن أراه أمام عينى يملك هذا الجمالافاتن والكمال الرائع مهما كان أعظم الناس خطرًا فى عينى، وأجلهم موقعًا من قلبى، وأجدهم بإجلالى وحبى. أجل يملكها يا وليم، وحسبك ذلك! إنه خطيها وقد أقبل. وهو رجل سَرى الأخلاق طيب القلب قد خلا مما يصرف القلوب عنه، وينفر الطباع منه. والحمد لله لم أشهد ساعة استقباله، فقد كان ذلك يورثنى حزنًا يذيب لفائف القلب. على أن الرجل بلغت به سراوة الخلق ألا يُقبّل شرلوت على محضر مني؛ وتلك يد لا يستقل بثوابها غير فضل الله. إن ما يبديه إلى شرلوت من مظاهر الإعظام والتجلّة ليدفعنى إلى حبه وإكرامه. أما ما يظهره من العطف عليَّ والميل إليّ فليس على ما أظن صادرًا عن قلبه ولا ناقلًا عن شعوره، وإنما ذلك عمل من أعمال شرلوت. والنساء فى مثل هذه الأمور أنفذ بصائر وأبعد مدارك. ولهن الحق فى ذلك، فإنهن متى قدرن أن يجمعن رجلين من صرعى غرامهن بأواصر المودة كانت ألفتهما أنفع لهن وأعْود عليهن، وإن كان ذلك لا يقع إلا ندورًا.

لا يسعنى أحيانًا إلا أن أجِلَّ هذا الرجل وأُكبره؛ فإنى وإياه فى الطبع على طرفى نقيض. هو واسع الخلق رحب الأناة، وأنا نزق

(١) جمع دسار وهو المسمار.

الطبع طائش الحلم لا أملك من نفسى ما يملك من نفسه. ولكنه رقيق الشعور لطيف الوجدان يعرف قيمة شرلوت ويَقدرها قدرها. ويظهر أنه قليل الخضوع لسلطان ذلك العيب الذى لا أغفره دون سائر العيوب وهو انقباض النفس.

إنه يعتقد فيَّ ذكاء القلب وصفاء الذوق؛ فلما رآنى أتعلق شرلوت وأطرب لكل ما تفعله زهاه النصر ولج به الفخر وازداد لها حبًّا وبها ولوعًا.

أنا لا أبحث إن كان يؤلمها أحيانًا بسخافة الغيرة أو لا يؤلمها، فإنى لو كنت مكانه لما سلمت من نزغات هذا الشيطان، ولما نجوت من شر هذا الخلق.

ومهما يكن من شىء فإن سعادتى بقربها قد استرجعتها الأيام فلم تعد إلا ذِكْرَى. قل لى بربك ماذا أسمى ذلك؟ أجنونًا أسميه أم عمى؟ وماذا تفيد الأسماء أو تنفع الألقاب والشيء دالٌ على نفسه بنفسه؟ كنت أعلم قبل قدوم ألْبير كل ما أعلمه اليوم. كنت أعلم أن ليس لى فيها ولن تكون لى فيها رَجية ولا أمل.. وكنت أحبس رغبات نفسى ما استطعت كلما أثارتها رؤية هذا الحسن الرائع والجمال الفاتن... وترانى الآن أنظر نظر المائق[1] المشدوه، وأعجب عجب الأحمق المعتوه، لأن ألبير جاء بالفعل يسترد أمانته ويسترجع غادته!! لقد بتُّ أحَرِّق الارَّمَ[2] على جدى العاثر وحظى المنكود، وأحنق أضعاف

(١) الأحمق.

(٢) أحرق الأرم je grince des dents أى تغيظ فحك أضراسه بعضها ببعض.

ذلك على الذين يريدوننى على أن أذعن لأحكام القدر ما دمت لا أملك لدفعها حيلة، ولا أعرف لتغييرها وسيلة. ألا بُعدًا لأولئك الخاطئين وسحقًا!

أرود مسارح الوادى، وأجوس خلال الغاب، حتى إذا دانيت عريش البستان ووجدت شرلوت وإلى جانبها ألبير خذلتنى قواى، وثقلت عليَّ رجلاى، وأخذنى من الطرب ما يأخذ الملموم[1]، وأصابنى من الهذيان ما يصيب المحموم، فآتى من سفساف القول وسخف الفعل فنونًا وضروبًا. حتى قالت لى الغداةَ شرلوت: «نشدتك الله إلا ما أقلعت عن مثل ما فعلت بالأمس! إنك بمثل هذا الفرح تملأ قلبى رعبًا»، ولكنى أصارحك ـ والأمر بينى وبينك ـ أنى أرتقب ساعة يخرب ألبير إلى عمله فأسرع إليها. ولا تسل عما أجد من برد السرور ولذة السعادة إذا وجدتها فى المنزل وحيدة.

٨ أغسطس

عفوًا يا وليم وصفحا! ما كان يدور فى خَلدى حين قلت ما قلت فى أولئك الذين يريدوننا على أن نذعن لأحكام القدر أنك تتابعهم على هذا الرأى. وحقيقة الأمر أنك مصيب. بيْد أن لى عليك اعتراضًا، وهو أن من النادر أن تجد الحوادث والأشياء فى هذا العالم محدودة الفروق خاضعة لقانون «نعم» أو «لا» على إطلاقه. فإن الفرق بين العواطف وطرائق العمل كالفرق بين الأنف والأقنى والأنف الأطفس. لعلك لا تنقم منى ـ وقد قبلت مبدأك

(١) الملموم: من أصابه اللمم وهو طرف من الجنون.

ـ أن أحاول التخلص من برهانك القاطع ذى الحدين المتباينين: «نعم» أو «لا».

تقول إما أن أكون على أمل من شرلوت أو على يأس. فإن تكن الأول فأولى بى أن أسير فى طريقها وأسعى إلى تحقيقها. وإن تكن الأخرى فخير لى أن أمضى العزم على الإفلات من رِبقة هذه العاطفة المشئوم التى ستنهك قواى وتطفئ سراج حياتى.

هذا كلام يستخفه اللسان وتسيغه الآذان، ولكن بينه وبين العمل مسافة بعيدة. هل تستطيع أن تحمل عليلًا يذويه الداء ويَصْويه فى دُءوب وبطء على أن يضع فى الحال حدًّا لأسقامه وآلامه بطعنة خنجر؟ إن ذلك الداء الذى أوضعه وأضرعه قد سلبه فيما سلب قوةَ العزيمة على الخلاص منه.

تستطيع أن ترد على بتشبيه منطبق على هذه الحال، وهو أنا لا نعرف رجلًا تبلغ بهالغفلة أن يتردد فى بتر ذراعه إذا كان بقاؤها يُشفى به على الخطر ويهجم به على الموت. أنا كذلك لا أعرف هذا الرجل، ولكنا لا نتقارع بالتشابيه ولا نتجادل بالأمثال وحسبك ذلك.

نعم يا وليم! لقد تمر بى لحظات أشعر فيها بالقدرة على وضع ذلك العبء الذى أنقض ظهرى وناء به. ولو كنت أدرى أين أذهب لذهبت، ولكنى لا أعليم مغذًى ولا مَراحًا.

فى مساء اليوم نفسه

وقعت اليوم فى يدى مذكرتى اليومية بعد أن أهملتها زمنًا،

فأدهشنى أن أرانى أتقدم فى هذه الطريق خطوة خطوة على بصيرة وإدراك؟ وأعجب العجب أن أرى حاضر أمرى وحرج موقفى، ثم لا أسلك إلا مسلك الصبية الأغرار! وهأنذا اليوم أبصر حالى وأعرف مآلى ثم لا أجد فى ظواهرى ما يدل على تحسن وإصلاح!

١٠ أغسطس

كان من الميسور لو لم أكن مُحَمَّقًا مأفونًا أن أعيش عيشة وغيدة، وأن أحيا حياة سعيدة. ذلك لأن من النادر أن يجتمع لامرئ ما احتمع لى الآن من أسباب المسرة ووسائل الأنس. ولكن واأسفاه! إن سعادة القلب لا تتعلق إلا به، ولا تطلب إلا منه، ولا توجد إلا فيهِ. فأنا عضو فى أسرة من كرائم الأسر، يحنو علىَّ الوالد حنوه على ولده، ويجلنى الأبناء إجلالهم لوالدهم، وتحبنى شرلوت.... ويودنى ألبير ذلك الرجل العظيم الذى خالصنى الود وصادقنى الإخاء فلا يكدر صفوى بإدلاله، ولا يؤلم نفسى بإغفاله، ولا يختص بحبه بعد شرلوت سواى. غير أننى مع كل هذا أرى بينى وبين سعادة النفس أمدًا بعيدًا.

وليم! إنه ليسرك وأيم الله أن تسمع إلىَّ وإلى ألبير ونحن نتحدث عن شرلوت أثناء النزهة؛ فلا يتصور متصور موقفًا هو أبعث على الضحك من موقفينا. ولكنه على ذلك طالما استدرّ شئونى واستوكف دموعى.

حدثنى عن أم شرلوت وقص ليَّ نبأها وهى فى سياق الموت تلقى زمام البيت ومقاليد الأطفال إلى ابنتها، وتجعلها هى فى ذمة ألبير وعهده؛ وذكر كيف خُلقت شرلوت منذ يومئذ خَلقًا جديدًا،

وأصبحت بفضل عنايتها بتدبير بيتها واهتمامها بتربية إخوتها أمًّا حقيقية لا تنفق دقيقة واحدة من حياتها فى غير ملاطفة أطفالها، أو مزاولة عمل من أعمالها، من دون زن تفقد شيئًا من بشاشتها وإسجاح خليقتها. كان يحدثنى بكل ذلك وأنا أسير إلى جانبيه أقطف الأزهار من حفافيَ الطريق وأؤلف منها طاقة جميلة... ثم أطرحها فى النهر الذى يتدفق أمامنا فتذهب مع التيار راقصة مُرْجَحِنّة..

لا أدرى زقلت لك إن ألبير باق هنا أم نسيت. إنه حصل بفضل زُلفاه لدى بلاط الأمير على عمل مُرْبح فى وَلِهم. والحق أن ألبير انفرد عن مواقف النظراء فى جودة العمل، ودقة النظام، وحب المثابرة.

١٢ أغسطس

من الحق أن ليس فيمن تقله الغبراء أطيب قلبًا ولا أنبل نفسًا من ألبير. لقد كان بين وبينه بالأمس مشهد غريب. وذلك أن نفسى سولت إليّ أن أجول جولة على ظهر الجواد فى الجبل (حيث أكتب إليك الآن) فذهب إلى ألبير أستاذنه وأودعهُ. وبينا أصعَّد النظر فى غرفته وأصوّبه إذ لمحت عيناى على الحائط غدارتين، فطلبت إليه أن يعيرنى إياهما لأتسلح بهما فى جولتى. فقال لى: هما بين يديك، غير أنهما فارغتان؛ فإذا شئت أن تحشوهما، فإنى لا أقتنيهما إلا صورة فحسب»؛ فتناولت إحداهما واستمر ألبير يقول: «أخذت على نفسى ألا أدع غدارتى محشوة منذ وقع لى من جرَّاء ذلك ما وقع».

فاستشرفت نفسى إلى أن يقص عليَّ ذلك الحادث فقال: «قضيت ثلاثة أشهر فى أسرة صديق لى فى الريف، وكان فى حوزتى غدارتان

تركتهما فارغتين لعدم الحاجة إليهما. ففى عصر يوم من الأيام مطير تمثل فى خاطرى لسبب لا أعلمه أن داهمًا سيدهمنا الليلة، وأنا سنحتاج إلى الغدارتين. فدفعتهما إلى الغلام ليجلوهما ويحشوهما. فلما فرغ من عمله صوَّب الغدارة إلى فتاة خادم يريد أن يخيفها مزاحًا ودعابة. فقضى الله أن تنطلق الغدارة وتصيب يمنى الفتاة فتذهب بإبهامها. فلقيتُ ما لقيت من عويل الفتاة وشكواها، ثم غرمت ثم العلاج للجراح فكان ضغثًا على إبَّالة[1]. فعاهدت الله ألا أدع فى بيتى سلاحًا محشوًا بعد الساعة... ولكن ماذا تنفع الحيطة أو يدفع الحذر والله قد حجب عنا علمه فما تدرى نفس ما يخبأ لها الغيب من مقدور الخطر؟ ولكن...».

ستعلم أنى أحب هذا الرجل وأجِله إلا إذا أخذ يكرر لاكِنّاته[2] ويكثر من استدراكاته واستثناءاته. لا أنكر أن لكل قاعدة شواذ، ولكنه رجل صدوق عدّل يضن بالحق أن يسمخ أو يشوه: فإذا ما ظن أنه نجم بالكلام من غير تريث، أو ألقى الخبر على رُسَيلْاته[3] من غير تثبيت، أقبل يحدده ويحوِّره، فيحذف منه ويضيف إليه حتى لا يكاد يدع من الفكرة الأولى شيئًا.

وجد الفرصة سانحة ومجال القول واسعًا فدفق البحث وعمق الموضوع على عادته. فتركته يقول وأسلمت نفسى البلابل الصدر

(١) بلية على بلية. والضغث قبضة من الحشيش أو قضبان صغار. والإبالة الحزمة الكبيرة من الحطب.
(٢) جمع لكن توسعًا.
(٣) تهاون به.

وهواجس الهم، ثم انتبهت مذعورًا فصوبت الغدارة إلى ما فوق عينى اليمنى من الجهة.

لفتت هذه الحركة الباغتة نظر ألبير إليَّ فوضع الغدارة من يدى وقال لى ممتعضًا: ما معنى هذا؟ فقلت له: إنها غير محشوة. فقال لى: ولو كانت كذلك فما معنى هذا! أنا لا أستطيع أن أتخيل إنسانًا يبلغ به الحمق والعَتَهُ أن يمزق دماغه برصاصة. إن هذه الفكرة وحدها تَشعر قلبى خشية وفزعًا.

فصحت به قائلًا: ما بالكم أيها الناس لا تكادون تذكرون شيئًا إلا إذا قلتم: هذا حمق وذاك عقل، وهذا طيب وذلك خبيث؟ ما نفع هذه الكلمات وما جداؤها؟ هل استبطنتم دخائل النفوس واستخرجتم مخبآت الأمور؟ أم هل استجلبتم غوامض الأسباب التى أنتجت هذه الأعما لوجعلتها قضاء لا مرد له ولا محيص منه؟ إنكم لو فعلتم ذلك لما تسرعتم فى الحكم ولا تعرضتم للخطأ.

فقال ألبير: لعلك توافقنى على أن من الأعمال ما يعد جناية مهما كانت الأسباب التى بعثت عليه ودفعت إليه. فسلمت إليه قوله اقتناعًا به، ولكننى عقَّبت عليه قائلًا: إنى لأجد كذلك لهذه القاعدة شواذ. فالسرقة جريمة، ولكن الرجل الذى وجد أهله وبنيه يتضاغون[1] من الجوع، ويترامون فى أحضان المنية من السغوب[2]، فدفعته الرغبة فى إنقاذهم إلى السرقة، يستحق الرحمة ولا يستوجب العقوبة. من

(١) يتضورون ويصيحون.
(٢) شدة الجوع.

ذا الذى يبتدر بالوقيعة رلجًا رأى بعينه المنكر على فراشه فملكته سَوْرة الغضب وازدهته نشوة الحميّة فقتل الزوجة الخائنة والمغوى الدنئَ!! ومن ذا يكون أول الراحمين فتاة استسلمت لمحظور الغرام ومقدوره وهى فى عماية اللذة وسكرة الحب!! إن قوانيننا نفسها وهى المتحذلقة المتصلبة تدركها الرحمة فى مثل هذه الأحوال فتَقفُ التنفيذَ واغمد سيف العدل.

فقال ألبير: هذا شىء آخر يختلف كل الاختلاف عما نقول: فإن الرجل الذى يتملك هواه قايده، يسلبه عقله ورشاده. وإذن لا ننظر إليه إلا كما ننظر إلى سكران أو مجنون.

فصحت به باسمًا: لله أنتم أيها لعقلاء والأخلاقيون! تظلون هادئين جامدين أمام الهوى والسكر والجنون. تؤنبون السكير بلسان السخرية، وتَدُعّون[1] المجنون بيد المقت، وتتحامون جانبه وتصدون عن سبيله فِعْلَ الكاهن، وتحمدون الله حمد الفِريسيّ[2] على أن خلقكم على غير شاكلة هؤلاء الناس.

قد سكرت غير مرة؛ وكانت أهوائى فى كل سكرة تضمتُّ إلى الجنون بسبب، ولم يُعقبنى ما فعلت خجلًا أو ندمًا. بل استطعت أن أفهم إى حد محدود كيف اضطر بعض الناس فى كل زمان أن يرموا الأفذاذ والنابغين بالسكر والجنون إذا قاموا بأعمال عظيمة كان من المظنون ألا تصل إليها قدرة وألا يعلق بها سبب.

---

(١) تدفعونه بعنف.

(٢) الفريسيون فرقة من بنى إسرائيل كانوا زمن المسيح يشتددون فى الدين ويتظاهرون بالورع رياء ومخادعة، فكشف سترهم وأعلن نفاقهم.

كذلك فى الحياة العادية لا تجد أثقل على الأسماع ولا أشق على النفوس من أن يقول الناس كلما رأوا رجلًا قام بعمل خطير أو نبيل أو مفاجئ: هذا سكران! هذا مجنون!

ألا إن أوْلى الناس بالخجل لَأولئك الذين صاموا عن العمل ولم يفطروا، وسموا العجز عقلًا حين هموا ولم يقدروا!

فقال ألبير: تلك إحدى ترهاتك، وصورة باطلة من تصوراتك. إنك تبالغ فى كل شىء. ولقد أخطأت هذه المرة على الأقل فى موازنتك الانتحار وهو موضوع الحديث بالأعمال العظيمة؛ وهيهات أن يعده الناس إلا خورًا وضعفًا؛ فإن أسهل على المرء أن يذوق الموت مَرَّة، من أن يتحمل طويلًا آلام الحياة المرة.

هممت أن أقطع سلسلة الحديث لولا أن ملكت نفسى وردتها على ما تكره. فإنه لا شىء أملأ لجوفى غيظًا من أن يبادرنى المخاطب برأى مستعار لا يسفر عن معنى ولا يُجَلّى عن غرض، على حين ينبعث كلامى إليه من سويداء قلبى وأعماق ضميري! على أن ذلك ليس بدْعًا من الأمر، فلقد سمعت كثيرًا وغضبت كثيرًا فما نفع السكوت ولا أجدى الغضب.

رددت على ألبير فى شىء من الحدة قلت له: أتدعو ذلك خورًا وضعفًا؟! إنى أعيذك بالله أن يخدعك ظاهر الأمر. هل تستطيع أن تتهم بالضعف شعبًا يرسف فى قيود الاستبداد، ويئن تحت نِير الاستعباد، إذا انفجر فى وجه المستبد فكسَّر أغلاله وقطع سلاسله؟ أم هل تجرؤ على أن تَصِم بالوهن رجلًا راعه أن يرى بيته طعمة للنار

فساتجمع قواه وحمل من الأثقال ما يعجز عن تحريكه وهو آمن هادئ؟ بل كيف يكون خوارًا ضعيفًا من أهين فى نفسه، فعصفت النخوة فى رأسهِ، وأخرجه الغضب عن طوره، فحمل على ستة أقران فنثرهم على الأرض نثرًا؟ فإذا كان من يوتِّر القوس يدعى قويًّا، فلِم يسمى ضعيفًا من يقطعها؟ وإذا كان الجهد العظيم دليلًا على القوج، فكيف يكون الجهد المضطرم الحاد دليلًا على الضعف؟

فرشقنى ألبير بنظرة ثم قال: خفض عليك فليس فى الأمر ما يغضب. إن المُثُلَ التى سردتها ليست على ما أظن فى محلها. فقلت له: ذلك ممكن! ولطالما نُعى عليَّ أنى أبرهن الأشياء بطريقة أقرب إلى الهراء والهذَر. فلننظر بعدُ إذا كنا نستطيع أن نَخُبر بطريقة أخرى سر ما يهجس فى خاطر المنتحر حينما يعقد النية على أن يلقى عبء الحياة عنه وهو على الجملة مقبول الحمل محمول الثقل: فإن من الصعب أن نتكلم بعدل ودقة عن عواطف لا نجيد فهمها ولا نستبطن كنهها.

إن الطبيعة البشرية محدودة، فلا تتحمل السرور والحزن والألم إلا بقَدر. فإذا سيمتْ فوق ما تطيق، وحُمّلت أكثر مما تستطيع، فَدَحها الحَمل وأدركَها الإعياء فترزح[1]. فليس الغرض إذن أن نعرف الرجل أقويّ هو أم ضعيف، وإنما سبيلنا أن نعرف هل يقوى على أن يتحمل مقدار الألم؛ وسواء عندنا أكان ذلك الألم ماديًّا أم أدبيًّا.

وقُصارى القول أنى أجد من الغريب أن يسمى جبانًا من قتل نفسه، ولا يسمى كذلك من قتلته حمل خبيثة!

(١) تسقط إعياء.

وكان حالما فى الحكم واحدة لو احتكمنا من الدنيا إلى حكَم

فصاح ألبير قائلًا: لقد رأيت رأيًا بديعًا[1]، وخالفت فيه الناس جميعًا. فقلت له: ليس الخلاف على قدر ما تظن، فإنا متفقان ولا ريب على أنهم أطلقوا الداء الثُّبات[2]على كل مرض ينهك الجسم ويهد القوى ويحل العزيمة ويدع المريض وقيذًا[3] لا يثوب إليه جسمه، ولا يعود بأية حال عزمه. فلنطبق حال الجسم على حال الفكر، ولننظر إلى الرجل وقد ضاقت حدود فكره، وحصرت قوى عقله، كيف تؤثر فى ذهنه الانفعالات وتستقر به الأفكار، وتتصرف به العواطف، حتى ينبعث من قلبه هوى لا يزال يعظم ويقوى حتى يحرمه نعمة الهدوء ويسلبه قوة الفكر ويفضى به إلى الموت.

إن من العبث أن يحاول العقل الهادئ شرح هذه الحال أو إرشاد هذا البائس. فإن الصحيح المعافى لا يستطيع أن يمد العليل الضارع بنفحة من صحته وقوته.

رأى ألبير أنى أعمم الكلام ولا أخصصه، فذكرته بحادث فتاة وجدت بالأمس غريقة وقصصت عليه نبأها:

«فتاة طيبة النفس، عذبة الخلق، دبت فى مدارج الخدمة وشبّت تقضى الأسبوع بعد الأسبوع فى أعمال واحدة وحركات متشابهة، ولا تعرف من مُتَع الحياة ولهو العيش إلا أن تخرج مع أترابها فى

(١) مبتكرًا يخالف ما عليه الناس.
(٢) المعجز عن الحركة.
(٣) مشفيًا على الموت..

بعض أيام الآحاد إلى ضاحية المدينة، وعليها ما اقتنته بتدبيرها من حلى وزينة؛ أو تُرَفِّه عن النفس أحيانًا بالرقص فى أيام الأعياد الكبرى، وما بقى من أوقات الفراغ تقتله بالحديث إلى جاراتها فى أسباب مشاجرة، أو فى اغتياب امرأة. ولكن طبيعتها الحادة، ونفسها الهائجة، وملاطفة الرجال لها، أشعرتها بالحاجة إلى لذة أخص وسرور أتم. فأصبح لهوها السابق فى نفسها تِفِهَ المذاق عديم اللذة، حتى واجهها القدر برجل من رجال اللهو، فاندفعت إليه مرغمة بعاطفة خفية لا تغالب، وعقدت به مذ عرفته حبل أمانيها، ووصلت به أسباب رجائها، ونسيت العالم بأسره، فلا تسمع غيره، ولا ترى سواه، ولا تحس إلا إياه؛ فهو وحده الموجود والمعبود والمشتهى.

لم يفسد طباعها عبث الدلال ولا سخف الإعجاب، فمضت إلى الغاية المرجوة لا تلوى شيء. طمعت أن تملكه، وأن تجد فى الاقتران به ما ينقصها من أسباب السعادة، وأن تذوق ما تبغى من لذائذ الحياة مجموعة فى وقت واحد. وعودٌ متكررة طبعت أمانيها بطابع اليقين، ومداعبات جريئة هاجت رغائبها، وملكت على نفسها مذاهبها، فغرقت فى بحر من الذهول، وسبحت فى جو من السعادة.

انتظرت حتى لم يعد للانتظار موضع، وصبرت حتى لم يبق فى قوس الصبر منزَع. فلما فتحت ذراعيها ونهضت تعانق الزمل، وتضم السعادة، وتقبل الفوز، إذا بالحب قد ذوى وبالحبيب قد رحل!

ها هى ذى الآن مسلوبة العاطفة مفقودة الرشد واقفة على شفا اللجة يكتنفها الظلام من كل جانب، وليس لها فى حاضرها عزاء ولا

من مستقبلها رَجية! غادرها من تحب وهو الذى كانت تعيش لأجله، وتتعلق من أسباب الحياة بحبله، فأعماها اليأس وأضلها القنوط فلم تر ذلك العالم الفسيح الممتد، ولم تفكر أن فى الناس عوضًا عمن هجر، وخلفًا ممن غدر؛ بل شعرت أنها وحيدة العالم، وطرذدة الدهر، فدلَّها الحزن، وجاش فى صدرها الهم فألقت بنفسها فى اللجة ليدفن الموت آلامها، كما دفنت الحياة آمالها».

تلك يا ألبير حال هذه البائسة وهى حال كثير من الناس! فهلا تجد أن ما حدث فيها هو بعينه ما يحدث فى حال المرض؟ لا مخرج للطبيعة من ذلك التيه الذى تتصارع فيه القوى وتتنازع فيه الطبائع. لذلك كان الموت أمرًا محتومًا لا دافع له ولا وعى منه.

يا بُؤْسَ لمن يقول حين يرى هذه البائسة فى وسط اللجة: «يا لها من حمقاء! كان خيرًا لها أن تنتظر! فإن الزمن بلسم القلوب الدامية. ولو عرفت[1] لهذا الخطب لتبدد يأسها، وتجدد أنسها، ووجدت فى الناس المخلص الأمين!»، ذلك ولا ريب أشبه بقول القائل: «ما أشد حماقة من يموت بالحمي! لو انتظر حتى ثابت إيه قواه، وطهرت أخلاط جسمه، وسكن فوران دمه، لكان اليوم حيًّا يرزق!».

لم ير ألبير تشبيهى واضحًا جليًّا، فوجه إليّ بعض اعتراضات منها أننى لم أتكلم إلا عن فتاة ساذجة جاهلة، وأنه لا يستطيع أن يفهم كيف يعذر فى مثل هذه الحال رجل ذو حصاة[2] ولب يعيش فى دائرة أوسع، ويدرك بثاقب رأيه وبُعد نظره حقائق الأشياء وعلائقها.

---

(١) عرفت لهذا الخطب: صبرت وتجلدت.

(٢) عقل.

فقلت له يا صاح: إن الإنسان هو الإنسان فى كل زمان ومكان؛ وإن قليل الذكاء الذى أُوتيه لا يغنى عنه فتيلًا إذا ما تحكم هواه وهاجت ميوله ورأى نفسه محصورًا فى حدود الإنسانية ومآزقها. وأكثر من ذلك أن... لِندَعْ بقية الكلام إلى مرة أخرى. ثم أخذت قبَّعتى ونهضت والقلب مفعم زاخر. ثم افترقنا وكلانا لا يفهم صاحبه. وكذلك الناس فى هذا العالم قلما يفهم بعضهم بعضًا.

٢٥ أغسطس

ليس فى العالم ما يجعل الإنسان ضروريًّا لأخيه الإنسان إلا المودة. أشعر الشعور كله أن شرلوت كان يحزنها فقدى، وأن أطفالها ما كانوا يفكرون إلا فى عودتى إليهم بعد الغد.

ذهبت اليوم إلى شرلوت أصلح بِيَانها فلم أستطع أن أتم العمل، لأن الأطفال أرادونى أن أقص عليهم حكاية من حكايات الجان؛ وشرلوت نفسها طلبت إليّ أن أسرهم وأرضيهم، فقطَّعتف لهم خبز عصورهم (وقد أصبحوا يفضلون تناوله من يدى على تناوله من يد شرلوت) ثم قصصت عليهم حكاية «الأميرة المخدومة بأيد مسحورة» وهى من أحسن القصص وأغرب الأنباء. وأؤكد لك يا صديقى أنى تعلمت من ذلك القصص شيئًا كثيرًا. وقد أدهشنى وزثار عجبى ما أرى من تأثير ذلك فيهم وسلطانه عليهم، حتى إذا ما اضطرنى النسيان إلى الاختلاق أو التزيد فحكسيت الحادثة على غير وجهها الأول قالوا: لقد رويتها من قبل على غير هذا النمط. فأنا أروض نفسى الآن على أن أسرد الحكاية سردًا دون تغيير ولا تحوير

كما تسرد حباتالمِسْبحة. دلنى ذلك على أن المؤلف الذى يتناول قصته فى طبعتها الثانية بالتصحيح والتنقيح إنما يضر عمله ولا ينفعه، ويخفض قدره ولا يرفعه. فإن الطبعة الأولى صادفت نفوسنا وهى طيّعة مستعدة، والناس جبلوا على أن يصدقوا ملا يصدِّق، ويعقتدوا ملا يحقق؛ فإذا رسخت فى أذهانهم، وبلغت حظها من إيمانهم، فالويل كل الويل لمن يريد محوها، أو يحاول اقتلاعها.

١٨ أغسطس

أكذلك قضى الله أن يصبح ما كان مصدرًا لسعادة المرء ورخائه، علةً لبؤسه وشقائه؟ أليس عجيبًا أن الشعور المتقد الذى كان يصل قلبى بالطبيعة، ويغمر نفسى بالنعيم واللذة، ويجعل كل ما يطيف بى جنة بهيجة، يعود عذابًا بئيسًا لا يخف، وشبحًا مخيفًا لا يغيب؟

كنت فيما مضى حين يمتد طرفى من فوق الصخرة إلى ما وراد النهر فيقع على الوادى الخصيب وما يكتنفه من الهضاب الخضِرة، أرى كل شىء حولى ينبت ويزهر. وحينما كنت أبصر هذه الجبال المغطاة بأشجار الدوح من أسافلها إلى أعاليها، وتلك الأودية المظللة محانيها بالغابات الأنيقة، وذلك النهر ينساب هادئًا بين نغمات القصب المهتز، وتتراءى فى جوانبه تلك السحب الجميلة المزجاة فى جو السماء بنسيم السماء، وأسمع الأطيار تُحْيى بأغاريدها مَوات الغابة جمعاء، وجماعات الذباب ترقص طرية مرحة على خيوط الشمس الأرجوانية الغربة، وأرمق الأرض ببصرى فأرى الأشْنان[١]

(١) نبات دقيق ينبت لفائف على السقوف والصخور: Mousse.

يمتص غذاءه من الصفاة الصلدة، والرتَمَ[1] ينبت فوق سفح الأكمة القاحل المرمل، فيكشفان لى عن ذلك النبع المقدس وتلك الحياة القوية فى باطن الطبيعة. أقول حينما كنت أرى وأسمع هذه الأشياء كان قلبى يحيط بها ويعيها بما شئت من حرارة وقوة، وكنت أشعر أنى أقرب ما أكون إلى التأله بما يفيض فى قلبى من الشعور والحس، ويخيل إليَّ أن صور العالم الجميلة الفخمة تتحرك فى نفسى فتملأها حياة جديدة.

كنت أرى حوليَ الأطواد الشاهقة ترتد عنها الأبصار كليلة، وأماميَ الوهادَ العميقة تقتحمها السيول غبَّ العاصفة، وتحتى الأنهارَ الطامية تتحدر أمواجها مسرعة، وأسمع الآكام والآجام ترن أجوافها رنينًا، وأنظر فى أحشاء الأرض فأجد القوى الطبيعية الخفية يعمل بعضها فى بعض فتتولد وتتجدد ثم تفيض وتنتشر فوق الأرض وتحت السماء، وأبصر أنواع المخلوقات يموج بعضها فى بعض على أشكال شتى وصور متباينة، وبنى آدم يلوذون جماعات بالخِصاص والأكواخ، ثم يبتنون منازل ثابتة ويتخيلون أنهم يهيمنون على العالم كله!

مسكين أيها الأحمق! ترى كل شىء صغيرًا لأنك صغير!

فى جميع الكائنات ـ من صياصى الجبال المنيعة إلى أغوار الفلوات المجهولة، ومن بداية البر إلى نهاية البحر ـ ينبثُّ روح الخالق الأزلى الذى لا ينقطع إيجاده، ولا يبطئ إمداده، ولا نحرم ذرة من

(١) نبات بقلى ذو زهر أبيض أو أصفر Genét.

ذرات الهباء من قوة روحه وسر كلمته. آه! كم تمنيت فى ذلك الزمن أن أقطع أجواز الفضاء على جناحَيْ ذلك الكرْكيّ الذى يطير فوق رزسى فأبلغ ساحل البحر الخضَمِّ الذى لما يكشفْ سره الإنسان لأشرب من اللانهاية كأسًا دِهاقًا[1] تبسط القلب وتنعش المشاعر! وأشعر لحظة واحدة على قصورى وضعفى بنقطة تجرى فى دمى من سعادة ذلك الموجود الذى يخلق كل شىء فى ذاته وبذاته!

أخَيَّ؟ إن ذكرَى هذه الساعات الذاهبة لأخْلَق أن تردنى سعيدًا، وإن ما أبذل من الجهد فى إحياء أثرها الأسمى فى قلبى وشرحه لك ليَسْمو بنفسى إلى أعلى من مكانها! ولكنه واأسفاه يجعلنى أشعر الآن بسوء حالى وحرج موقفى أضعافًا مضاعفة.

يخيل إلى أن قد هُصِرت الستور وانجابت[2] الحجب أمام نفسى فرأت مسرح الحياة الذى لا ينتهى ولا يحد قد تحول إلى حفرة ضيقة أمامى وقبر فاغر[3] فاه إليَّ.

هل تستطيع أن تقول: «هذا الشىء موجود» وأنتترى كل شىء يمر ويختفى أسرع من لمح البرق، وتجد من النادر أن مخلوقًا تطول حياته حتى تخمد قواه وينطفئ سراجه؟ أمَا يبتلعه السيل الأتيُّ ويدفعه التيار الجارف حتى يمزقه على صخورة الحياة؟

لا تمر لحظة من الزمن دون أن تقنيك أنت ومن حولك من أهلك.

---

(١) مملوءة.

(٢) انكشفت.

(٣) فاتح.

ولا تمر لحظة دون أن تدمر أنت أو تُرَغم على التدمير. إن خروجة إلى التنزه ماشيًا وهو أبرأ ما يكون يودى بحياة مئات من الديدان الصغيرة. ولخَطوة واحدة من خطواتك تدمر عشرات من مساكن النمل وقد تحمَّل فى بنائها رهَقًا شديدًا، وتسحق هذا العالم الصغير النشيط بأسره.

ليس ما يؤثر فيَّ ويشق عليَّ ما أرى من مصائب العالم النادرة التى تجتاحكم، ولا الفيضان الذى يغمر قراكم، ولا الزلزال الذى يخسف مدائنكم، وإنما هو تلك القوة المدمرة الكامنة فى الطبيعة جمعاء: تلك القوة التى لا توجد شيئًا إا ليُهلك ما يجاوره ويهَلك.

كذلك أسير فى هذه الحياة يميد بى القلق، ويجيش بصدرى الهم، بين السماء والأرض وما فيهما من القوى الفعالة فلا أرى إلا وحشًا هائلًا يأكل أبدًا كل شىء، ثم لا يعيد خلقه إلا ليعيد أكله.

٢١ أغسطس

عبثًا كنت أبسط ذراعيَّ إليها ساعة استيقظت صباح اليوم من حلم طاهر مؤلم! وباطلًا كنت أبحث عنها فى الليل على مرقدى وقد أوهمنى الحلم السعيد البرئ أنى جالس معها فى المرج أنعم بالحديث إليها، وأغمر بالقبل يديها! والَهْفَ نفسى عليّ وأنا بين اليقظة والنوم أتلمسها فى السرير ضِلّة فتُرجع إليَّ هذه الحركة مشاعرى بغتة فأستيقظ... فينبجس[1] من قلبى المكروب سيل من

(١) ينفجر.

الدمع، وأئن أنين البائس حين أُسف[1] النظر فى صفحة الغد فلا أرى إلا سوادًا كثيفًا وظلامًا مخيفًا.

٢٢ أغسطس

أنا تعس منكود الحظ يا وليم! لقد ترت قواى العاملة، وخمدت حواسى المضطرمة، وآل بى الهم إلى هموم لازم، واضطراب دائم. لا أستطيع المكث فارغًا، ولكنى غير كفء لعملٍ ما. عدمت الحساسة والخيال، فلا تزدهينى أعاجيب الطبيعة، ولا تبعث الكتب فى نفسى غير الاشمئزاز والضجر. كل شيء يُعْوزنا ولا ريب إذا ماأعوزتنا أنفسنا. شهد الله أنى تمنيت مرارًا أن أكون أجيرًا ليكون لى فى الصباح لدى يقظتى شيء أؤمله، وضرورة تدفعنى إى ما أعمله. وكثيرًا ما أغبط ألبير حينما أراه غريقًا فى الأوراق والأضابير[2] إلى أُذنه. ويخيل إلى أنى لو كنت مكانه لعشت سعيدًا.

أثرت فيّ هذه الفكرة حتى حدثت نفسى أن أكتب إليك وإلى الوزير أسأله مثل هذا العمل فى السفارة. وهم لا يمنعوننى هذا السؤال كما تؤكده لى أنت وكما أعتقده أنا. فإنى أرى للوزير صَوْرَة[3] إليّ منذ طويل، وطالما نصح لى أن أشغل نفسى بعمل ما. ولا أَكْذِبك فقد هممت مرارًا أن أفعل، ولكنى إذا استأنفت الفكر وتسلّفت النظر،

---

(١) أسدده وأحده.

(٢) جمع إضبارة وهى الحزمة من الصحف Dossier.

(٣) الصورة: الميل والمودة.

وتذكرت حكاية الفرس الذى أضرَّ به طول الجمام[1] فأسلم نفسه للسرج واللجام، فكدَّه فارسه وعنّاه حتى لصب[2] جلده، وارتكهت مفاصله، وقفت حائرًا لا أدرى ما أصنع. ولكن رويدك يا صديقي! أليس ذلك الطموح الذى أحسه فى فنفسى إلى تغيّر الحال وتبدل الأمر قلقًا باطنًا ومرضًا دخيلًا سيصحبنى فى كل مكان؟

٢٨ أغسطس

لو أن ما بى من الداء يرجى برؤه، لكان فى كرم هؤلاء الناس دواؤه وشفاؤه.

كان هذا اليوم ذكرى مولدى، فما كاد الصبح يفترُّ عن نواجذه حتى صبَّحنى رسول ألبير بصرة صغيرة، ففتحتها فإذا فيها عقدة من العقد الوردية التى كانت على منطقة شرلوت يوم لقيتها أول مرة وقد سألتها إياها مرارًا، ومجلدان من القَطع الصغير فتَحتهما فإذا هما ديوان هوميروس من طبعة (ديتيطس) وقد كنت أرغب فى الحصول عليها منذ زمن طويل لأستبدلها بطبعة (أرنستى) وقد كنت أرغب فى الحصول عليها منذ زمن طويل لأستبدلها بطبعة (أرنستى) فإنها ترهق ذراعى إذا ما خرجت أتنزه. فانظر كيف دينوننى من منالى، ويصلون يدى بآمالى، وكيف يتحينون الفرص لهذه الألطاف الودية، وهى أثمن ألف مرة من تلك الهدايا الفاخرة التى يضفعها الإعجاب ويتبعها المن فتنال من كرامتنا وعزتنا.

أنحيت على تلك العقدة بالقُبل، واستنشيت فى كل قبلة ذِكرى ما نعمت

---

(١) الجمام: الراحة.

(٢) لزق باللحم من الهزال.

به فى تلك الأيام السعيدة على قصرها من غفلات العيش ولحظات الأنس؛ تلك الأيام التى لا تشرق فى سماء العمر إلا مرة!

كذلك يا وليم أزهار الحياة لا تُعَمَّر طويلًا، وإن كثيرًا من تلك الأزهار ما يذوى فلا يترك أثرًا، وإن قليلًا منها ما يصلح فينتج ثمرًا، وقليل من ذلك الثمر ما يبلغ يوم نضجه ويَنْعِه. على أنه بقى من تلك الثمرات ما يكفى. فمن ذا يستطيع يا صاح أن يطوى كشحه عن هذه الثمار اليانعة فيدعها تعطب دون أن يتمتع بها وينعم؟

وداعًا يا أخيَّ! إن الصيف عندنا جميل بهي! ولله ما أجملَ أن أتسلق الشجر فى بستان شرلوت وفى يدى مِجْناة أو عصاة طويلة فأرمى بها ما على الأغصان من الكمثرى وهى واقفة أسفل الشجرة تلقف بيديها ما يسقط من الثمر!!

٣٠ أغسطس

ويلك أيها البائس! لعل بك مسا من خبال! ألست تخدع نفسك بنفسك؟ إلى أين يقودك هذا الهوى المبرّح الذى استحكمت قيوده وتباعدت؟

أصبحت يا وليم لا أرفع الصلاة إلا لها، ولا أتخيل إلا صورتها وشكلها، ولا أنظر ما حواليّ من الأشياء إلا مضافًا إليها ومرتبطًا بها. وتلك حال تشعر النفس بالسعادة حينًا. فإذا ما نُزِعت من جوارها، وحيل بينى وبين استحضارها، فلا تسل عما يملأ العين ظلامًا ويفعم القلب وحشة! أواه يا وليم! لو كنت تدرى أين يذهب القلب بأخيك فى أكثر أمره؟... حينما أجلس إليها ساعة أو ساعتين أمتع العين بقسامة وحهها ورشاقة حركاتها؟ وأشنف الأذن برقة عبارتها وعذوبة كلماتها، تشعر مداركى شيئًا فشيئًا

بتوتر شديد وضغط عنيف، فيظلم بصرى، ويثقل سمعى، وأحس خناقى يضيق كأنما أخذت به يد قاتل، ويشتد وجيبه، ولا يزيد الأمر إلا اضطرابًا وقلقًا. فى أكثر أيامى لا أدرى يا وليم أفى هذا العالم أنا أم فى غيره. نعم أعرف نفسى، ويثوب إليَّ حسى، إذا كظَمنى الحزن، ولاع قلبى الهم، ولم أظفر من شرلوت بقليل عزائها، فلا أغمر يديها بسيل دموعى، ولا أخفف بحديثا حر ضلوعى، حينئذ أهيم على وجهى فى الحقول والأودية، وأجد من اللذة أن أتسلق جبلًا صعب المرتقى، أو أعمَه[1] فى جوف غابة مُضلة، زو أخبط فى وسط الأدغال الشواجن[2]، فيدمى الشجر جسمى، ويمزق الشوك قدمى، وهنالك أحس بشيء من الراحة قليل. وكم مرة تعد بى الإعياء والظمأ فى الطريق فأستلقى على الحصباء، أو أجلس تحت الليل فى الغابة المقفرة على جذع شجرة عوجاء! أجلس يا وليم لأهاون قليلًا رجلى المرضوضة والبدر فى كبد السماء يتلألأ فوق رأسى، فتأخذنى عيناى فى ذلك الضوءالمريب فأنام نوم اللاغب القلق!

أواه يا وليم! إن الاعتكاف فى حجرة ضيقة موحشة، والتمطُّقَ[3] بمنطقة ذات أشواك حديدية قائمة، وتعذيب الجسم بالأسنة الحادة النافذة، لأَرْوَحُ لنفسى من هذا العذاب الذى يذيبها ويضويها

وداعًا يا وليم! إنى لا أرى لهذا الشقاء المبرم غاية إلا القبر

---

(١) أتيه وأضل.

(٢) شد الوسط بالمنطقة (الحزام).

(٣) النبات الطويل الملتف المتشابك.

٣ سبتمبر

أجل! ليس من السفر بد! والحمد لله على أن أخرجْتنى من عماية الحيرة إلى نور اليقين، فقد مضى عليّ خمسة عشر يومًا وأنا أُفكر فى تركها. ذلك أمر محتوم. لقد ذهبت إلى المدينة ثانية تزور إحدى صواحبها... و... لا بد من السفر!

١٨ سبتمبر

لَشَدَّ ما أُكابد الليلة يا وليم! على أننى الآن أستطيع أن أتحمل كل شىء. إننى لن أراها بعد! وليتنى أطير إليك، فأرتمى بين ذراعيك، لأشرح لك بانفعالاتى القاتلة، ومدامعى الهاطلة، ما هاجم قلبى وتشعّب خاطرى من العواطف! أنا أتململ أرقًا وقلقًا، أستنشق الهواء فلا أجده، وألتمس العزاء فلا أناله، ولا أنتظر غير الإصباح، فإن الخيول ستغدو عليَّ مطلع الشمس. والهَفْ نفسي! إنها نائمة نوم الخليّ الهادئ لا تعلم أنها لن ترانى عَوْض[1].

فارقتها الليلة مرغمًا بعد ساعتين قضيناها فى الحديث ملكتُ فيهما نفسى، وكظمت على جِرَّتى حتى لا ينم ظاهرى بما أقصد. وذلك أن ألبير وعدنى أن يكون هو وشرلوت فى الحديقة بعد العشاء توًّا، فسبقتهما إليها؛ ووقفت على مَشْرَف تحت سرحتين من شجر القسطل أشيّع آية النهار ببصرى وهى تغرب لآخر مرة على مرآيَ خلف ذلك الوادى الضاحك وهذا النهر الهادئ. ولكم وقفت أنا وهى فى هذا المكان جنبًا إلى جنب نطالع معًا هذا المنظر الجميل! أما الآن.....!

كنت أتمشى فى ذلك الممشى العزيز عليَّ قبل أن أعرف شرلوت فتحبسنى فيه أكثر الأحايين جاذبية خفية. فلما تعارفنا كان سرورنا باجتماع

(١) ظرف مختص بالنفى بمعنى أبدًا وهو لاستغراق المستقبل فقط.

هوانا على تفضيله عظيمًا. والحق الذى لا مرية فيه أنه أشد ما رأت عينى جمالًا وسحرًا. تجد لأول وهلة بين أشجار القسطل منظرًا واسعًا ممتدًا. وقد أذكر أنى وصفت لك فى رسائلى كل هذا: وصفت لك كيف يجد المرء نفسه إذا ما تقدم محصورًا بين صفين من أشجار الزان الباسقة، وكيف يدْهامُّ[1] الممشى قليلاً قليلاً بالخضرة النضرة كلما خاض فى أحشاء الأجمة المتصلة به، ثم ينتهى كل ذلك بسور صغير تشعر عنده بسحر العزلة وتأثير الوحدة.

لا أزال أشعر بذلك التزثر الذى أحسسته حين دخلت هذا المكان أول مرة أستجير به من حر الظهيرة. فقد خيل إليّ أن هذا المكان لى مألف ومعهد؛ وأحسست أنى فى هذا الموضع سأشرب إما شهد الحياة وإما صاب الموت!

مضى عليّ نصف ساعة وأنا أغذى النفس بهذه الخواطر الحلوة المرة، خواطر الاجتماع والافتراق، وقد ذهلت عن كل شىء، حتى سمعت وقع أقدامهما صاعدين إلى المشرف، فدلفت إليهما مسرعًا، وتناولت يد شرلوت مرتجفًا وقبلتها. ثم صعدنا جميعًا إلى المشرف، وما عدوناه حتى رأينا القمر بازغًا وراء الهضبة الشجراء، فمشينا نتساقط الحديث فى موضوعات مختلفة حتى بلغنا الأجمة المظلمة، فولجتها شرلوت ثم جلستْ، وجلست أنا وألبير إلى جانبها. ولكنى كنت من الاضطراب بحيث لا أستقر فى مكان، فنهضت ووقفت إزاءها ثم مشيت طولًا وعرضًا ورجعت فأخذت مجلسى. تلك كانت حال اضطراب وهمّ لا يطمئن عليها الخاطر ولا تهدأ فيها النفس.

لفتتنا شرلوت إلى جمال ضوء القمر، وقد أنار أمامنا الممشى كله إلى

---

(١) يسود قليلًا قليلًا.

أقصى أشجار الزان، فإذا منظر رائق يملك الأبصار ويخلب الأفئدة؛ وقد زاده أثرًا وروعة أن ما حولنا كان فى ظلمة حالكة. سكتنا هنيهة ثم بدأت شرلوت الحديث قائلة: «ما مشيت ليلة فى ضوء القمر إلا تذكرت من مات من أهلى، وتفكرت فى أمر الموت والحياة الأخرى. إنا سنحيا ثانية، ولكن ليت شعرى يا ڤرتر هل نترائى ونتعارف؟ ما رأيك فى هذا الأمر وماذا عن حسِّك منه؟» قالت ذلك بلهجة سامية مؤثرة. فقلت لها وقد اغرورقت عيناى بالدمع: سنتراءى يا شرلوت! أجل سنتراءى فى الحياة الدنيا وفى الآخرة. ثم لم أستطع أن أيد على ما قلت حرفًا.

لِمَ سألتنى يا وليم هذا السؤال على حينَ يملأ قلبى هم الفراق ولوعة النوى؟ استمرت شرلوت تقول: «وهل يعلم أحباؤنا الذين فقدناهم من أمورنا شيئًا؟ هل يشعرون بسعادتنا إذا سعدنا! وهل يدرون أننا نذكرهم بلسان وامق وقلب مشُوق؟ آه! إن خيال أمى لا يبرح طائفًا حولى كلما جلست فى تلك الليالى الهادئة وسط أطفالى وأطفالها، وقد ازدحموا من حولى كما كانوا يزدحمون من حولها، فأرفع إلى السماء طرفى المخضل بدموع الأسف، وأتمنى لو تستطيع أمى أن تلقى علينا نظرة من وراء الحجب فترى كيف قمت بما وعدتها ساعة احتضارها من أن أكون لأطفالها أُمًّا؛ ثم أهتف بها قائلة: مغفرة يا أمى المحبوبة إذا لم أكن ما كنتِ. على أننى قد بذلك لهم ما أستطيع؛ فهم مكسوون مغذوون فضلًا عن أنهم مدلّلون محبوبون. لو كنت تستطيعين أيتها القديسة العزيزة أن ترى فى أى مجتمع نحن نعيش. إذن لشكرت الله وحمدتِه على أن استجاب دعاءك وتقبل بكاءك، فبسط على أطفالك جناح رحمته، وأضفى عليهم ثوب نعمته وبركته».

قالت ذلك يا وليم! ومن يستطيع أن يعيد إليك ما قالت؟ وهل فى مقدور تلك الأحرف الباردة الجامدة أن تعبر لك عن هذه الزهور السماوية لتلك النفس الملكية.

تحرَّك ألبير فقطع عليها الحديث بقوله: لقد هاج الأدّ كار أشجان نفسك يا شرلوت. أنا أعلم منزلة هذه الذكريات من قبلك، ونصيبها من حبك، إلا أنى أتوسل إليكِ.... فقاطعته شرلوت قائلة: «إنك لم تنس يا ألبير هاتيك الليالى التى كنا نقضيها جالسين جميعًا حول المنضدة الصغيرة المستديرة، وأبى غائب عنا فى سفره، والأطفال قد أووا إلى مضاجعهم، وقد كنت تحمل معك فى أكثر الليالى كتابًا مفيدًا تقرأ لنا فيه، فيلهيك عن القراءة حديث تلك المرأة المحبوبة الذى يمتزج بالقلوب ويسرِّى عن الخواطر. ألم يكن حديثها العذب أفضل من كل شىء؟ لقد كانت جميلة وديعة طربة نشيطة. ولا يعلم إلا الله تلك الدموع التى كنت أذرفها حين آوى إلى مخدعى جاثية إلى الله مبتهلة إليه أن يجعلنى شبيهة بها!».

فخررت ساجدًا على قديمها، ورويت بمدامعى يديها، وقلت يا شرلوت: «لتحل عليك وفيك بركة الله وروح أمك!» فضغطت يدى بيدها وهى تقول: «آه لو كنت عرفتها! لقد كانت خليقة بأن تعرفها»، فأحسست أنى أذوب وأفنى تأثرًا من هذه الجملة. فإنى ما سمعت تقريظًا لنفسى هو أسمى وأجل من هذا. ثم سارت فى حديثها تقول: «لقد عجلت إليها المنية وهى فى ريِّق الشباب وزهرة العمر حين لم يكن لأصغر أولادها إلا ستة أشهر. كان مرضها قصيرًا، وكانت هادئة مستسلمة لا يحزنها غير أمر أطفالها ولا سيما الأصغر. ولما زهفت إلى الموت قالت لى: إئتينى

بهم، فأتيت بهم إليها، فأما الصغار فما كانوا يعلمون شيئًا، وأما الكبار فقد أذهلهم الموقف ودلههم الحزن فوقفوا جميعًا حول سريرها. فرفعت يدها إلى الله ودعته لهم وباركت عليهم ثم قبلتهم واحدًا بعد واحد وأرسلتهم؛ ثم قالت لى: «أوصيك أن تكونى لهم أمًّا» فوعدتها بذلك. فقالت: «حمَّلت نفسك يا بنيتى بهذا الوعد كثيرًا، فإنكِ لا تدرين ما قلب الأم وما عينها؛ ولكن دموع الشكران والامتنان التى طالما سكبتها أمامى تدلنى على عرفانك معنى الأمومة، وتقديرك عاطفة الحنان. فهبَى لبنى أمك ذلك القلب الرءوم وتلك العين الكلوء[1]، وامنحى أباك إخلاص الوفى وطاعة الزوجة، فإن فيك سلوته وعزاءه».

ثم طلبت أن تراه، وكان قد خرج ليخفى عنا ألمه الذى عجزت مُنَّتُه عن احتمال. والهف نفسى عليه! لقد كان الهم يستوقد صدره والألم يمزق أحشاءه. وقد كنتَ يا ألبير فى الغرفة، فسمعت خطاك فسألت من أنت. ولما عرفتك أدْنتك، ثم نظرت إلينا نظرة تنم على ما فى نفسها من الطمأنينة والأمل فى أنا سنكون سعيدين معًا. فطوقها ألبير بذراعه وقبلها قائلًا: «أجل إنا سعيدان، وسنظل كذلك إلى الأبد!».

«وكان على ما تعهده فيه من رزانة وورصانة وهدوء، مشترك العقل ذاهب اللب. أما فقد ضاع رشدى وغاب صوابى. فانظر يا ڤرتر كيف نفقد هذه المرأة إلى الأبد!! إن من الصعب على النفس أن ترى أعزاءها وأحباءها يغوصون فى بحر البلى ويقبرون فى ظلام العدم. وأشد الناس إحساسًا بذلك الأطفال، فإن إخوتى لبثوا بعدها طويلًا يألمون ويشكون من «أن الرجال السود[2] قد خطفوا ماما».

---

(١) الراعية الواعية.

(٢) يريدون الكهنة.

ثم وقفت بالحديث عند هذه الجملة وانتصبت واقفة، فشعرت كأنى صحوت من حلم، وأحسست أنى مضطرب المشاعر مبلبل الخاطر، فبقيت جالسًا قابضًا على يدها. فقالت: «هيَّا بنا، فقد آن لنا أن نعود»، وأرادت أن تجذب يدها إليها فأمسكتها بقوة ثم قلت: «إنا سنتراءى، ونتلاقى، ونتعارف على أية صورة تكون».

أنا مسافر بطوعى واختيارى، ولكنى كلما تذكرت أن ذلك الفراق إلى الأبد ضاق ذرعى باحتماله.

وداعًا يا شرلوت! وداعًا يا ألبير! إنا سنتلاقى... فقالت بلهجة المازح الطرِب: «غدًا أظن؟» فأثار كلمة الغدر فى نفسى شعورًا غريبًا لا قبل لى بتصويره. وأسفاه! إنها كانت تجهل ساعة جذبت يدها من يدى أن... لقد هبطا إلى الممشى وبقيت جامدًا أنظر إليهما يبعدان شيئًا فشيئًا فى ضوء القمر. ثم ارتميت على الأرض واستسلمت للعبرات ففاضت شئونى وسحَّت جفونى. ثم نهضت بغتة وعدوت إلى آخر المشرف واطلعت فرأيت ثوبها الأبيض يلمع فى ظلام الزيزفون الباسق وقد بلغت بابا الحديقة. فبسطت ذراعيَّ، وتدفقت عواطفى من عينيَّ، ولكنها توارت!

الجزء الثاني

بلغت ذلك البلد أمس فوجدت السفير معتلًا، ولا يغادر الفراش إلا بعد بضعة أيام. لو كان ذلك الرجل على شيء من سماحة الخلق ورقة الحشاية لسار الأمر على ما أحب. إن المقدور يدخر لى فى بطون الغيب ما شاء من أرزاء ومحن؛ ولكن الله يرزقنى الجلَد ويلهمنى الصبر. والمرء بشيء من قلة الاهتمام يستطيع أن يتحمل كل شيء. قلة الاهتمام!! يضحكنى أن تسيل هذه الكلمة من يراعى، وهى لو كانت من خلقى لكنت اليوم أسعد من تظله السماء.

واعبجا! بينما أرى كثيرين حولى سعداء بكفافهم، يتبجحون بكفايتهم القليلة، ويفخرون بقرائحهم العليلة، أقنط أنا من قواى وأيأس من مواهبى! اللهم يا من حبانى تلك القوى ومنحنى هذه المواهب! لِمَ لْم تسلبنى شطرها وبتدلنى بها ثقة النفس وراحة الفكر وهدوء البال؟ صبر جميل! فسيعذب الوِرد ويحمد الصَّدَر. قد أدركت صحة رأيك فيما قلت يا صديقى، فإنى منذ ألقيت نفسى فى غمار هؤلاء القوم، ورأيت ما يعملون وكيف يعملون، رضيت عن نفسى وسررت بحالى. لا مرية أننا ما دمنا مفطورين على أن نقارن كل شيء

بأنفسنا، ونقارن أنفسنا بكل شيء، فسعادتنا أو شقوتنا تتعلق بتلك الأشياء التى نرتبط بها ونقارنها. ولذلك كانت العزلة أشد الأحوال خطرًا علينا وأكثرها ضررًا بنا، فإن مخيلتنا الوتابة بغريزتها إلى دَرَج الكمال، المهتاجة بما يغذيها الشعر من صور الخيال، تتصور طبقات الناس كالمدرَّج ثم تجعلنا فى الدركة السفلى منه؛ فيخيل إلينا أن كل شيء ما عدانا أحسن وأجمل، وأن كل إنسان سوانا أفضل وأكمل.

ذلك أمر قام عليه برهان الطبع؛ فإنا كثيرًا ما نشعر بنقصنا وحاجتنا، ونظن أن مانقصناه أو فقدناه يملكه إنسان آخر، فنخلع عليه كل ما نلبس ونسدى إليه كل ما نملك، ثم نتوج ذلك العمل بسعادة خيالية وراحة وهمية تصرف عنه فكرة الإعنات والجهد. وعلى ذلك تجد هذا المخلوق السعيد قد أصبح جَّماع الفضائل التى خلقناها بأنفسنا وأوجدناها.

ونقيض ذلك أنا إذا سرنا فى عملنا غير وانين ولا لاهين وجدنا أنفسنا على الرغم من مصاعبنا وضعفنا قد شأونا الآخرين ونحن نسير الهوينا وهم يسيرون بالشراع والمجداف.

وجملة القول أن المرء لا يعرف قيمة نفسه بالحق إلا إذا جارت أندادها فى مضمار الحياة فلحقتهم أو سبقتهم.

٢٦ نوفمبر

بدأت أجد عبء الحياة بالنسبة إلى ما مضى ميسور الحمل، وأرى فى كثرة العمل شاغلًا عما بى، وأبصر فى تعدد الأشخاص وتجدد الصور مناظر جديدة متنوعة تسلى النفس وتسرّى الهم.

قد عرفت الكنت د. ج. وهو رجل تزداد له إعظامًا وتجلّة كلما ازددت عرفانًا به وخبرة. واسع الاطلاع عميق الفكر غزير المادة، إلا أنه على ذلك غير بارد ولا ثقيل. يريك حديثه رقة شعوره وصلاحية نفسه لغراس الصداقة والحب. جذبه إلى أنى فاوضته ذات يوم فى أمر كلفت أن أفاوضه فيه، فرأى من كلماتى الأُوَل أننا متفاهمان متفقان، وأنه يستطيع أن يكلمنى بغير ما يكلم به دهْماء الناس. ولا يسمح لى حيائى أن أتمدح بما يعاملنى به من صدق الإخلاص وصراحة اللهجة. والحق الذى لا مرية فيه أنك لا تجد فى العالم لذة أصدق، ولا مسرة أقوى، من أن ترى قلبًا خالصًا ينفتح أمامك، ونفسًا كبيرة تنكشف لك.

٢٤ ديسمبر

طالما آلمنى هذا السفير وغمنى، وذلك ما كنت أتوقعه. إنه رجل مأفوك مُماحك يعييك أن يتعابك على ما تريد. لا يتقدم إلا خطوة خطوة؛ ثم يتكلف فى قوله، ويدقق فى فعله، دأب العجوز الثرثارة؛ ومحال أن يرضى نفسه أو يرضيه غيره. أحب أن أسير على سجيتى فى العمل، وأجرى على إلهامى فى الكتابة، فأكتب ما أكتب دون تَعَمل ولا تنقيح. ولكنه يرده إى مشفوعًا بتقرير وتعزيز كقوله: «إنه حسن، ولكن أعد نظر كفيه، فإن الباحث لا يعدم عبارة أحسن، ولا أداة أدق» فأود حينئذ لو تخطفَّنى الطير أو تهوى بىَ الريح فى مكان سحيق! إنه لا يريد أن ينسى علامة وقف، ولا عالمة وصل؛ وهو زَدُّ العداء للتقديم والتأخير فى الكلام كما يقع منى فى الغالب. فإذا لم

تكن الجمل جارية على سَنَنِ التقليد، مسوقة على أسلوب الديوان، استبهم عليه اللفظ واستغلق دونه المعنى. إن العمل مع أمثال هذا الرجل لَحُمَّى الروح وأذى القلب. على أن فيما يبديه إليَّ الكنت د.ج. من الثقة بى عوضًا عن كل هذا. ولقد صارحنى منذ أيام بسخطه على هذا السفير لتلكؤه وتنطُّعه وقال: «إن هؤلاء الناس يكدرون صفو الحياة على أنفسهم وعلى الناس؛ ولكن لا بد أن نلبسهم على خشونتهم، ونسيغهم على كدروتهم، كالسائر يعترضه الجبل فلا يجد بدًّا من اجتيازه. لا ريب أن الطريق بغير هذا الجبل يكون أجمل وأسهل وأنضر، ولكنه كان ولا بد من اختراقه.

فطن هذا السياسى المتحذلق إلى أن الكنت يؤثرنى عليه فورم لذلك أنفه، وأخذ يتحين الفرص ليذكره بالسوء لديّ، فأتصدى للدفاع عنه فلا يزداد إلا حنَقًا ومَوْجدة. لقد استوقد غضبى بالأمس إذ رمانى أنا والكنت بحجر واحد. قال لى: «إن الكنت متقلب فى فنون السياسة، متصرف فى ضروب الكتابة، متدرب اليد على العمل، ولكنما يعوزه الرسوخ فى العلم والضلاعة فيه، وتلك الحال الأدباء أجمعين»، ألقى هذه الكلمات بلهجة وهيئة تعبر عنهما هذه الجملة: «هل تشعر بهذا السهم؟» على أنه سهمه قد طاش وسيفه قد نبا. فإنى أحتقر من يفكر ويعمل على نحو ما يفعل هذا الرجل.

رددت عليه قوله غضبان محتدًّا بأن الكنت أَقْمَنَ بكل إعظام وتجلّة السمو أخلاقه وسعة مداركه، ولم ترعينى رجلًا مثله قد وسع فكره بأشتات العلوم، وملأ ذهنه بمختلف الأشياء، دون أن يفقد نشاطه للأعمال العادية.

ولكن هذا الكلام كان على ذهنه المغلق وفكره البليد أشبه بالعبرية أو الجبر. ثم انصرف خشية أن يطيل فى هذا الهُراء فيُمكُّ روحى ويفتُّ كبدى. هذه جريمتكم أيها الذين أكرهتمونى على حمل هذا النير بإلحاحكم عليّ بالاشتغال ونصحكم إليّ بالعمل. وأى عمل فى هذا؟ أنا أجدِّف[1] عشر سنين دأبًا فى هذه السفينة الملعونة التى قُيدت بها إذا لم يكن الرجل الذى يزرع البطاطس ويذهب على جواده إلى المدينة ليبيع ثمره أبلغ منى سعيًا وأكثر عملًا.

ناهيكم بهذا الشقاء البراق وتلك الإقامة المشئومة بين هؤلاء الأوغاد الذين يتفانون فى السبق، ويتهالكون على التقدم، ويرائى كل منهم الآخر ويتسقطه ليتقدم عليه خطوة، أو ينال دونه خطوة.

إن أسفل الشهوات وأحقر الأهواء لتتجلى فى هذه البيئة من غير نقاب ولا حجاب. وأذكر لك على طريق المثال امرأة من نساء هذا البلد لا تفتأ تحدث الناس عن شرف أصلها واتساع أراضيها حتى لا يتمالك من لم يعرفها أن يقول فى نفسه: «ما لهذه البلهاء تستطيل عُجبًا وتميس اختيالًا بكرم مولدها وشهرة ضياعها؟» ولكن أفظع من ذلك وأشنع أنها لم تكن إلا بنت أحد كُتاب المحكمة فى الضواحى!

أنا لا أفهم كيف تبلغ البلادة والغفلة بالجنس البشرى أن يهبط إلى هذا الدرك الأسفل من الضعة. تزيدنى الأيام علمًا يا صديقى أن من الحمق أن يقيس الإنسان غيره على نفسه. كل له فى نفسه

(١) يشبه نفسه فى عمله الشاق بالمجرمين الذين كانوا قديمًا يعاقبون بالتجديف فى سفن الحكومة Galéres de l'Etat أزمنة مختلفة.

ملهاة ومشغلة. وإن أشد ما يشغلنى لهو تهدئة قلبى الثائر وتسكين نفسى المضطربة. ما لى وللناس؟ لا جرم زنى أدعهم يسيرون كما يشاءون ما داموا لا يفقون فى سبيلى، ولا يسعون فى تضليلى. على أن آلم الأشياء لنفسى، وأشدها إثارة لحنقى، ذلك التمايز القبيح بين طبقات المجتمع. أجل إنى زعلم ما يعلمه الناس من ضرورة هذا التباين وما يجديه علينا من النفع، ويسديه إلينا من الخير. ولكنى لا أريد أن يكون عقبة كأداء فى سبيل القليل من السعادة التى يستطيع المرء أن يتذوقها فى هذه الحياة.

عرفت منذ قليل فى بعض متنزّهاتى الآنسة .ب. وهى فتاة رقيقة الشمائل أنيسة الطلعة، قد سار أكثر أخلاقها مع الطبع فى وسط هذه الخلائق المتصنعة والخلال المتكلفة. تحادثنا فأعجب كل منا الآخر. ولما صافحتنى للوداع استأذنتها أن أزورها فسمحت بذلك عن فضل واسع ونفس طيبة، حتى لم أستطع تأخير الزيارة إلى الوقت الملائم إلا بعد لَأْى.

لم تكن الآنسة من هذه المدينة، وإنما كانت تقيم عند عمة لها شمطاء لم تقع من قلبى موقعًا حسنًا. على أننى بالغت فى الالتفات إليها وأقبلت بأكثر الأحاديث عليها، فخررت من أمرها فى أقل من نصف ساعة ما كاشفتنى به الحفيدة بعد.

علمت من حال هذه المرأة أنها لم تجد فى شيخوختها عطفًا من الناس ولا ولاء، ولم تملك على الكبَر ثراء ولا ذكاء، فلم يكن لها سند غير أثيل منبتها وكرم نسبها، ولا مأوى غير سياح من الشرف

ضربته من حولها، ولا لذة غير أنترمى الناس بنظرات الاحتقار من طنُف بيتها. وقد قيل إنها كانت فى شبابها جميلة، وإنها قضت عمرها الأول فى السرف والترف فعذبت بدلالها وتجنِّبها كثيرًا من الفتيان المساكين. ولما ذوى شبابها وتصوَّح وضعت عن منكبها رداء الزهو وبذلك مقادتها لضابط هرم فجازها على استكانتها وطاعتها بالعيش معها عهد الكهولة حتى غلبها الموت عليه فعاشت فى برودة الشيخوخة منبوذة وحيدة. ولولا دماثة طبع الحفيدة ما التفت إلى العجوز أحد.

٨ يناير سنة ١٧٧٢

عجبًا لأولئك القوم الذين يتشبثون بالمواضعات، ويتعلقون بالرسميات فيصرفون عقولهم وجهودهم طول السنين فى استنباط الوسائل للانتقال من كرسي[١] متأخر إلى كرسى متقدم على المائدة! لا تحسبن اشتغالهم بتلك المحاقر لأنهم لم يجدوا ما يشتغلون به، فإن اهتمامهم بهم وانصرافهم إليها أذهلهم عن إنجاز الأعمال الخطيرة المتراكمة لديهم، وعاقهم عن تأدية الأمور الكثيرة الواجبة عليهم.

كنا فى الأسبوع الماضى فى سباق على الجليد بالزحافات، فحدث من تنافس القوم فى التصدر، وتكالبهم على التقدم، شجار عنيف كدر صفو الحفلة وأفسد نظام السباق. ألا يعلم أولئك الحمقى

(١) من قواعد المدنية الغربية أن يجلس الناس على كراسى المائدة على حسب أقدارهم فمن كان أدنى إلى رئيس المائدة كان أدنى إلى الصرف من غيره.

أن قيمة المرء بما يعمله، وأن عظمة المنصب فيمن يشغله، وزن الأقدار لا تقاس بالرتب ما دمنا نرى ذوى المراتب الرفيعة، لا يقومون فى الأكثر بالأعمال الوضيعة؟ كم ملوك يقودهم الوزراء! وكم وزراء يقودهم الكتاب! فقل لى بربك أى الثلاثة أرفع شأنًا وأسمى مقامًا إن أرفع هؤلاء على ما أرى من كان أبعدهم فى المشكلات نظرًا، وأثقبهم فى الملمات فكرًا، وأقدرهم على أن يستخدم بحوله وحيلته قُوى الآخرين وأهواءهم فى تنفيذ أغراضه وتحقيق مقاصده.

٢٠ يناير

الآن أكتب إليك ولا بد يا عزيزتى شرلوت فى فندق حقير خارج المدينة قد لجأت إليه من تغير الجو واختلاف الهواء. وقد قضيت زمانًا فى هذه المدينة الكالحة مدينة. د. وأنا هائم بين قوم غرباء عنى لا تجمعنى وإياهم عاطفة، ولا تدنيهم من قلبى مودة، وما شعرت لحظة واحدة بالحاجة إلى الكتابة إليك. ولكنى لم أكد أحل هذا الكوخ الضيق المنعزل وأرمى قطع الثلج وحبات الَرَد تسفع نافذتى الصغيرة حتى كنت أول فكرى ومبدأ خاطرى. أجل يا شرلوت! لم أدخل فى هذا المكان حتى تمثلت صورتك وذكراك فى ذهنى، فاستولتا على نفسى وهاجتا فى قلبى شعورًا ساميًّا وأثرًا عظيمًا.

لك الحمد يا الله! تلك أول مرة ظفرت فيها بلحظة من لحظات السعادة الأولى! آه! لو كنت رأيتنى يا حبيبتى وأنا سابح فى لجج الذهول والغفلة، ورأيتِ كيف ذوى كل شيء فى نفسى وجف!

لم يبق لى لحظةمن تلك اللحظات التى تفيض على القلب الحياة

والقوة، ولا ساعة من تلك الساعات التى تشعر النفس بالسعادة واللذة! هيهات لم يبقى من ذلك شيء!! ويخيل إليَّ أنى ماثل أمام مشهد من خيال الظل أرى رجالًا صغارًا وخيولًا صغارًا يمرون أمام عينى سراعًا. فأسأل نفسى: «أما ذلك وهمْ مجسَّد منظور؟» على أننى أمثِّل دورى بنفسى مع هؤلاء الأشباح؛ وبالحرى هم يتخذوننى لعبة تتحرك بإرادتهم. وكثيرًا ما تناولت يد جارى فأجدها خشبة فأتراجع فزعًا مرتاعًا!

وعدت نفسى فى الليل أن أسرها برؤية الشمس بازغة؛ فلما دنا الصباح لم أستطع أن أقطع العزم على ترك السرير. وفى النهار منّيتها أن أمتعها بمنظر القمر مضيئًا؛ فلما أقبل المساء لم أجد ما يحملنى على ترك الغرفة. أنا لا أعلم يقينًا لماذا أستيقظ ولماذا أرقد! لقد عدم ذلك العنصرُ الذى كان يبعث فى نفسى الحياة والحركة، وفنى ذلك السحر الذى كان يعقد طرفى بطرفى النجم فى جوف الليل، وينزعنى من أحضان الكرى فى غرة الصباح.

لم أجد فى هذا البلد من يستحق أن يدعى امرأة غير الآنسة ب. إنها تشبهك يا عزيزتى شرلوت لو كان فى الإمكان أن يعلق بك شبَهٌ أو يوجد لك مثال. الآن تقولين متعجبة: «ها هو ذا أيضًا قد أخذ يسلك سبيل المجاملة والملاطفة!» إنك إذا قلت هذا لا تبعدين كثيرًا عن الحق. فقد أصبحت منذ زمن حلو المعاشرة بارع الظرف لأنى لم أستطع أن أكون غير ذلك. فأنا فى الحديث يقظ الفؤاد سريع الفطنة. ويقول السيدات إنى أقدر الناس على تدبيج المدح وتنسيق الثناء

(أضيفى إلى ذلك أنى أقدرهم على الكذب؛ فإن المرء كما تعلمين لا يجيد المدح إلا به).

كنت أريد أن أحدثك عن الآنسة .ب. وعن نفسها الجميلة الجليلة التى تتمثل بأسرها فى عينيها الزرقاوين. إن مقامها السامى عبء ثقيل عليها، لأنها لم تبلغ به رضا القلب ولا روح الضمير. ترغب فى الخروج عن هذه الضوضاء إلى الخلاء وسكونه. وكم ساعة قضيناها بين الحقول ننشد السعادة الخالصة والسرور المحض! وقد كان ذكرك يا شرلوت ريحانة المجلس ورُوح الحديث. آه! كم مرة أجبرتها على إكبارك وإجلالك! أستغفر الله ما أجبرتها ولا أكرهتها؛ إنما تجلك من ذات نفسها عن طوع وإيثار: إنها تحبك، ويسرها أن تسمع الأحاديث عنك: آه! ما أشوق القلب إلى جلسة من تلك الجلسات بين يديك فى تلك الغرفة العزيزة الصغيرة وأطفالنا الأعزاء يطفُرون حولى من المرح! لقد كنت إذا ما برمت أنت بضوضائهم أجمعهم ثم أحملهم على السكون والسكوت بحكايات مؤثرة مخيفة!

الشمس تغرب فى جلال وبهجة وراء التلاع[1] البراقة ببياض الثلج، والعاصفة قد هدأت؛ وأنا؛ لا بد أن أعود إلى قفصى ـ استودعك الله ـ آلبيرُ بالقرب منك؟ وكيف؟ غفر الله لى هذا السؤال.

٨ فبراير

مضت ثمانية أيام والرياح عاصفة والسحب واكفة. وتلك حال

(١) التلاع جمع تلعة وهى القطعة المرتفعة من الأرض.

تسرنى وترضينى. لزنى منذ حللت هذا البلد لم يطلع عليَّ نهارٌ ضاح جميل، إلا كدَّره أو سممه عليَّ ثقيل. أما الآن فالسماء إذا أمطرت أو أثلجت، والأرض إذا جَلدت أو ذاب جليدها، قلت فى نفسى: «لا بأس! ليس الأمر فى البيت بأردأ منه فى خارجه».

إذا أسفر طلوع الشمس عن يوم صحو لا أتمالك أن أصيح: هاك نعمة من الله سيسلبها كل من كل، وينغصها بعض على بعض! ليس فى العالم شيء لم يتحاسدوا عليه ولم يتنازعوه: صحة وسمعة ومسرة وراحة! وأغلب ما يصدر ذلك منهم عن سخافة عقل وقصر نظر وضيق فكر. ولئن سألتهم عن ذلك ليَقولُنَّ إنما فعلناها عن نية حسنة وطوية خالصة. إنه ليقوم بنفسى أحيانًا أن أجثو أمامهم تضرعًا إليهم ألا يمزقوا أحشاءهم، وألا يحرقوا دماءهم، بذلك الإسراف فى الغضب.

١٧ فبراير

أخشى ألا أستطيع البقاء مع السفير طويلًا. فإن هذا الرجل ثقيل لا يحتمل، وطريقته فى العمل وفى إدارته سخيفة مضحكة، حتى لَيُعْوِزنى الصبر فأسفهه وأفنده، أو أقضى الأمر على ما أرسمه وأقصده، وذلك بالطبع لا يرضيه. شكانى أخيرًا إلى البلاط فوبخنى الوزير توبيخًا لينًا رقيقًا إلا أنه على كل حال توبيخ. فهمت أن أستقيل لولا أن أُلقىَ إليَّ كتاب خاص من الوزير لم أتمالك حين قرأته أن جثوت إجلالًا لما فيه من عاطفة سامية وحكمة بالغة: لا منى فيه على فرط انفعالى وشدة تأثرى، ولم ينكر عليَّ أفكارى الحماسية

المتطرفة، لا هيمنتى على غيرى من العالمين، ولا طمعى أن أنال مكانة ظاهرة فى العمل، بل عزا كل ذلك إلينشاط الشباب المحمود؛ ولم يرد أن يكسر من شِرّته، وألا يخفف من حدته، بل أراد أن يلطفه ويعطفه إلى الغاية التى يحسن فيها استعماله، ويحمد عندها مآله.

بعث فيَّ هذا الكتاب قوة الصبر على ثمانية أيام أُخَر؛ وجعلنى بعد ذلك على وفاق وسلام مع نفسى... إن رخاء البال ورضا المرء عن نفسه لهما الفوز العظيم والسعادة الحق. آه يا صديقى لو لم تكن هذه الحِلية هشة للكسر على قدر جمالها ونفاستها!

٢٠ فبراير

بالرفاء والبنين يا حبيبيَّ العزيزين! بارك الله عليكما ومتعكما بما حرمنى إياه من الأيام السعيدة والعيش الرفيع؟

لك الشكر يا ألبير على خديعتك إياى، فقد كنت أنتظر إعلان يوم زواجكما، وكان فى عزمى ذلك اليوم أن أرفع صورة شرلوت من الحائط باحتفال وأواريها فى بعض الأوراق. وها أنتما ذان قد اقترنتما ولا تزال هذه الصورة فى مكانها. وستبقى فيه أبد الدهر! ولم لا تبقى وأنا أعلم دون أن أسئ إليك أنى عندك أيضًا فى قلب شرلوت. وأعلم كذلك أن لى فيه المحل الثانى، وأريد بل يجب أن أحتفظ به. واويلتاه إن حاولت شرلوت أن تنسى!.. هذه الفكرة يا ألبير هى العذاب المقيم فى نار الجحيم. ألبير وداعًا! وداعًا يا ملاك السماء! وداعًا يا شرلوت!

١٥ مارس

لحقنى فى هذا البلد إهانة لا يستقر لى معها قرار ولا تطيب لى بعدها إقامة. إهانة بت لها قائمًا قاعدًا أزفر من الغيظ وأنفث من الغضب. وهيهات أن أجد عنها عزاء، أو أعرف لها دواء. وأنتم سبب ذلك كله أيها الذين دفعونى وحرضونى على قبول عمل ليس لى ولست له؛ شغلته تحقيقًا لأملكم فنلت منه ما أستحق، وأفَدْت به ما أستوجب: فطيبوا نفسًا واطمئنوا!!

لا تقل كعادتك إن أفكارى المتطرفة هى التى أفسدت كل شيء. فدونك الحادثة يا سيدى العزيز أسوقها إليك بسيطة واضحة كما يسوقها مسجل الحوادث فى جريدته.

كل يعلم أن الكنت د. ج يحبنى ويجلنى، وقد قلت لك ذلك مائة مرة. دعانى إلى العشاء معه أمس، وكان ذلك يوم اجتماع النبلاء للسمر عنده لم أفكر فى هذا عَلِم الله، ولم يَدُر فى خلدى أن الرسميات تحرم علينا معشر المرءوسين أن نجالس أولئك السادة! لا بأس! فبعد أن فرغنا من الطعام انتقلنا إلى القاعة الكبرى وأخذنا نتمشى فيها طولًا وعرضًا ونحن نتجاذب أهداب الحديث. ودخل علينا فى غضون المحادثة الكولونيل .ب فتشقق الكلام واتسع نطاق السمر. أزف وقت الاجتماع وأوشك زن يفد السامرون، وأنا لا أزال ـ شهد الله ـ خالى الذهن من كل شيء. فتح الباب ودخلت ذات الرفعة والسلطان السيدة د.س ومعها زوجها النبيل وابنتها القوية الغبية ذات الصدر المسطوح والخصر الأهيف،

فنظروا إليّ حين مروا عليّ مزدرين، وزمّوا[1] بأنوفهم مستكبرين، كدأب السادة العظماء!

أنا أكره هذا الجنس بالإخلاص، ولا أحب أن يجمعنى بأفراده مجلس. فانتظرت ريثما يخلص الكنت من ثرثرتهم الغثة الباردة ثم أستأذنه فى الانصراف. بيْد أنى آثرت البقاء حينما رأيت الآنسة دى ب داخلة، لأنى أشعر لدى مرآها بشيء من سرور النفس وانشراح الصدر. جلست وراء كرسيها ثم طارحتها الحديث فكلمتنى على غير عادتها بلهجة متكلفة غير صريحة، فيها شيء من التأفف والضجر، فنال ذلك منى وقلت فى نفسى: «أهى أيضًا على أخلاق هؤلاء؟» ثم هممت بالخروج لما نالنى من الهُون. غير أنى بقيت طمعًا فى تسويغ فعلها، ورغبة فى استماع جميل قولها، وأملًا فى أن أكون أنا الواهم الخادع.

أخذ عقد الجلوس يتسع بالوافدين شيئًا فشيئًا، ورأيت فيمن أقبل البارون .ف. وعليه كل ما فى صِوانه[2] من ثياب يرجع عهدها إلى تتويج العاهل فرنسوا الأول. وكذلك مستشار البلاط.. الذى رسموه بألقاب الشرف، جاء ومعه امرأته الصماء. ولا تنس المسكين ج؛ فقد كان هندامه المُشَيَّأ[3] مضحكة للناس، إذ سد ما أعوزه من الثياب على الطراز الغوطى بخرَق لا قيمة لها من الطراز الحديث. ولا أطيل عليك

(١) شمخوا بها كبرًا وصلفًا.

(٢) الصوان: وعاء الثياب Garde-robe.

(٣) المختلف القبيح.

فقد جاء القوم كراديس وأخذوا مواضعهم من المجلس. وأقبلت على بعض معارفى أحدثهم فوجدت منهم فتورًا عن الحديث وإيجازًا فى الجواب. ففكرت ثم فكرت، ولكنى لم أُلق بالى إا إلى الآنسة ب. فما لاحظت أن النساء الجالسات فى آخر القاعة كن يتساررن، وأن مُسارتهن دارت حتى بلغت آذان الرجال، وأن السيدة س كانت تفاوض الكنت. كل ذلك لم أفطن له وإنما حدثتنى به الآنسة ب بعد. وآخر الأمر أنالكنت تقدم إليّ وانتبذ بى ناحية الشباك وقال: إنك لا تجهل ما فى عادتنا من الغرابة والشذوذ، وقد لاحظت أن القوم لا يروقهم وجودك بينهم؛ ولكنى لا أريد مع ذلك... فقاطعته قائلًا: أستغفرك يا صاحب السعادة ألف مرة! فقد كان حقًّا عليّ أن أفكر فى ذلك من قبل. ولكنك ستبسط على نزقى جناح عفوك، ولا أَكْذِبُ الله فقد نويت الخروج منذ قليل فعاقنى الشيطان اللعين عن ذلك. قلت هذه الجملة باسمًا ثم انحنيت إليه مودعًا، فصافحنى الرجل وهو من تأثره فى حال تنم على مكنون صدره. وانسللت من هذه الجماعة الجليلة وركبت مركبة أقلتنى إلى م. فجلست فوق الربوة أشاهد مغرب الشمس وأقرأ لهوميروس ذلك النشيد الجميل الذى يذكر فيه كيف نزل أُودسيوس ضيفًا كريمًا على راع فاضل من رعاة الخنازير فَسُرّى عنى. ثم أبت فى المساء إلى العشاء فدخلت المطعم ولم يبقى غير نفر يلعبون (بالزهر) على أركان المائدة بعد زن رفعوا طرف الخوان. وما استقر بى المقام حتى أقبل الفاضل (أُدْلين) فعلق قبعته على المِشْجب وهو ينظر إلى. ثم قال بصوت خافت: هل اعترا امتعاض وابتئاس؟ فقلت له: أنا؟ فقالك نعم حين حملك الكنت على

أن تفارق الجماعة. فصحت به قائلًا: قاتلها الله من جماعة! لقد وجدتُنى أسعد نفسصا وأحمد حالًا فى الهواء الطلق. فقال: يسرنى أن ترى الأشياء من جهاتها الحسنة، ولكن يسوءنى زنالخبر قد سار على الأفواه فتناقلته الأندية، واضطربت به الألسنة!

حينئذٍ بدأت أمتعض، وأخذت كلما دخل المطعم إنسان ونظر إليَّ ظننت أن هذه النظرة لتلك المسألة، فيجيش صدرى من الغيظ ويغلى دمى من الحنَق. وأنكى من ذلك أنى اليوم أينما أوجه أرى من يرثى لى ويشفق عليّ وأعلم أن حسادى ومنافسّ يبدون الشماتة ويظهرون الفلَجَ[1] ويقولون: «كيف كانت عاقبة هؤلاء الأدعياء الذين يتبجحون بالنزر اليسير الذى أوتوه من الذكاء، ويحسبون أن لهم الحق فى أن يضعوا أنفسهم فوق كل اعتبار» إلى غير ذلك من الهراء القبيح. مَن من الناس يسمع هذا القول ولا يتمنى أن تخترق أحشاءه مدية قاطعة؟ قولوا ما شئتم فى تمجيد الاعتدال وضبط النفس، ولكن أرونى من يستطيع الصبر على سفلة يسمِّعون[2] به، ويمْرُجون[3] ألسنتهم فى عرضه، وقد تمكنوا من ضفا ثغرته، ووجدوا السبيل إلى دحض حجته؟ آه لو كان كلامهم واهى الأساس فاسد المعنى لهان على المرء أن يسخر منه، ويجعل فى أذنه وقرًا عنه!

---

(١) الفلج: الانتصار.

(٢) سمع به: أذاع عنه عيبًا وفضحه.

(٣) مرج لسانه فى عرضه: أطلقه فى ذمه واغتيابه.

١٦ مارس

كل ما حواليّ إلْبٌ عليّ يوقد صدرى بالغضب ويفتُّ كبدى بالغيظ. اليوم قابلت الآنسة دى.ب فى طريقى إلى النزهة فلم أتمالك أن دنوت منها، وملت عن الناس بها، ثم شرحت لها ماأحدثه سلوكها معى يوم أمس من الأذى والألم. فقالت لى وهى منفعلة ثائرة: كيف استطعت يا ڤرتر أن تفسر اضطرابى هذا التفسير وأنت تعلم قلبى؟ الله يعلم كم تألمت من جرائك منذ دخلت البَهْو! وقد كنت أتوقع حدوث ما حدث. وكثيرًا ما هممت أن أنبهك له. كنت أعلم أن السيدتين دى. س. ودى. ت وبعليهما كانوا يؤثرون الخروج على أن يضمهم وإياك منتدى واحد. وأعلم أن الكُنت لا يجرؤ على خصامهم، ولا يقدر على دفع كلامهم. ولاتسل الآن عن الفضيحة المستطيرة، والقالة المستفيضة!! فذكرنى كلامها ما قاله أدلين ليلة البارحة فكأنما تدفق فى عروقى ماء حميم[1]. ولكنى أمسكت على ما فى نفسى من القلق وقلت لها: ماذا تريدين أن تقولى أيتها الآنسة؟ فقالت تلك الفتاة الفاضلة والدمع يجول فى عينيها: لشد ما شفق على هذا الأمر! فطار عقلى وجن جنونى وأوشكت أن أترامى على قديمها ثم ناديتها: «بربك لتُفْصِحِنَّ عما تضمرين» فغيضت من عبراتها المسبلة ولم تحاول إخفاءها ثم قالت: «إنك تعرف عمتى! لقد كانت فيمن حضر هذا الجمع ورى هذا المشهد. رأته ولكن بأى عين! وتكلمت فيه ولكن بأى لسان! ڤرتر! لقد أطعمتْنى أنياب اللوم،

(١) ساخن.

فى مساء الأمس وصباح اليوم، على صلتى بك. وقضى الله أن تحتقر وتهان سمْعَ أذنى ولا أستطيع الدفاع عنك إلا قليلًا».

كانت كل كلمة من كلماتها أشد وقعًا على قلبى من طعنة خنجر. وما كانت تدرى أن الواجب عليها أن تستر هذه الأشياء رحمة بى وإشفاقًا عليّ. مضت فى كلامها تذكر كيف أرجف الناس بهذا الأمر وخاضوا فيه، وكيف قامت طائفة تنتصر بهذه الحادثة وتبتهج بها، وتعدها عقابًا على ادعائى وصلفى وقلة اكتراثى بالناس، وذلك ما لامونى عليه منذ طويل. شديد عليَّ أن أسمع كل ذلك من فمها يا وليم بتلك اللهجة الصادقة المخلصة! لقد اضمحلت قواى ولا أزال موغر الصدر مسعور الفؤاد. وكنت أتمنى لو أن إنسانًا يجرؤ على مواجهتى بهذا الكلام حتى أخترق أحشاءه بالسيف، فإن منظر الدماء يشفى يصدرى ويطفئ غليلى.

آه! كم مرة تناولت الخنجر لأريح قلبى من العبء الذى يبهظه! لقد قيل إن فى الخيول جنسًا كريمًا إذا سار ملء فرُوجه[1] وأحماه الطراد فصد بأسنانه أحد أوردته حتى لا يختنق، ولطالما أحسست ذلك من نفسى فأود أن أقطع لى وريدًا لأجد الحرية الأبدية والراحة الدائمة.

٢٤ مارس

رفعت إلى القصر استقالتى من العمل وأرجو أن يقبلوها. وأسألك

(١) الفروج: ما بين قوائم الفرس. وسار ملء فروجه إذا عدا عدوًا شديدًا.

الصفح عما فعلت من غير إذنك، فإن رحيلى عن هذه الديار أصبح أمرًا محتومًا. على أننى أعلم ما كنت تقوله لتقنعنى بالبقاء لو استشرتك. اجتهد أن تخفف وقع هذا الخبر على أمى وأن تسيغها غصته برفق وهوادة. اجتهد أن تخفف وقع هذا لخبر على أمى وأن تسيغها غصته برفق وهوادة. أنا لا أملك لنفسى شيئًا، فلم لا تعذرنى هى إذا لم أملكه لها أيضًا؟ لا جرم أن ذلك سيؤلمها جد الألم. نعم يؤمها أن ترى ولدها وهو فى مبدأ الطريق إلى دار الاستشارة أو دار السفارة، قد وقف بغتة ثم رجع أدراجه فأدخل جواده فى الاصطبل. سمِّ ذلك بما تشاء واجمع الفروض واذكر الظروف التى كانت تسمح لى بالبقاء أو تحتمه عليّ، فقد قضى الأمر وأفِد الوقت وحق السفر. وإذا عناك أن تعرف إلى أين أذهب فاعلم أن الأمير (دى) هنا ويسره أن أكون معه. وقد عرض عليّ منذ أن عرف استقالتى أن أصحبه إلى ضعيته فأقضى بها فصل الربيع؛ وسأكون هناك حرًّا فى نفسى مالكًا لأمرى كما وعدنى. وإذ كنت أنا وهو على اتفاق فى بعض الأمور فسأغامر فى الحظ عنده وأعزم السفر معه.

١٩ أبريل

لك الشكر على رسالتيك ولى العذر فى الإبطاء عن جوابيهما، فقد انتظرت بالرد ريثما أنالمن السفارة إقالتى إذ كنت أخشى أن أمى تتوسل إلى الوزير فتكسر من ذرعى وتقف دون مرامى. وقد قضى الأمر وجاءت الإقالة. ولا أذكر لك ما تبعها من شدة أسفهم عليّ، وما كتبه الوزير فى هذا الصدد إليّ، مخافة أن تعظم شكواك ويضيق من

عذرى عندك ما اتسع. إن ولى العهد أرسل إليّ تقدمة الوداع خمسًا وعشرين دوقية مع كلمة مؤثرة حركت قلبى وأسألك شئونى. إذن لا حاجة لى بالمال الذى طلبته من أمى فى كتابى الأخير.

٥ مايو

سأرحل غدًا من هذا البلد، وسأعرج عليمسقط رأسى فأزور مغنيها وأقضى عهودها، فإنها على بعد ستة أميال من الطريق فحسب. سأزورها وأستذكر ذلك العيش الغزير وتلك الأيام السعيدة التى قضيناها فى ظلال الأمن والشمل جامع والحبل متصل! تلك الأيام التى مرت كحلم الوسنان أو خلسة المختلس!

سأدخل هذه الديار العزيزة المأنوسة من الباب الذى خرجت منه مع أمى يوم غادرناها بعد موت أبى لنحتبس فى مدينتكم الثقيلة الوبيلة. وداعًا يا وليم! سأوافيك بأخبار رحلتى من حين إلى حين.

٩ مايو

قضيت فريضة الحج إلى مسقط رأسى بقلب الحاج الورع والعابد المتحنث. ولكم انبعث فى قلبى من العواطف ما لم أكن أتوقعه.

لما بلغت سرحة الزيزفون القائمة فوق طريق س على ربع فرسخ من المدينة، نزلت من المركبة وأمرت الحوذى أن يسير وحده، فإنى أريد زن أسير وراء قلبى راجلًا أتذوق جمال تلك الذِّكَر وأنشق أريج هذى العهود. وقفت تحت هذه الدوحة التى كانت فى طفولتى غاية لنزهتى وحدًّا لمسيرى.

يا الله! لشد ما تغير كل شيء! لقد كنت فى تلك الأيام وأنا فى نعيم الجهالة أتمنى لو أنغمس فى هذا العالم المجهول رجاة أن أنال فيه ما لم أنله من رغبات النفس ولذاذات العيش وأمانى القلب! وهأنذا اليوم عائد من ذلك العالم الفسيح وما بين جنبيَّ غير إخفاق المسعى وخيبة الأمل!

بدا أمامى ذلك الجبل الذى كان منتجع خاطرى ومهوى فؤادى ذلك الجبل الذى كنت أقضى به الساعات قاعدًا أشاهده وقلبى هائج وفكرى وثاب يحملنى إلى ما وراء الهضاب، ويضللنى فى ظلام الغاب، ويتيه بى فى تلك الأودية التى كانت تتجلى لعينى فتانة ضاحكة تحت نثاب من ضباب البعد. فإذا ما حان وقت الرجوع تقطعت نفسى حسرات على ترك هذا المكان العزيز عليّ.

اقتربت من المدينة فحييت المنازل والحدائق التى أعهدها. أما ما استحدث من المساكن أو تغير منها فلم يقع من قلبى موقع الرضا.

ولم أكد أجاوز بابا المدينة حتى وجدت ما فقدت من نفسى، وعرفت ما أنكرت من سائرى. ولا أريد أن أشرح لك بالتفصيل كل ما أحس وأرى، فإن ذلك يكسب الحكاية من التشابه والتشاكل بقدر ما يكسبنى من الانفعال والتأثر. عقدت النية على أن أنزل فى دار على ميدان السوق بجانب دارنا القديمة. فلما أجزت الساحة ذاهبًا إليها لاحظت أن المدرسة التى كانت تكدسنا فيها تلك العجوزة البرة ونحن صغار كما تكدس الشاء فى حظائرها قد تحولت إلى حانوت بدال. وتذكرت ما كنت أعانيه قديمًا فى هذا القفص من اضطراب البال، وانكساب الدمع، وضيق الصدر، وتبريح الهم.

ولم أخط خطوة إلا وجدت أثرًا باقيًا أو تذكارًا ساميًّا يملك القلب ويصبى المشاعر. وما الحاجُّ إلى الأرض المقدسة يواجد ما وجدت من جليل الأثر وجميل الذِّكَرِ فى تلك البقاع الطاهرة المباركة. خذ مثالًا واحدًا من ألف: انحدرت فى النهر حتى بلغت مزرعة كنت أغشاها فيما مضى كثيرًا مع رفقتى ولِدَاتى فنتبارى فى قذف الحجارة على سطح النهر لنرى أيها أجمل وثوبًا على صفحة مائه. فمر بخاطرى ذكرى الساعات التى قضيتها هناك واقفًا على شطائ النهر أحدة ماءه بنظرى، وأساير تياره بفكرى: أشيعه إلى ما يمر به ويرويه من تلك الأفطار التى تتجلى فى الذهن على أبدع ما يتصوره الخيال من الألوان والصور. ولكن سرعان ما يعوق الفكر ضيق التصوير وحدود المخيلة فيقف. فأحثه على إمعان السير وإيغال التقدم فيسير حتى أضل بأسرى فى بعد شاسع لا ينظر ولا يدرك.

كذلك يا صديقى كانت الحدود الضيقة التى عاش بينها آباؤنا الأولون سعداء رافهين تظهر على شعورهم وشِعرهم مسحة السذاجة وآثار الطفولة لله در (اوليسَ) حين يتحدث عن البحر لا غور له ولا حد، وعن الأرض لم يطمثها من قبلُ إنس ولا جن! للهِ ما أصدق كلامه وأعمقه ويقه بالإنسان! ماذا يفيدنى أن أقول اليوم مع كل تلميذ إن الأرض كرة؟ وهل يحتاج المرء إلا إلى قطعة يسعد بها فى حياته، وإلى حفرة يرتاح فيها بعد مماته؟

أنا الآن فى قصر الصيد أعيش مع الأمير على خير حال وأحسنها. إن هذا الرجل مثال الإخلاص والسذاجة! إلا أن محاط بشرذمة غريبة

لا أفهم لها مذهبًا ولا خلقًا. لا تظهر عليهم علائم الاحتيال والخِب، ولكنك لاتقرأ فى وجوههم آية الصلاح والفضل. وقد أتوسم فيهم معنى الإخلاص أحيانًا ولكنى لا أثق بهم ولا أطمئن إليهم. على أن الشيء الذى يسوءنى هو أن الأمير لا يذكر غالبًا إلا ما يسمعه أو يقرأه، ولا تراه يتزحزح قيد إصبع عما اكتسبه من السماع أو القراءة، ولا ينظر إلى أبعد مما أراه غيره وأشد من ذلك عليّ أن يُكبر عقلى أكثر مما يكبر قلبي؛ وقلى هو مصدر كبريائى وإعجابى ومنبع كل شيء فيّ: هو منبع كل قوة وكل غبطة وكل ألم.

ألا إن العلم الذى أعرفه يستطيع كل أن يجمعه ويحصله، ولكن القلب الذى أحمله لا يتسنى لغيرى أن يحمله.

٢٥ مايو

كان فى رأسى خُطّةٌ طويتها عنك ريثما تحقق وتنفذ. أما الآن وقد حِيل دونها فليس ثَم ما يمنعنى من ذكرها. كنت مزمعًا الدخول فى الجندية، وكان هذا الغرض فى نفسى من زمن بعيد. فلما عرفت الأمير كان أول ما دفعنى إلى اتباعه تحقيق هذا العزم لأنه قائد فى جيش روسيا. ولكنى لم أكد أكشف له عن هذا الرأى حتى زهدنى فيه وصدنى عنه. وليس الأمر صادرًا عن هوى مستحكم أو حاجة داعية حتى أحمل نفسى على مراجعته أو مخالفته.

١١ يوليو

قل ما بدا لك فهيهات أن أبقى هنا أكثر مما بقيت. وهل لى فى هذا المكان عمل؟ لقد تولانى السأم وثقل عليَّ الزمن. وأرى الأمير

يعاملنى معاملة النظير، ويكرمنى إكرام العشير، إلا أننى مع ذلك لم أكن فى الموضع الذى أستنسبه، ولم أبلغ المورد الذى أتسعذبه. لست فى الأمر معه على سواء؟ فليس من شكلى ولا من هواى. أجل إنه رجل ذكى، ولكن ذكاءه عادى، فلا يُمْتعنى حديثه أكثر مما يمتعنى كتاب محكم الوضع. سأقيم هنا ثمانية أيام أُخَر، ثم استأنف حياة الظغن والتجوال. وخير ما ضنعته فى هذا المقام عنايتى بالتصوير وحسن أثرى فيه فإن للأمير هوى فى الفن وميلًا إليه، ولكنه يقيد نفسه بالقواعد العلمية والاصطلاحات الفنية، ولولا ذلك لكان فنانًا قديرًا. يحدث فى الغالب أنى أكون متقد المخيلة مضطرم الحواس أنقله من حقول الطبيعة إلى رياض الفن، وأريه روايع الجمال الطبيعى وبدائع الفن الطليق، إذا به يرمى خلال الطريق كلمة اصطلاحية (مدموغة) حاسبًا أنه يَفْرِى[1] الفَرِىَّ ويأتى بالعجب، فيُجرضني[2] بريقى، ويسد عَلَيَّ طريقى.

١٦ يوليو

إى وربى إنه لحق! لست على هذه الأرض إلا جوَّابة رحَّالة! وليت شعرى هل أنت إلا كذلك؟!

١٨ يوليو

أتدرى إلى أين عزمت المسير؟ سأقول لك ذلك همسًا فى أذنك. مددت أجل الإقامة هنا إلى خمسة عشر يومًا، ثم أقنعت نفسى أن

---

(١) يأتى بالعجاب فى عمله.

(٢) أجرضه بريقه: جعله يبتلعه بالجهد من هم أو حزن أو غيظ.

أزور مناجم... وحقيقة الأمر أنى أريد الاقتراب من شرلوت ليس غير. إنى أسخر من قلبى ثم أتابعه على ما يريد!

٢٩ يوليو

كلا، هذا حسن! كل شيء حسن! أنا! أكون زوجًا لها! سبحانك اللهم لو كنت أعددت لى مثل هذه السعادة لكانت حياتى كلها صلاة دائمة لك، وثناء متصلًا عليك. لا أريد يا مولاى أن أعارض قدرتك، ولا أن أناقش حكمتك، فاغفر لى هذه الدموع السائلة، وتجاوز عن تلك الزمانى الباطلة. هى! تكون زوجة لى! إذن لضممت بين ذراعيَّ أجمل وأكمل مخلوقة تحت الشمس!

وليم! إن جسمى لتستقله الرعدة إذا ما أدار ألبير ذراعه حول قدها الرشيق. وإن كلمة تتردد على شفتى فهل يصح أن أقولها؟ ولم لا يا وليم؟ إنها لو كانت معى لكانت أسعد نفسًا وأرغد عيشًا منها معه. ليس ألبير ذلك الرجل الذى يقضى حاجة هذه النفس ويحقق مراد هذا القلب. لقد تُعوزه الحساسية و..... ظن ما تشاء. إن قلبه وقلب شرلوت يتقابلان ويمتزجان وقلبه عما نحن فيه بمعزل. ولطالما دار الحديث بيننا عن إنسان فنذكر ما نحس له من عاطفة، ونشرح ما نرى فى عمله من رأى، فأتفق أنا وشرلوت إلا ألبير فيقف منا على النقيض. عزيزى وليم! لا جدال فى أنه يحبها من صميم فؤاده، وهل جزاء هذا الحب إلا السعادة؟ إن أحد الثقلاء دخل عليَّ الآن فقطع سلسلة أفكارى، ووقَف تيار دموعى، وألهانى عن كل ما بى. أستودعك الله يا صديقى!

٤ أغسطس

لست فيما أصابنى الدهر من اليأس والإخفاق بأول الناس ولا واحدهِم؛ فكل إنسان يخطئه سهم الحظ ويَكْذِبه رائد الأمل.

ذهبت أزور تلك المرأة التى لقيتها يوم الزيزفون فرآنى بكر أولادها فجاءنى عَجْلان يسعى إليَّ وهو يصيح صياح الفرح. فتنبهت أمه وتطلعت إلى فإذا هى على غير ما عهدت منسرقة القوى منهوكة الجسم. فبدرتنى بالخطاب قائلة: «أواه يا سيدى الكريم! لقد مات يحيى الصغير» وكان هذا الطفل أصغر بنيها، فلبثت صامتًا واجمًا وانطلقت هى فى شكواها تقول: «وزوجى رجع من سويسرا صِفْر اليدين. ولولا عطف بعض النفوس الكريمة لما استطاع العودة إلا بإراقة ماء وجهه، فإن الحمى لم تفلته أثناء الطريق» فلم أستطع أن أقول لها شيئًا، وقدمت إلى الغلام هدية صغيرة، ثم طلبت إليَّ أن أتقبل منها بعضًا من التفاح فتقبلته، وغادرت المكان مفعم القلب بذكرى محزنة أليمة.

٢١ أغسطس

كل ما عهدته فى نفسى تغير فى أسرع من تقليب الكف وارتداد الطرف! ولم يبق من عهد السرور غير بصيص خافت يلمع فى جوانب نفسى من حين إلى حين. وما أسرع ما يخبو فيترك القلب ظلامًا والهم لِزَامًا! ما هْمِت مرة فى أودية الأحلام إلا احتوشنى هذا الخاطر من كل جانب فلا أستطيع له دفعًا: «ماذا عسى أن يكون لو قضى ألبير نحبه؟» إذن تكون أنت... أجل وتصير هى... ثم أتبع ذلك الوهم حتى

يقف بى على شفا الهوية، فأرجع القهقرى مضطرب الحواس مرتعد المفاصل. وما خرجت من باب المدينة وسلكت الطريق التى سلكتها يوم ذهبت أول مرة إلى شرلوت أقودها فى المركبة إلى المرقص إلا قلت لنفسى: شتان ما بين الأمس واليوم! وسرعان ما ذهب كل شيء واضمحل! لم يبق من ذلك العهد السعيد رسم ولا أثر! ولم أعد أجد واأسفاه فى قلبى تلك العواطف التى كانت تهزه يومئذ وتحركه!

أنا كالأمير الذى قام من قبره فرأى القصر الفخم الذى شاده لواحده وقرة عينه، وزينه بالتحف الثمينة والرياش الفاخرة، قد تقوض بنيانه وأصبح أطلالًا بالية، وسومًا عافية.

٣ سبتمبر

لا أفهم أحيانًا كيف يقدر إنسان آخر أن يحبها أو يجرؤ على أن يحبها، وهى التى سكنت قلبى، واستأثرت بحبى، فلا أعرف ولا أحس ولا أرى غيرها فى هذا العالم!

٤ سبتمبر

ما أشبه حالى بحال الطبيعة! هى تجنح الآن إلى الخريف، وأنا كذلك أرى آثاره حولى وفيَّ. فتلك أواق الشجر تتناثر وتهوِى، وهذه أوراق آمالى تتساقط وتذوِى!

أما تذكر أنى حدثتك يومًا عن فتى قَروى عرفته فى أول عهدى بالمقام هنا؟ لقد سألت عنه هذه المرة فى وَلْهِم فقيل لى إنه طرد من عمله ولا يعلم أحد ماذا كانت عاقبة أمره. وقد اتفق أنى قابلته أمس

فى طريق إحدى القرى فسألته عن حاله فقص عليّ ما جرى له. لحرك أوتار قلبى، وأثار شجون نفسى، وستجد ذلك فى نفسك إذا ما أعدته عليك. ولكن ما الفائدة من ذكر هذا الحادث لك؟ ولم لاأكتم فى نفسى ما يهمها ويغمها؟ لماذا أولمك معى وأفتح لك فى كل ساعة طريقًا إلى رثائك لى وتأنيبك إياى؟ ولكن ما الحيلة؟ ربما كان ذلك أيضًا من شقاء جدى ونكد حظى.

أخذ هذا الرجل بادئ ذى بدء يجيب عن أسئلتى بهدوء محزن يخالطه شيء من الوجل على ما أظن؛ ولكنه ما لبث أن عرفنى فعرف نفسه، وخرج عن صمته وانقباضه؛ فاعترف لى بخطيئته، وأخذ يسهب فى شرح مصيبته. وأشهد الله أنى عاجر عن نقل كلامه إليك بشدة تأثيره وقوة تصويره. حدثنى عن سيدته وهو مسرور سعيد بذكرها وذاكرها أن غرامه بها كان ينمو على الأيام ويقوى على الزمن حتى بلغ حد الذهول، فلم يعد يعلم بعد علم شيئًا. عافت نفسه الطعام، وجفَت عينُه الكرى، وكرَب صدرَه الخُناق، وعمل ما لا يجب أن يعمله، وأهمل ما لا ينبغى أن يهمله. وزصبح كأن روحًا شريرة تصرِّفه وتسيره. ففى ذات يوم علم أنها فى غرفة من غرف الطبقة العليا من البيت، فصعد إليها مدفوعًا بقوة لا تدفع، وأخذ يتلو بين يديها صلواته وتضرعاته فما أثرت فيها إلا كما تؤثر هَبَّة الريح فى الصخر الأصم. فأراد أن يخضعها إليه كرهًا؛ ولا يدرى كيف كان ذلك، وإنما يشهد الله على أنه لم يرد بها سوءًا، بل أراد أن تكون له زوجة يسعد بقربها وينعم بحبها.

وقف بعد أن تكلم طويلًا وقفة من احتبس فى نفسه شيء لم يجرؤ على قوله. ثم كاشفنى وهو خجلان بما رخصت له فيه من الدالَّة الخفيفة، والمباسطة القليلة والمؤانسة اليسيرة، وقد قطع الحديث مرتين. أو ثلاثًا ليستدرك على نفسه بأنه لم يقل ذلك القول غضًا منا ولا زراية عليها، وأنه ما زال يحبها ويجلها، وأنه لم يفه بذلك الحديث إلا ليقنعنى بأنه غير فاجر ولا أحمق. وهنا أعود يا صديقى إلى أغنيتى القديمة وأرجع إلى قولى الأول: إنى أعجز ما أكون عن تصوير هذا الرجل كما رأيته وكما أراه الآن، وعن شرح أمره لك شرحًا تعلم منه مقدار عطفى عليه فى محنته، ومساهمتى إياه فى نكبته. ولكن الى أبعد الأمر عنك وحالى لك معلومة وحظى فى ذهنك واضح؟ وإنك لتعلم رثائى للبائيسين وحدبى على المنكوبين، ولا سيما أمثال هذا الرجل.

أعدت النظر فى هذه الصفحة فوجدتنى قد نسبت أن أذكر لك خاتمة الحكاية وإن كان من السهل عليك أن تخيلها؛ فإن المرأة هبت للدفاع عن نفسها، وأُهرع أخوها إلى نجدتها، وكان يبغض الفتى من قبل ويتمنى ألا يكون فى البيت حتى لا ترغب أخته فى زواج جديد يحرم أولاده الميراث الذى بنوا عليه مستقبلهم، فلم يتردد لحظة فى طرده، وأخذ يتقول البهتان ويتزيد فى الحديث ويهوّل فى الأمر حتى قطع على أخته الطريق إلى استرجاعه متى أرادته. فاستبدلت به خادمًا كان سببًا فى اضطرام الخصام بينها وبين أخيها؛ لأنها عقدت النية على أن تتزوج منه كما يؤكد العارفون. وقد قال لى صاحبى إن ذلك لن يكون وهو حى.

ذكرت هذه الحكاية على وجهها دون تزيد ولا مبالغة، ولم أحاول أن أنمقها أو أرققها، بل أرى أنى أضعفتها وسخفتها وجعلتها جافية نابية بما استعملت فيها من العبارات الخاصة بلغتنا الرقيقة المهذبة!

لم يك هذا الحب ولا تلك السعادة ولا ذاك الهوى تلفيق كاتب ولا اختلاق شاعر. بل وجد كل ذلك على غاية من الإخلاص والنقاء فى نوع من الناس نسميه نحن معاشر المتمدنين المهذبين فظ الأخلاق وحشى الطباع!...

نشدتك الله أن تقرأ هذه الحكاية بتدقيق وروية. فقد كتبتها إليك وأنا هادئ ساكن؛ ولعلك ترى أثر ذلك فى خطى فإنه لا يشبه نبش الدجاج كما عهدته. اقرأ يا وليم وفكر نجد هذه الحكاية ز«به بحكاية أخيك. فهذا ما أشعر به اليوم وذلك ما سألقاه غدًا. على أننى لم أوتَ من الإقدام والعزيمة شطر ما أوتى ذلك البائس المسكين الذى أقارن نفسى به.

٥ سبتمبر

عاقت زوجها فى الريف عُدَواءُ الأشغال فلم يحضر. فكتبتْ إليه بطاقة بدأتها بهذه الكلمات: «عزيزى الكريم وصديقى الحميم! أسرع فى العودة ما استطعت، فإنى أنتظرك بصبر قليل وسرور كثير». ثم جاءها صديق فأبلغها أن ألبير عاقته العوائق عن تبكير العودة، فتركت البطاقة فى مكانها حتى وقعت فى يدى مساء ذلك اليوم، فقرأتها ثم ابتسمت. فسألتنى عن سر ابتسامى فقلت لها: «آمنت أن المخيلة أجلُّ منح الله وأسنى هياته. لقد استطعت بفضلها أن أتخيل أن هذه

البطاقة كانت مكتوبة إلى» فأمسكتْ عن الحديث، وتبينتُ فى وجهها الكدر فسكت.

٩ سبتمبر

لقيت من الجهد ما لقيت فى حمل نفسى على خلع هذه «السترة» الساذجة الزرقاء التى لبستها يوم رقصت مع شرلوت أول مرة. على أننى ما خلعتها إلا بعد أن حال حالها واستحال استعمالها. وخادعت نفسى فاتخذت سترة تشاكلها طرازًا ولونًا، ولستها على صدار وسروال أصفرين كاللذين كانا عليَّ يومئذ. ولكن هذه الحلة على شدة مشابهتها لتلك لم تؤثر فى نفسى تأثيرها، ولم تسرَّ قلبى سرورها. وما أدرى لعل هذه الحلة على تراخى الزمن تحل من قلبى محلها، وتصبح عزيزة عليَّ مثلها.

١٢ سبتمبر

غابت عن البلد أيامًا تطلب ألبير فى الريف. فلما عادت ذهبت أزورها فخّفت لمقابلتى، ومدت يدها إلى فقبلتها سكران من حميًّا الطرب. ثم طار كَناريٌّ من فوق المرآة فوقع على كتفيها؛ فقالت وهى تستنزله على يدها بالملق والرفق: صديق جديد استخلصتُه لأطفال! لله ما ألطف وما أجمل! أنظر إليه! إننى حين أقدم إليه الخبز ينقره بلطف وهو يصفق بجناحيه. ثم يقبلنى أنا أيضًا. أنظر!» وأدنتهمن فمها، فأقبل العصور الأنيق على شفتيها الورديتين ينقرهما عجلان ملتذا كأنما يشعر بتلك السعادة التى يتذوقها ويجنيها. ثم قدمته إليّ وقالت: لا بد أن يقبلك أنت أيضًا. فمر منقار العصفور من شفتيها

إلى شفتى ونقرنى نقرة سرت فى جسمى سريان النسيم، وأشعرتنى ببوادر اللذة والنعيم. ثم قلت لها: إن قبلاته لم تخل من معنى ولا غرض، فلعله يطلب القوت ويبحث عنه، وأرى أن هذه المداعبة لا تغنيه من جوع. فقالت: «إنه يأكل طعامه من فمى أيضًا» ثم مدت إليه بعض الفتات على شفتيها المفترتين عن ابتسامة حلوة تمثلت فيها لذة الحب السعيد، وعذوبة الحنان البرئ. فوليت عتها بوجهى اتقاء لهذا السحر وقلت فى نفسى: حرام عليها كل هذا! وما ينبغى لها أن تهيج وجدانى بهذه المناظر: مناظر البراءة القدسية والسعادة العلوية! ولا يجوز أن يوقظ قلبى كلما أنامته سخافات الحياة حينًا بعد حين... ولم لا تفعل؟ إنها وثقت بى جِدَّ الثقة وعلمت أنى أحبها كل الحب.

١٥ سبتمبر

وليم! إنى ليحزننى أن أجد فى الناس من لا تبلغ به كفايته إلى تقدير ما على الأرض من الأشياء القيمة النادرة. لعلك تذكر شجرتيْ الجوز اللتين تفيأتهما أنا وشرلوت فى منزل القَسِّ يوم زرناه، تينك الشجريتن اللتين كانتا تملآن قلبى بما خلص من سرور ولذة، وتفيضان على الفِناء ما شاء الله من رخاء ونعيم: أغضان فينانة جميلة، وظلال وارفة ظليلة، وذكريات جمة عذبة ترجع بالمرء إلى عهود أولئك القسس الكرام الذين غرسوهما. ولطالما ذكر لى معلم القرية اسم قسيس منهم حدثه جده عن صفاته الجيلة وأخلاقه النبيلة، فكانت ذكراه تتمثل فى خاطرى جميلة طيبة كلما تفيأت هاتين الشجرتين. أتدرى ما فعلت يد الأحداث بهما؟ حكى لنا بالأمس معلم القرية

أنهما قطعتا وأُيمن الله لقد كان الدمع يجول فى عينيه وهو يتحدث. قُطعتا؟ عجيب ما أسمع! إنى ليخيل إليّ أن لو رأيت فى غضبى ذلك البهيم الذى مد يده إليهما بالقطع لأوردته حياض المنية. كيف لا ولو كان فى فنائى مثل هاتين الشجرتين ثم أذوى إحداهما الكبَر للبست عليها ثوب الحداد وقامت عندى قيامة الحزن، فكيف أطيق الصبر على مثل هذا المنظر؟

على أن ما يعزينى يا صديقى هو شعور الإنسان وإدراكه لمواطن الكمال، وامتعاضه لتشويه صور الجمال، فقد أخذ أهل القرية أجمعون يتذمرون، وعسى أن يكون فى حرمانهم امرأة القسيس هدايا السمن والبيض احتجاج على ما جرته عليهم من الضرر. ذلك لأنها هى التى اقترفت ذلك الإثم. ولا تحسبنها زوجة صديقنا القسيس الشيخ فقد لحق بربه، وإنما هى زوجة القس الجديد الذى خلَفه، وهى امرأة عجفاء معروفة العظم مِسْقامة فظة الطبع لا تألف ولا تؤلف، حمقاء تدعى العلم وتشارك فى درس قوانين الكنيسة، وتعمل بجد فى إصلاح قواعد الانتقاد الخلقى فى المسيحية على آخر طراز، وترفع كتفيها ساخرة بمخرقة (لاڤاتر)[1] وتُرَّهاته! وقد تخَوَّنها السقم وهدها المرض حتى لم تجد فى أرض الله موضعًا لسرور ولا موطنًا لفرح.

فترى أن مخلوقة على هذه الصفات حرية أن تجتث شجرتَيَّ من

(١) لاڤاتر Lavater عالم من علماء الدين وفيلسوف من فلاسفة الألمان وشعرائهم، له رأى

أصلهما. إنها تزعم أن الأوراق الساقطة تلوث الفناء وترطب جوه، وزن الأغصان تحجب عنها ضوء النهار، وأن الجوز إذا ما أينع قذفه الأطفال بالحجارة فيهيجون أعصابها، ويزيدون أوصابها، ويهوِّشون عليها وهى غارقة فى الموازنة بين كينيكوت[1] وسملر وميخائيلس.

ولما رأيت الامتعاض والأسف باديين على وجوه القرويين ولا سيما شيوخهم، قلت لهم: ولماذا تحملون هذا وتقبلونه؟» «فقالوا: إن الأمر فى الريف للعمدة: إذا أراد فلا دافع لإرادته، وإذا حكم لا معقب لحكمه».

على أن الله عز اسمه لم يشأن أن يهنأ الغانمون بالغنيمة، فقد أراد القسيس أن يستفيد هذه المرة من عبث امرأته، فواطأ العمدة على أن يقتسما ثمن الشجرتين، ولكن الخبر نُمِيَ إلى إدارة الأملاك فقالت لهما: مكانكما! وباعت الشجرتين بالمزايدة ورجع صاحبانا بصفقة للغبون. آه لو كنت أميرًا! إذن لعرفت كيف أتعامل امرأة القس والعمدة وإدارة الأملاك.

أمر غريب! أتمنى أن أكون أميرًا ولو كُنْتُه لما همنى كل ما فى إمارتى من شجر؟

١٠ أكتوبر

غاية السعادة عندى أن أنظر إلى عينيها الدعجاوين. وأشد ما

(١) كينيكوت عالم دينى إنجليزى (١٧١٨ - ٨٣)؛ وسملر عالم دينى ألمانى (١٧٢٥ - ٩١)؛ وميخائيس فيلسوف أمانى بحاثة (١٧١٧ - ٩١).

يؤلم نفسى أن ألبير لم تبدُ عليه دلائل السعادة التى كان يرجوها... وإنى على ما أعتقد أكون أسعد الناس.... لو... أنا لا أحب تقطيع جملى ولا تجزئة كلامى، ولكنى فى هذه المرة لا أستطيع التعبير عن ضميرى بغير ذلك. ويظهر لى أن هذا الكلام شديد الوضوح.

١٢ أكتوبر

حل أُسيان[١] من قلبى محل هوميروس. ويا لله أيُّ عالَم جُلْت فيه ورُدته فى شعر هذا الشاعر السامى! عالم كله جلال وروعة! تجدنى أجول فيه بين أشجار الخلَنْج[٢] والعواصفُ الهوج تُزجى السحائب الدُّجن فى ضوء القمر الشاحب، فأرى خلالها أشباح آبائه وأجداده، وأسمع من قمم الجبال بين هدير السيل الجارف أنين أولئك الأرواح فى أجواف مغائرها، وتأوُّهَ تلك الفتاة اليائسة الولْهى وهى تُريق بنفسها من الألم جاثية على الصخور الأربع التى ضمت عظام حبيبها، ذلك الحبيب الباسل الذى مات ميتة الأبطال فى معركة شعواء دامية! ثم ألتقى بذلك الشاعر الأشيْب وهو يجوس مغارس الخلنج ويجوب سهول الأرض منقبًا عن آثار أجداده، فلا يجد واأسفى عليه إلا مصارعهم من البلى، ومضاجعهم تحت الثرى،

---

(١) أسيان شاعر أرلندى عاش فى القرن الثالث للميلاد، وهو ابن فنجال ملك (مورفن) وقد نسب إليه الشاعر الأرلدنى ماكفرسون ديوان شعر ونشره تحت اسمه فى عام ١٧٦٠. وهو شعر تنبجس منه العبرات، وتنعقد فوقه الحسرات، ستقرأ منه فى أواخر الكتاب نشيدًا ترجمه ڤرتر لشرلوت.

(٢) الخلنج La bruyérs شجر كالطرفاء زهره أحمر وأصفر وأبيض وحبه كالخردل ينبت فى الأرض البور.

فيُرجع بصره حينئذ حزنان شاكيًا إلى كوكب المساء الزاهر وقد اختفت أضواءه بين أحضان الأمواج المتلاطمة، فتعود إلى مخيلته ذكريالعهود الماضية والعصور الخالية، أيام كانذلك الكوكب ينير للأبطال طريق المخاطر، ويبدد عنهم بضيائه ظلام المخاوف، ويَصُب أنواره الفضية على سفنهم وهى عائدة يحدوها النصر، وتزينها أكاليل الزهر، فتفعل الذكرى فى قلبه ما تفعل. واقرأ فى أسرار وجهه أثر الحزن العميق والهم المبرِّح، وأرى ذلك الشاعر الكريم وهو آخر نبعة من غيضته وحيدًا على الأرض يتقدم إلى القبر بخطى مضطربة وأقدام متعبَة. ويجد فى استحضار طيوف آبائه فرحًا جديدًا وسرورًا مؤلمًا شديدًا، ثم يرسل نظراته إلى الأرض الباردة والأعشاب الطويلة المضطربة فى يد الريح ويصيح: «إن المسافر الذى عرفنى فى شبيبتى وجمالى سيأتى ويسأل: أين الشاعر؟ أين ذهب الشريف فنجال؟ ثم يسير واطئًا لحدى بقدميه باحثًا عنى فوق الأرض سدى!».

يا ويلتا ليتنى يا صديقى وأنا أحترق بهذه النار المقدسة فعلت كما يفعل التابع الأمين الشجاع: أجرد سيفى وأنقذ أميرى بضربة واحدة من حياة بئيسة وموت بطئ، ثم أرسل نفسى وراء هذا البطل المقدس إلى ذلك الملكوت الأعلى!

١٩ أكتوبر

يا لله! أى فراغ مروِّع أجد فى صدرى! وأى وحشة مخيفة أحس فى قلبى؟ آه لقد أقول لنفسى أحيانًا: «لو استطعت أن أضمها إى صدرى مرة واحدة، مرة واحدة لا أكثر: إذن لامتلأ ذلك الفراغ ولزالت هذه الوحشة».

٢٦ أكتوبر

أجل يا صديقى، تزيدنى الأيام يقينًا بأن وجود الإنسان فى هذه الأرض شيء تافه وأمر يسير. جاءت إلى شرلوت إحدى صواحبها تزورها فأخذتا تتناثان الحديث، وذهبت أنا إلى الغرفة المجاورة لغرفتهما أبحث عن كتاب فيها، وأردت أن أقرأ فمتنعت منى القراءة، وسمج فى عينى الكتاب؛ فتناولت القلم وأخذت أكتب، فسمعتهما تتحدثان بصوت خافت: تذكران من أخبار المدينة ما لا شأن له ولا خطر. قالت الزائرة: «فلانة مقدمة على الزواج بعد قليل؛ وفلانة الأخرى مريضة مثقلة تسعل سعالًا جافًا، وتكاد عظمتا وجنتيها تخرقان الإهاب، وأرى جسمها الواهن يذوب ولا يثوب، ولا أُرهن على حياتها بدانق». وقالت شرلوت: «إن السيد (ن) كذلك أصابته علة فادحة»، فأجابتها الأخرى: «نعم! إنه منتفخ وارم».

فطارت بى مخيلتى إلى أسرّة هؤلاء البائسين المحتضرين، فرأيتهم كيف يُدبرون عن الحياة آسفين، ويقبلون على الموت خائفين؛ ولاحظت أنهم.. وليم!! إن هاتين الفتاتين تتحدثان عن أولئك الأصدقاء والأقرباء حديث المرء عادة عن موت رجل غريب.

كذلك أقلب النظر حولى فى هذه الغرفة فأرى فى كل جهة ملابس شرلوت وأوراق ألبير، وأنظر ذلك الأثاث الذى ألفته كله حتى هذه الدواة فأقول لنفسى: (أنظر يا ڤرتر إلى مكانك فى هذا البيت، وإلى محلك من قلوب أهله! إنهم جميعًا يجلونك ويكرمونك، ولا تهنأ لهم كأس الصفاء دونك. تُدخل المسرة على قلوبهم، ويكاد قلبك

لا يخفق إلا بوجودهم. ولكن ليت شعرى إذا بعدت عن هذا البيت، وخرجت من هذه الخلقة، أيشعرون بذلك الفراغ الذى أحدثه بُعدك، ويحسون ذلك النقص الذى أوجده فقدك؟ وإذا شعروا بذلك فهل يدوم هذا الشعور طويلًا؟».

واأسفاه! إن الإنسان لسريع الزوال: يَمَّحى ويزول حتى من المكان الوحيد الذى يتأكد فيه وجوده، وتثمر فيه عواطفه وعهوده. يزول من ذاكرات أحبائه وقلوب أعزائه، وذلك واحسرتاه يحدث فى أسرع ما يكون!

٢٧ أكتوبر

يقوم بنفسى أن أمزق صدرى ورأسى كلما رأيت الناس لا يغنى بعضهم عن بعض شيئًا. فلا يستطيع أحدهم أن يمد الآخر بشعاع من فكره، ولا عاطفة من قلبه، ولا أثاره من حبه. وهل فى قدرة إنسان أن يحبونى الحب والمسرة والحرارة واللذة إذا ما عدمت ذلك فى نفسى؟

وهل فى قدرتى أنا وقلبى فياض بالغبطة والسعادة أن أسعد إنسانًا آخر د وقف أمامى جامدًا باردًا لا قوة فيه ولا حساسة؟

مساء ٢٧ أكتوبر

لا زيال عندى من موارد الحياة ومذخر القوى مدد وفر؛ ولكن هواها يبتلع كل شيء ! أجل! لا زلت أملك كثيرًا، ولكن الكثير بدونها قُلٌّ، والوجود بغيرها عدم.

٣٠ أكتوبر

كم مرة هممت أن أضمها إلى صدرى، وأطفئ بلثمها حرارة قلبى! رباه! لا يعلم غيرك ما يكابد المرء من ألم وما يعانى من بَرَح كلما رأى هذا الجمال الساحر يذهب أمامه ويجئ وليس من حقه أن يمد يده إليه! على أن الغريزة البشرية تدعوه إلى تلك الحركة وتدفعه. أو ما رأيت الأطفال يجهدون أن ينالوا كل ما وقع تحت حواسهم وأدركوه بمشاعرهم؟ ـ وأنا!

٣ نوفمبر

علم الله أنى كثيرًا ما أرقد وأنا أود وأرغب، بل آمل وأرجو ألا أستيقظ. فإذا تنفس الصبح واكتحلت عيناى ثانية بضوء الشمس شعرت بحزن عميق وبؤس شديد. آه! ليتنى أصبح فريسة للأهواء وطعمة للسوداء! أوليتنى أستطيع أن أحمل ذلك الخطأ على دهر أساء وإنسان عدَا ومسعى أخفق! إذن لخف عنى ذلك العبء الفادح عبء الشقاء والحزن الذى أنقض ظهرى وأحرج صدرى وايلتاه عليّ! أنا جازم بأنى المتجرم على نفسى. لا لا! ما كنت متجرمًا ولا آمثًا؛ وإنما كنت على الأقل مصدرًا لشقوتى وبلائى، كما كنت قبل اليوم منبعًا لغبطتى ورخائى. أجل لم أعد ذلك الرجل الذى كان يسبح آنفًا فى فيض من الوجدان ولُجّ من العواطف، وتتجلى له فى كل خطوة من خطواته جنة بهيجة، ويرى قلبه أهلًا لأن يجد فى الحب عالمًا بأسره. مات الآن ذلك القلب وغاضت ينابيعه، فلم يعُد يجيش بالإعجاب والذهول والحميَّة، وجفَّت شئون عينى فما تَبضُّ بقطرة، وذوت

حواسى حين لم يَسْقها الدمع البَرُود، وضافنى الهم وساورنى القلق فتخدد جبينى وجف ماء شبابى. أنا أتألم جد الألم لأنى فقدت ما كان يجعل حياتى بهيجة لذيذة. فقدت تلك القوة المقدسة المنعشة التى كانت تخلق حولى عوالم كثيرة! فتجدنى الآن إذ اطلعت من النافذة فرأيت عروس الصبح تخترق أشعتها حجب الضباب فوق الهضاب البعيدة، وتضئ مروج الوادى الخالية الصامتة، وأبصرت النهر الهادئ يسعى رليَّ مناسبًا بين أشجار الصَّفصاف العارية انسياب الأفعوان، أقف وقفة المتعجب المرتاب أسائل نفسى: لِمَ أصبحت هذه الطبيعة الجميلة أمامى باردة خامدة كأنها صورة مطبوعة ملونة؟ وكيف لا يستطيع كل ما أرى من جمال وسحر أن يحمل القلب على أن يرسل إلى المخ قطرة واحدة من الهناءة والغبطة! لقد بلغ بى ذلك أن أقف أمام الخالق كأننى الوعاء الفارغ والينبوع الناضب! ولطالما خررت ساجدًا أجأر بالدعاء إليه أن يجود عينى بالمطر، كما يستسقى الفلاح الغمام إذا رأى السماء قد أماطت عن وجهها قناع الحياء، ووجد الأرض قد أجهدها العطش وأعوزها الماء.

على أنى أشعر وأأسفاه أن الله لا يمنحنا المطر والصحو بتلك الأسئلة الملحفة والأدعية المزعجة. وما كانت تلك الأزمن اللائى أتحسر عليهن سعيدة إلا لأنى كنت أنتظر نعم الله بالأناة والصبر، وأتقبل النعيم الذى يغدقه على بالحمد والشكر.

٨ نوفمبر

لقد لامتنى على سرفى وإفراطى، ولكن برقة ولين وعطف!

قالت لى وقد رأتنى منذ أيام أشرب الكأس إلهاء وتسلية فأمعن فى الشراب وأسترسل حتى آتى على ما فى الزجاجة: (خل عن هذا وفكر فى شرلوت) فقلت لها: أفكر فيك؟ وهل تحتاجين إلى أن تأمرينى بذلك؟ أنا أفكر... كلا لا أفكر، وإنما أنت دائمًا نُصب عينى وأمام نفسى، حتى فى صباح هذا اليوم كنت جالسًا فى الموضع الذى نزلت فيه من المركبة آخر مرة» فعطفت الحديث إلى جهة أخرى حتى لا أسترسل فى هذا الموضوع.

آه! لقد ضاع رشدى يا صديقى، وإنها لتصنع بى ما تريد، وتتخذ منى ما تشاء!

١٥ نوفمبر

أشكر لك يا وليم ولاءك الصادق ونصحك الخالص، وأناشدك الله أن تخفض عليك جأشك وتدعنى أشرب الكأس حتى الثمالة. فلا يزال فيَّ على الرغم من مشقتى ولُغوبى فضل من القوة يمسكنى إلى غاية الأمد.

أنا أعظم الدين وأجله كما تعلم، وأعتقد أنه السند الأقوى للنفوس الوانية، والمورد العذب للقلوب الصادية. ولكن... قل لى بربك أيستطيع أن يكون كذلك لجميع النفوس؟ أجل بصرك فى هذا العالم الفسيح تجد ملايين من الناس ما أجدى الدين ولن يجدى عنهم شيئًا، سواء أُوعظوا به أم لم يوعظوا. ألم يقل المسيح نفسه إن الذين وهبهم الله له سيكونون معه؟فليت شعرى ما حالى إذا كان الله قد استخلصنى لنفسه، ولم يهبنى له كما يحدثنى بذلك قلبى؟... أعيذك

بالله أن تفهم كلامى على الخطأ أو تحمله على التهكم! فما أردت إلا أن أكشف لك عن دخيلة نفسى. ولولا ذلك لآثرت الصمت ضنا بكلامى أن يذهب ضياعًا فى موضوعات يجهلها كل إنسان مثلى. ولعمرى ما نصيب الإنسان من حياته؟ هل نصيبه إلا أن يحمل عبء الشقاء ويشتفَّ كأس الألم؟ وإذا كان رب السموات والأرض قد استمر[1] هذه الكأس واجتواها[2] حين وضعها على شفته البشرية، فكيف أتظاهر بالجلد وأتستر بالرياء، وأدَّعى أن هذه الكأس عذبة سائغة؟ لماذا أخجل إذا رجفت قوائمى فرقًا من هول تلك الساعة الرهيبة، ساعة يرتعد جسمى بين الوجود والعدم، ويلمع الماضى فى هوة المستقبل المظلم لمعان البرق فى حَلَك الليل، وينخسف كل ما حولى من الأشياء ويبيد، ويقبر معى العالم بما فيه أجمع! ألم يسمع الناس ذلك المخلوق[3] للثقل المكروب يقول وقد رأى نفسه يتردى فى الهاوية دون أن تنفعه حيلة، أو تغنى عنه وسيلة: «رباه رباه لماذا تركبتنى؟!» فهل أستحيى بعد ذلك أن أهتف بهذه الجملة فزعًا من تلك اللحظة التى لم يَنْج منها رب السموات الذى يطويها طى السِّجِل للكتاب؟

٢١ نوفمبر

شرلوت لا ترى ولا تشعر أنها تجهز السم الذى سيهلكنى وإياها

---

(١) وجدها مرة.

(٢) عافها وكرهها.

(٣) يريد بذلك المخلوق المسيح عليه السلام ساعة صلب.

معًا؛ وأناأعُبُّ ذلك الشراب المشئوم بشغف ولذة. وإلا فماذا تقصد بهذه النظرة الحنون التى تلقيها عليّ غالبًا؟ غالبً! كلا بل أحيانًا. وماذا تريد بهذا التساهل فى قبول ما يبدر منى أثناء الكلام فى شرح عواطفى! ولماذا أقرأ فى جبينها الرثاء لمصابى، والإشفاق عليّ من أصوابى؟ وأعجب من هذا أنى لما أردت الانصراف من بيتها أمس مدت إليّ يدها قائلة: (مع سلامة الله يا عزيزى ڤرتر)، عزيزى ڤرتر! تلك كانت أول مرة دعتنى فيها عزيزًا. فتمشت حُمَيَّا هذه الكلمة فى أعضائى، وأخذت أرددها وأعيدها التذاذًا بذكرها، وانتعاشًا بسكرها. وفى المساء حينما أويت إلى مضجعى واستسلمت لأحاديث النفس، وهواجس الفكر، بَدرت منى هذه الجملة: (لِيَهْنِكَ النوم يا عزيزى ڤرتر) فلم أتمالك أن ضحكت من نفسى وسخرت من أمرى.

٢٤ نوفمبر

إنها تشعر بألمى وشقائى، وتدرك سبب همى وحقيقة دائى. ولقد نظرت إليَّ اليوم نظرة نفذت إلى السواد من قلبى. وذلك أنى لقيتها فى البيت وحدها فوقفت حيالها موقف الأبكم، وأخذت هى تحدق النظر فى شخصى وتستقصيه، وقد اختفى ما كنت أراه فيها من الجمال الساحر والذكاء النادر، فلم يبق إلا نظرات سامية ترسل الرثاء والشفقة، وتفيض الحنان والعطف. ليت شعرى لم لم أجرؤ على أن أرتمى بين قدميها؟ لم لم أجرؤ على أن أطوق عنقها بذراعيّ وأجاوبها بلسان القبلات على هذه النظرات الوديعة!. ثم رجعت بصرها إليها وفزعت إلى بيانها فغنت عليه أنشودة جميلة مؤثرة بصوت أحلى من الأمانى وأعذب من نسمات السحَر.

لم أر كاليوم شفتيها مهبطًا للسحر ولا مسقطًا للجمال! لقد كان يخيل إلى أنها تنهج، وأن شفتيها لا تنفرجان إلا لِتَنَسُّم النغمات الحلوة الصاعدة من البيان، وأن فمها النقى الطاهر لا يردد إلا صدى هذا النغم السماوى العذب. آه لو كنت أستطيع أنأقول لك ذلك كما أحسه!

لم أقو على مقاومة ذلك طويلًا فخضعت وأذعنت، وأخذت على نفسى هذا الموثق: «أبدًا لا أدنسكما بالقبل أيتها الشفتان اللتان تطير عليهما أرواح السماء».

على أننى أريد... آه لكأنى أرى أمام نفسى حائطًا يحجزها عما تريد! أريد أن أذوق هذه السعادة ثم أموت تكفيرًا عن هذه الخطيئة... خطيئة؟

٢٦ نوفمبر

أقول لنفسى أحيانًا: يا نفس أنت واحدة النفوس فى هذا الحظ. وأولئك الناس حولك تستطيعين أن تعديهم سعداء، وهيهات أن تجدى فيهم من شرب من نقيع الحنظل ما شربت. فإذا ما قرأت لشاعر من الشعراء الأقدمين خيل إليَّ أنى أنظر فى قلبى. وأقرأ صحيفة لبى، فيهيج بى الوجد ويشتد عليَّ الألم وأقول: والهفتاه! هل كان فيمن تقدمنى من الناس من لقى من أرزاء الدهر وبأساء الحياة ما لقيت؟

٣٠ نوفمبر

هيهات هيهات أن أرجع لنفسى وأعود لحسى! فحيثما أوجِّهْ ألْق

خيالًا يهد عمادى ويذهب رشادى. اليوم! يا للحظ! يا للإنسانية! اليوم وجدت بى إقهاءً[1] عن الغداء فخرجت قبيل الظهر أتنزه على ضفة النهر؛ وكانت الحقول صامتة موحشة، والريح الغربية تهب من ناحية الجبل بليلة باردة، والسحائب الجون الممطرة تتراكم فوق الوادى طبقة فوق طبقة؛ فرأيت رجلًا عليه طمر أخضر يمشى منحنيًا بين الصخور كأنما يبحث عن بعض أعشاب الجبل. فلما أحس خطاى التفت فإذا سحنة غريبة تنم عن حزن دخيل هادئ بيد أنها تنبئ عن نفس كريمة طيبة، وشَعرٌ جَثْلٌ أسود قد اتخذ منه عقيصتين لواهما بدبوسين فى مقدم رأسه؛ ثم أرسل باقيه جديلة غليظة تنوس[2] فوق ظهره. فعلمت من هندامه وبِزَّته أنه من زوساط الناس لا يمتعض إذا دخلت فى أمره واستفهمته عن بعض شأنه. فدنوت منه ثم سألته عما يبحث. فتنهد تنهدًا عميقًا ثم قال: «أبحث عن زهور، ولكنى لا أجد منها شيئًا». فقلت له باسمًا: ذلك لأننا فى غير فصل الزهور. فقال الفتى وهو يدنو منى: «بلى إن فى الرياض زهورًا كثيرة. وفى حديقتى وُرود شتى ونوعان من زهر العسل أعطانى أحدهما أبي؛ وهو ينبت كما ينبت النجيل، ومنذ يومين أبحث عنه فلا أجده. كذلك عندى ف يكل آن من الأزهار الأصفر والأزرق والأحمر والقنطاريون ذو الزهيرات الجميلة. على أننى لا أجد من كل ذلك شيئًا».

فلاحظت فى هيئته ولهجته شيئًا غريبًا خفيًّا؛ فسألته بعد أن لويت

---

(١) أقهى عن الطعام: كرهه ولم يشتهه.

(٢) تتحرك.

الحديث: وماذا تصنع بهذه الزهور؟ قال وقد علت شفتيه ابتسامة غريبة ووضع إصبعه على فمه: «لا تنم على ولا تخني؛ سأصنع من هذه الزهور طاقة لحبيبتى». فقلت له: هذا منك حسن جميل. فقال لى: «إن عندها أشياء كثيرة، إنها غنية!».

ـ وهل هى مع ذلك تحب طاقاتك؟

ـ أوه! إن عندها حُليًا وتاجًا.

ـ وما اسم هذه الحبيبة؟

ـ لو شاءت الجمعية[1] العمومية أنت تنقدنى ما أريد من المال لكنت اليوم رجلًا آخر. ولقد أتى عليّ زمن كنت فيه رخى الصدر مثلوج الفؤاد. أما الآن فقد قضى الأمر وأصبحت.... ثم رفع إلى السماء طرفه الباكى لعبر بهذه الحركة عما يريد. فقلت له: إذن لقد كنت سعيدًا؟ فقال: «لا أود إلا أن أكون كما كنت. لقد كنت جذلان مرحًا كأننى السمكة فى الماء».

وإنا لكذلك إذ رأيت عجوزًا تتقدم إلينا وهى تنادى: هنرى! أين أنت يا هنرى؟ لقد طلبناك فى كل مكان فما وجدناك. هلم إلى الغداء. فتقدمت إلى العجوز وسألتها: هل هذا ولدك؟ فأجابت: نعم ولدى واحسرتاه عليه! لقد فجعنى الدهر فيه فجيعة أليمة. فقلت لها: وكم لبث ف يهذه الحال فقالت: «لله الحمد! عاوزه منذ ست

(١) الجمعية العمومية Les états généraux هى ما كانت تمثل فى تلك العصور طبقات الأمة الثلاث: الأشراف والكهنة والعامة.

شهور هدوءه وسكونه. أما قبل هذه المدة فقد لازمه الهياج الشديد سنة كاملة قضاها فى البيمارستان مقيدًا مغلولًا. وها هو ذا الآن وديع هادئ لا يؤذى أحدًا ولا يضر مخلوقًا. غير أنه يشغل باله ووقته بذكر الملوك والأباطرة. عهدى به غلامًا بارًا وديعًا يعيننى على اكتساب القوت واحتمال العيش بخفة يده وحسن خطه، فإذا به قد تحول فجأة إلى تفكر عميق وانقباض محزن، ثم إلى حُمَّى صالب وهذيان مستمر، ثم انقلب إلى ما تراه عليه الآن. لو كنت أستطيع أن أقص عليك يا سيدى كيف...».

فحجزت سيل هذا الكلام الدافق بقولى لها: «وما أمر تلك الأيام التى يزعم أنه كان فيها سعيدًا؟» فجرت على شفتيها ابتسامة الإشفاق والرحمة وقالت: وارحمتاه لهذا المجنون! إنه يرمى إلى تلك الأيام التى كان فيها مستلب العقل فاقد الشعور، أيام كان فى البيمارستان مُدلها غائب الرشد! تلك أيام لا يبرح آسفًا عليها مشوقًا إليها فخورًا بها».

فوقع هذا الخبر على سمعى وقوع الصاعقة، فوضعت فى يدها قطعة من النقود ثم وليت على عجل ميممًا نحو المدينة مرددًا فى نفسى هذا ا لكلام: أهذه هى الأيام التى كنت فيها سعيدًا؟ أيام كنت طروبًا مرحًا كأنك السمكة فى الماء! رباه يا رب السموات والأرض! أكذلك قضيت على بنى آدم ألا يكونوا سعداء إلا قبل أن يوهبوا العقل أو بعد أن يُسلبوه؟

أيها البائس! لَشَد ما أحسدك على انقباضك الذى يَعزلك،

وجنونك الذى يُنحلك! أنت تخرج مملوءًا بالأمل تبحث لملكتك عن الزهور فى جوف الشتاء! ثم تتألم لأنك لا تجد، ولا تدرى لماذا لا تجد! وأنا... أخرة بغير أمل، وإلى غير قصد، ثم أعود إلى البيت كما خرجت منه... تتخيل أنك تكون رجلًا آخر إذا شاءت الجمعية العمومية أن تعطيك المال الذى تريده... طوبى لك أيها المخلوق السعيد! لقد استطعت أن تعزو شقاءك إلى أسباب دنيوية بشرية، وجهلت أن فى قلبك المضطرم ومخك المضطرب علة شقائك ومصدر دائك، وزن جميع ملوك الأرض لا يملكون لك شفاء ولا يفعون عنك بلاء!

ألا أهلك الله باليأس رجلًا يهزأ بالمريض الذى يقطع الشقة البعيدة إلى المنبع السحيق الذى يزيد فى سقامه، ويضاعف آلام حمامه.

ولا أبقى الله على من تزدرى عينُه ذلك المنكود الذى يحج البقاع المقدسة تنفيسًا لكربة نفسه، وتفريجًا لشدة ألمه، وتكسينًا لثائرة قلبه، وتخلصًا من وخز ضميره! أليست كل خطوة يخطوها فى هذه الطريق الوعرة نقطة مرهم تضمد جراح نفسه، وكل ليلة يقضيها بعد هذا السير الملغب تخفف من عناء بؤسه؟

ذلك ما تجرؤون أن تسموه جنونصا ووهمًا أيهاالمتشدقون المستلقون على سائدكم الوثيرة الرّخصة! جنون ووهم!

اللهم يا من تريعبراتى المسفوحة! أكان حقًّا عليك أن تجعل للإنسان ـ وقد خلقته بائسًا ضعيفًا ـ إخوة يحرمونه العزاء فى محنته

وخصاصته بسلبهم إياه ذرة الإيمان بك والأمل فيك؟ وهل اعتقادنا فى جذور الطب ودموع الكرم إلا اعتقاد فيك وإيمان بك وبما أودعته فيما يحيط بنا من خواص الشفاء والراحة التى نحتاجها فى كل آن؟

أيها الأب الذى لا أعرفه، والإله الذى كان يشغل جوانب قلبى فيما مضى ثم ذوى الآن وجهه عنى! أدعنى إليك وكلمنى! لاتلزم جانب الصمت فإن نفسى التواقة الصادية تشتهى أن تسمعك. أى والد يتحمله الغضب إذا رأى ولده يترامى بغتة بين حِضنيه وهو يصيح: «هأنذا يا أبى قد عدت إليك! فلا تحل غضبك عليّ إذا لم أرِد أن أتم الرحلة التى حددتْها لى إرادتك. لقد وجدت العالم فى كل مكان هو العالم: عناء وعمل وجزاء ولذة. وماذا يجدى عليَّ كل ذلك؟ أنا لا أكون سعيدًا إلا حيث كنت، ولا أريد أن آلم ولأذ إلا حيث أنت» فهل ترضى أيها الأب السماوى الرحيم أن تذود عن بابك ذلك الطفل المتوسل الضارع؟

أول ديسمبر

ولْيم! إن الرجل السعيد الشقى الذى حدثتك عنه فى الرسالة الأخيرة كان كاتب سر لوالد شرلوت. وقد نبت حبها سرًّا فى قلبه، ثم خبله العشق ولج به الهوى فزعلن المكتوم وأظهر المضمر، فصرفه الوالد عن عمله، وحال بينه وبين أمله، فاعتراه مسٌّ ذهب بالبقية الباقية من عقله.

هيهات أن تشعرك هذه الكلمات الجافة ما أصابنى من الذهول حين قص عليّ ألبير هذه القصة بدم فاتر ولهجة باردة وحالة قد تكون أشبه بحالتك عند قراءتها!

٤ ديسمبر

حنانَيك يا صديقى! لقد انتقضت مِرَّتى، وعجزت منَّتى، وأصبحت لا أتمالك من الوجد، ولا أتماسك من الجوى! كنت اليوم جالسًا بجانبها وهى توقع على بيانها ألحانًا مختلفة بما شاء الله من قوة تعبير وشدة تأثير، وأختها الصغيرة تلبس عروسها الثياب على ركبتى. فأغرورقت عيناى بالدموع، وطأطأت رأسى، فوقع بصرى على خاتم الزواج فى يدها، فتصببت عبراتى وسحت جفونى. وما هو إلا أن فجأتنى بتوقيع ذلك اللحن القديم العذب الذى أحبه حتى خف ما بى وسُرى عني؛ بيد أنى تذكرت به الماضى، وتفكرت فى تلك الأوقات التى كنت أسمع فيها هذا اللحن وما أعقبها من الأيام السود والآلام المِمضة والآمال المخفقة،فنهضت أمشى فى الغرفة ضيق النفَس مكروب النفسْ مشرد العقل، ثم لم أتمالك أن دلت إليها وترامیت عليها قائلًا: «نشدتك الله يا شرلوت إلا كففت!» فكفت عن العزف وحدقت النظر فيَّ وقالت باسمة: «ڤرتر! إنك لا تعاف طعامك السيغ الهنئ إلا لمرض شديد، فأتوسل إليك أن تذهب فتهدئ روعك وتريح نفسك».

فخرجت من عندها، و.... رباه! إنك ترى ما أكابد من عناء وحزن، فاجعل لهذا الشقاء حدًّا.

٦ ديسمبر

إن صورتها تتبعنى فى كل مكان وتلزمنى فى كل لحظة! إا صحوت إما غفوت فإنها تملأ جوانب نفسى وتشغل فراغ قلبى.

هنا، إذا أنا أغمضت جفنى. هنا، تحت الجهة حيث تتركز القوة الباصرة، أرى عينيها العجاوين. هنا! لا أستطيع أن أشرح لك كل هذا. كلما أغمضت عينى رأيت عينيها هناك مفتوحتين أمامى وفيَّ كالبحر أو كالهاوية فلا أحس غيرهما فى جبهتى.

عمرَك الله ما الإنسان وما قيمة تألهه وصَلَفه؟ أما تخذله قواه وتخونه عند مس الحاجة إليها، وضرورة الاعتماد عليها؟ أما يشعر عند ما يغرقه السرور أو يحرقه الحزن أنه موقوف عند حدوده، ومردود إلى إحساسه البارد بكونه ووجوده، على حين يرجو أن يسبح ويفنى فى محيط اللانهاية بكبر وصلف؟

من الطابع إلى القارئ

كنا نود لو بقيت فى أيدينا حكاية الفترة الأخيرة من حياة صديقنا ڤرتر بإملاء قلبه وخط يده، فلا نضطر إلى قطع سلسلة رسائله بما سنقصه على القارئ من أخباره وحوادثه.

وتلك الأخبار نقصها ونرويها على ماسمعناه من أفواه الثقات الذين خالطوه ولابسوه فكشفوا دخيلة سره، وعرفوا حقيقة أمرهِ.

حكاية ڤرتر واضحة بسيطة، والناس فى روايتها لسان واحد، لا يكادون يختلفون إلا فى مسائل ثانوية لا خطر لها. فأما تشعُّب الآراء وتفرق الأهواء فهو فى الحكم على أخلاق الأشخاص والتقدير لأفعالهم. فسبيلنا إذن أن نقص ما علمناه بالبحث الدقيق والاستقصاء البالغ مضمنين ما تركه لنا ڤرتر من الرسائل والكتب دون أن نهمل منها ورقة، أو نحذف منها حرفًا، أو نصدر عليها حكمًا؛ فإن من الصعب الوقوف على البواعث الحقيقية والأسباب الجوهرية للعمل البسيط إذا وقع من قوم يعلون على الدهماء ويرتفعون عن العامة.

* * *

تغلغلت أصول الخور والضجر والكآبة فى نفس ڤرتر؛ ثم ربَت وتشعبت، ثم طالت وتشاجنت، حتى هيمنت على كيانه، وسيطرت على جثمانه ووجدانه، فتهوش نظام يحاته، وتنافر انسجام وجوده، وأخذت قواه الطبيعية تذيبها نار همومه المستعرة المضمرة، تلك النار التى أسلمته إلى الضنى والوهن بعد أن نجم عنها من شر النتائج وسوء الأثر، وأصبح ما يلقاه من الهم ومكافحة هذا الغم أشد عليه مما لقيه من جميع الآلام التى كافحها إلى الآن.

برّضح بقلبه لاعج الهم حتى زودى بقوة فكره وحدة خاطره توقد ذكائه، وصار لا يجد فى مجالس الأنس غير الوحشة، ولا فى سرور الصحاب إلا الحزن، ولا يمر عليه يوم دون أن يصعد فى سلم الشقاء درجة، وكلما أرهقه البؤس ولج به الجوى كان أكثر تألمًا وأشد تبرمًا.

وإليك ما يقوم أصحاب ألبير فى أمره وأمر ڤرتر: يقولون ويؤكدون أن ڤرتر لم يعرف كيف يقدر رجلًا فاضل الخلق رخب الأناة لا غرض له إلا أن يحتفظ برغيبة قلبه ومصداق أمله، على حين يسرف ڤرتر فى قواته، ويبذر فى خيراته، ولا يدخر غير الفاقة والألم لمساء حياته. ألبير لم يغيره الزمن القليل، بل ظل على حاله التى امدتحها ڤرتر وأجلها منذ تعارف وتآلفا. يحب شرلوت حبّصا دونه كل شيء، فهو يفخر بها ويباهى بحبها، ويتمنى أن تذكر فى الناس جميعًا بما لم تنله امرأة منالجلالة والكمال. فهل عليه من بأس إذا ربأ بها عن مواطن الشبهات، وأبى على غيره أن يساهمه الاستمتاع بحبها وقربها ولو كان ذلك الاستمتاع طاهرًا بريئًا؟ ثم إنهم مجمعون على أن ألبير كان

يترك غرفة امرأته إذا دخلها ڤرتر، لا كراهة منه لصاحبه، ولا ازورارًا عنه بجانبه، بل لأنه كان يشعر أن وجوده ينغصه ويضايقه.

* * *

توعك أبو شرلوت فلزم الفراش وبعث إليها بمركته يدعوها إليه، فذهبت تعوده فى يوم من أيام الشتاء جميل؛ وكانت طلائع الثلج قد سقطت على الأرض فطبقت البلاد. أما ڤرتر فلحق بها صباح اليوم التالى ليصحبها فى العودة إذا لم يتسن لألبير أن يوافيها هناك. وكان فى أثناء ذهابه مهمومًا فلم يؤثر سفاء الجو فى قلبه المضطرب إلا قليلًا: كان يحس نفسه رازحة تحت عبء فادح من الكرب. ويخيل إليه أن صورًا محزنة مخيفة تملأ فكره وتقفو أثره. وكان خاطره مبلبلًا مُذْهلًا لا ينتقل من فكرة مؤلمة إلا إلى فكرة أشد منها عذابًا وألمًا.

كان فى شقاق دائم مع نفسه، فلم ير لذلك فيمن حوله من الناس إلا مظاهر للاضطراب والقلق: ظن أنه خَبَّ على ألبير امرأته وأفسد بينه وبينها ذات البين، فأقبل على نفسه يلومها لو ما فيه شيء من الحنق على ألبير؛ وأخذ يردد فى خاطره وهو فى طريقه إلى شرلوت هذه الأفكار ويقول لنفسه هذه الكلمات وهو غضبان محتد: «أجل! أجل! لقد تحول هذا القرآن المملوء بالحب الخالص، والحنان الفياض، والجاذبية المستمرة، والوفاء الباقى على الزمن، إلى اشمئزاز وملل وقلة اكتراث. ألم تلهه المسألة الصغيرة الحقيرة عن هذه المرأة العزيزة التى يعبدها؟ هل قدر سعادته حق قدرها؟ أم هل عرف على الأقل قيمة هذه الزوجة الصالحة فعاملها بما تستحق من إكبار وجلالة؟

لا يعرف إلا أنه مالكها! نعم هو مالكها! وعندى بذلك علم؛ وقد كنت أحسبنى ألفت هذه الفكرة واعتدتها، فإذا هى لا تزال توقد صدرى بالغضب، وستطفئ سراج حياتى يومًا ما.

هل ثبتت صداقته لى على التجربة وحالت بينه وبين الوساوس؟ ألم ير فى حبى لشرلوت تعديا لحدوده ونقضًا لعهوده؟ ألم يجد فى رعايتى لها وعنايتى بها تأنيبًا صامتًا على إهماله، وتنبيهًا دائمًا على إغفاله؟ بلى كل ذلك أعلمه وأحسه!... إن منظرى أصبح لا يروقه، ومحضرى صار عبئًا عليه لا يطيقه، فلا يبغى الآن إلا أن أفارق وأرحل».

* * *

كم مرة تمهل ڤرتر فى سيره وهو موفض فيه! وكم مرة وقف يريد أن يعود أدراجه! ولكنه تابع سيره مدفوعًا بالرغم منه إلى أن بلغ منزل الصيد بين حديث نفسه ووساوس قلبه. دخل ثم سأل عن شرلوت وعن الشيخ فلاحظ أن فى البيت حركة وجلبة. وجاء أصغر الصبية يقول: إن حادثة وقعت اليوم فى وِلهم. فقد عثروا على أحد الفلاحين قتيلًا. فلم يُلق ڤرتر باله إلى هذا الخبر. ودخل البهو فوجد شرلوت تحاول أن تثنى أباها عن الذهاب وهو مريض إلى مكان الحادثة لتحقيق الجريمة، فإن القتيل وجد صباح اليوم مقتولًا على باب داره ولم يعثروا على قاتله. غير أن الناس يظنون الظنون ويلقون التهم، فيقولون إن القتيل كان فلاحًا لامرأة أيم، وكان عندها من قبله فلاح آخر طردته على أثر شجار نشأ من سوء سلوكه. فلما سمع ڤرتر هذا

البيان ارتاع وارتعد. ثم انتصب قائمًا يقول: «رباه! أذلك ممكن؟ لا بد من الذهاب إلى مكان الحادث دون تريث» ثم انطلق يعدو إلى ولهم وقد تواردت على قلبه الذكَر، ولم يخامره شك فى أن القاتل هو ذلك الرجل الذى حادثه طويلًا وأحبه كثيرًا. ولما بلغ الزيزفون وهو فى سيره إلى الحانة التى سجوا أمامها القتيل داخله خوف وفزع، وقد كان ذلك المكان فيما مضى موضع حبه وإعزازه. إن عتبة البيت التى كان يلعب حولها أطفال الحى قد لطخها الدم، وإن الحب الخاص والوفاء الشديد والعواطف السامية قد حالت إلى عنف وقتل، وإن الأشجار الباسقة قد تعرت من الورق واكتست بالجليد، والأسْوِجة الشجرية المعقودة على حائط المقبرة القصير قد جردت من سندسها الأخضر، وأمكنت الرائى أن ينظر من خلالها الأجداث مغطاة بالثلج.

لم يكد يدنو ڤرتر من الحان ويرى أهل القرية وقد تجمعوا أمامها حتى ارتفعت الأصوات فجأة. وأبصر على البعد قومًا شاكى السلاح قد أخذوا بتلابيب رجل يقول الناس إنه القاتل. رآه ڤرتر وملأ منه عينيه فانجلى الشك وانتفى الريب وأيقن أنه هو. هو الفلاح عاشق تلك الأيم، هو الرجل الذى لقيه منذ قليل يهيم فى الحقول مستلسمًا لحنقه الصامت ويأسه المكنون.

تقدم ڤرتر نحو الأخيذ وقال له: «ماذا صنعت يا مسكين؟» فنظر إليه الرجل نظرة هادئة كعادته دون أن ينبس. ثم كان جوابه إليه هذه الجملة: «إنها لن تنال أحدًا ولن ينالها أحد». ثم قادوه إلى الحان وتولى ڤرتر مسرعًا.

زعزعت هذه الصدمة القوية كيان صديقنا البائس وفتت فى عضده؛ بيد أنه تماسك وتجلد حين وقع فى نفسه وهيمن على فكره أن ينقذ هذا الرجل الذى يدرك بؤسه وشقاوته، ويرى على الرغم من إجرامه براءته ونزاهته. وأعتقد أنه سيحمل الناس على متابعته والأخذ برأيه. بدأ فى نفسه هذا الخاطر رجاء وأمنية، ثم ما نشب أن عاد حقيقة ممكنة. وأخذت كلمات الدفاع المؤثرة تنثال على شفتيه. فانطلق وشيكًا يؤم بيت الصيد ولسانه فى الطريق يردد عاليًا ما سيقوله الحاكم فى هذا الموضوع.

ولج البهو على الحاكم فوجد معه ألبير فاضطر قليلًا ثم تمالك. وأخذ يذكر رأيه فى أمر القاتل بحدة وحمية، ويفيض فى الدفاع عنه بإخلاص وحسن نية، فلم يترك كلمة فى تبرير عمل وتبرئة رجل إلا قالها، والحاكم فى أثناء ذلك يهز رأسه دون أن يتحرك قلبه لهذا الدفاع المخلص المؤثر كما توقعه الحضور من قبل. وأكثر من ذلك أنه لم يترك صديقنا يتم دفاعه، بل احتج على كلامه بقوة ونعى عليه أن يتولى الدفاع عن قاتل، وأظهر له أن السير على هذا السَّنَنِ يلغى القوانين وينقض حبل الأمن، وأنه لا يستطيع الدخول فى هذا الأمر دون أن يحمل من ورائه تبعة عظمى. ثم ختم قوله بأن المرء محتوم عليه أن يساير النظم ولا يتعدى حدود القانون.

لم يسلم ڤرتر بهذه الأسباب والتمس من الحاكم أن يغض الطرف إذا مهد للشاب سبيل الهرب. فرفض الحاكم هذا السُّؤال أيضًا. ودخل ألبير فى الحديث فعزز رأى الشيخ وشايعه. فأذعن ڤرتر لحكم

الكثرة، وخرج على وجهه ونفسه تكاد تفرهق من الألم بعد أن سمع الشيخ يكرر هذه الجملة: «ليس فى مقدور أحد أن ينقذه» فأثرت فيه هذه الكلمات تأثيرًا بليغًا يظهر فى جملة كتبها ذلك اليوم على رقعة وجدت بين أوراقه وهى:

«ليس فى مقدور أحد أن ينقذك أيها البائس! أجل أعلم ذلك وأعتقده. ليس فى مقدور أحد أن ينقذنا».

ولقد كان لما قاله ألبير فى شأن القاتل أثناء الحديث وقع مؤلم فى نفسه، إذ تبين فيه أثر الموجدة عليه والتنكر له. ثم فكر ڤرتر فيما كان فرأى بعقله المنطلقى أن الحق مع خصميه، ولكن خيل إليه أن متابعتهما على ما يران ما كانت تقع إلا إذا تجرد من وجدانه وعواطفه. على أننا وجدنا كذلك فى أوراقه بعض سطور تتصل بهذا الموضوع وتصف حالته وعلاقته مع ألبير.

قال: «ماذا ينفعنى أن يقول الناس ويعيدوا إنه طيب القلب كريم؟ أنا لا أستطيع أن أكون عادلًا، وذلك ما يستوقد قلبى ويمزق حشاى».

* * *

وجدت شرلوت وزوجها أن هواء المساء فاتر عليل، فاختارا أن يعودا إلى المدينة راجلين. وبينما هما فى الطريق كانت شرلوت تلتفت وراءها الحين بعد الحين كأنما كان يُعوزها وجود ڤرتر واصطحابه. ثم أخذ ألبير يخوض فى أمر ڤرتر ويلومه بإنصاف وعدل. ولما جر الحديث إلى هواه المنكود ود لو أنه استطاع البعد ابتغاء لراحته وهدوئه. ثم قال: «وأرى أن فى ابتعاده راحتنا وهدوءنا كذلك» فعسى

أن تحولِّلى نهجه معك إلى وجهة أخرى، وألا تكون زيارته إياك إلا لماما. فقد بدأ الناس يظنون، ولعلهم أخذوا يتهامسون».

فسكتت شرلوت ولم تجب. ورأى ألبير فى سكوتها جرحًا لعزته وهونًا لنفسه. فتحاشى منذ يومئذ أن يذكر ڤرتر أمامها تصريحًا أو تلميحًا، حتى إذا هى حدثت عنه أخمد نشاط الحديث أو حول مجراه.

* * *

كان سعى ڤرتر الباطل فى إنقاذ القروى القاتل أشبه بالومضة الأخيرة من شعلة فانية أو شمعة محتضرة. فقد عاد بعد إخفاقه فيه إلى أشد ما يكون من الحزن والألم والخمود، ولا سيما حين علم أنه ربما دعى إلى الشهادة على ثبوت الجريمة بعد أن جنح المجرم إلى الإنكار وعمد إلى التنصل. ثم ورد على خاطره كل ما لقيه فى حياته العاملة من مكاره ومحن، فذكر ما عاناه لدى السفير من غم وذلة، وتصور ما صادفه فى أموره من يأس وخيبة، فجاشت غصة الهم فى صدره، وثارت عوامل القلق فى فكره، وتخيل أن ذلك كله يسوِّغ له عيش الفراغ والعطلة، وأنه لا يرى فى المستقبل رجية ولا أمنية، ولا يجد نفسه بعد ذلك أهلًا لعمل من أعمال الحياة العادية. وكذلك كان ڤرتر يقترب من عاقبته الوبيلة مستسلمًا لعواطفه ووساوسه، مسترسلًا فى أفكاره وهواجسه، مستكينًا لهوى مُبَرَّح لا غاية له ولا مخرج منه، مستمرًا على صلاته المتشابهة الأليمة بتلك المخلوقة التى ملأ بها فراغ قلبه، وكدر صفو عيشها بحبه، ممنعًا فى تبذير مواهبه وإتلاف قواه من غير غرض ولا موجب.

وإن فيما بقى لدينا من كتبه لبينات مسلمة على شدة اختباله، وتحكم هواه، ومبلغ اضطرابه، واستنزاف جهوده، واشمئزازه من الحياة. وها نحن أولاء نرويها على سوقها ونثبتها بنصها:

١٢ ديسمبر

عزيزى وليم! أصبحت فى الحال التى يكون عليها أولئك المساكين الذين يتخبطهم الشيطان من المس كما كان يزعم الأوائل. تعترينى فى الغالب تلك الحال فلا أتبين لها كنها. لا هى رغبة، ولا هى رهبة، وإنما هى ثوران دخيل مبهم، يقوم بصدرى فإخاله يتمزق، ويأخذ بكظمى فأجدنى أختنق. وفى تلك الساعات الرهيبة أخرج هائمًا على وجهى فى ظلام الليل بين المشاهد المخيفة والمناظر المروَّعة التى تتجلى فى هذا الفصل فصل الشتاء عدو الإنسان.

لم أستطع أن أحبس نفسى عن الخروج مساء الأمس، فقد بغتَنا ذوبان الجليد، وقيل لى أن النهر طغى والجداول فاضت، ووادى العزيز يعب عبابه ابتداء من وَلْهِمَ. فخرجت زعدو إليه وكانت الساعة الحادية عشرة. فيا الله أى مشهد رائع شهدت! نظرت من أعلى الصخرة فإذا الأمواة المزبدة تصطخب فى ضوء القمر وقد شقَّقَت[1] الأرض وغَمرت الحقول والمروج والآجام والأشوجة، فلا ترى بين عَدْتى الوادى غير بحر لجِّىٍّ يثور ويضطرب على عصف الرياح الهُوج.

(١) شقق الماء الأرض: غمرها.

ولما احتجب القمر هنيهة وسفر من فوق غمامة جوناء فانعكست أنواره الرهيبة الوضاءة على الأمواج الهدارة بين قدمى، عرتنى هزة قوية أعقبتها شهوة شديدة.... آه! لقد كنت هناك على شفا الهاوية وعيناى مفتوحتان، وذراعاى مبسوطتان، وقلبى تواق مَشُوق إلى الهُوِيّ فى قرارة الماء، لأدفن معى ما أكابد من عذاب وعناء، وأدع نفسى لغوارب[1] السيل تحملنى حيث تشاء! فمالى جمدت وسُمّرت قدماى فى الأرض فلم أجعل لهذا العذاب حدًّا وغاية؟ إن ساعتى لما تَحْنِ بعد، ولكن أحسُّها! آه يا وليم ما كان أسرَّنى وأبهجنى لو خرجت عن طبيعتى البشرية فأقتحم الجو مع العواصف أخترق السحب وأثير الأمواج! ليت شعرى أما تكون هذه اللذائذ من نصيبنا أيها المسجونون يومًا ما؟

ما كان أشد أسفى حين صوبت طرفى الباكى إلى مكان صغير قدتُ إليه شرلوت ذات يوم من أيام الصيف فتفيأنا شجرة من الصفصاف فيه! لقد رأيته يعج بالماء عجيجًا حتى كدت لا أتبين الشجرة. فتذكرت حينئذ مروجه وضواحيه وقلت فى نفسى: «صنع الله لهذا السيل المحجف! لكأنى به وقد قوض عشنا المحبوب وخرب مهدنا الأعز!» ثم ومض فى جوانب نفسى المظلمة شعاع من شمس الماضى كما يحلم السجين بالمروج والقطعان، ويُمنِّى نفسه المجد والشرف. فبقيت صامتًا لا أتحرك!.... أنا لا أتهم نفسى فإن عندى على الموت شجاعة وجلدًا. إذن مالى أصبحت كالعجوز

(١) الغوارب: الأمواج.

تلتقط حطبها من جوانب السُّوج، وتجمع خبزها من فضلات البيوت، لتطيل بقاءها وتخفف عناءها زمنًا يسيرًا؟

١٤ ديسمبر

ما هذا يا صديقى؟ لقد أصبحت أخاف نفسى وأخشاها! ألم يكن حبى لها حبًّا أخويًا نقيًّا لا يشوبه خداع ولا نقص؟ هل شعرت فى قلبى بلذة مجرمة وشهوة أثيمة؟ اللهم لا داعى إلى أن أقسم بك على ذلك أو أشهدك عليه. إذن ما شأن هذه الأحلام الآن؟ لقد صدق الذين يَعْزون هذه الآثار المتضادة إلى قوى خارجية غير طبيعية.

زارنى طيفها الليلة... ـ أواه! إن ذكر ذلك يخيفنى ويرعدنى ـ فأخذتها بين ذراعيَّ وضممتها إلى قلبى بقوة، ثم انحنيت بالقبل الحارة على فمها الجميل العذب، وقطفت من بين شفتيها الورديتين غماغم[1] الحب الحيِّ، وكانت عيناى غارقتين فى عينيها الفياضتين باللذة. رباه! ألا أستحق غضبك وانتقامك بشعورى فى هذه الساعة أيضًا بالغبطة لدى ذكر هذا الطرب الشديد والهياج القوى!

شرلوت! شرلوت! لقد قضيت وقُطِع بيَ السبب! هذى مشاعرى منذ ثمانية أيام ذاهلة عاطلة، لا أجد سبيلًا إلى التفكير، ولا تجف عينى من البكاء. لا أحس نفسى موجودصا فى مكان، وكأننى فى كل مكان موجود! لا أتشهَّى ولا أتلهَّى ولا أتمنى! أليس أخلق بى وأجمل أن أرحل؟».

(١) الغماغم: جمع غمغمة وهى الكلام الذى لا يبين.

كان موقف ڤرتر فى ذلك الحين مما يقوى فيه العزم على ترك هذا العالم. وكان من لُدن عودته إلى شرلوت لا يجد عملًا يرتجيه ولا غرضًا يقصده إلا تحقيق هذا العزم. غير أنه قرر فى نفسه ألا يكون هذا العمل سابقًا لأوانه، ولا مخالفًا لعقله ووجدانه؛ بل يريد أن يكون عن عقيدة صادقة وعزيمة هادئة ما أمكنه ذلك وستقرأ فى هذه الرقعة التى تركها بين أراقه غُفلًا من التاريخ مثار الشكوك فى قلبه، ونشوب العراك مع نفسه. وربما كانت فتحة كتاب لوليم لم يتم:

«حضورها، وحظها، وعطفها عليَّ، وعنايتها بى، كل أولئك يستقطر الدموع الباقية فى محاجرى الناضبة المحترقة. كل ما هنالك أن أزيح الستر(١) ثم أمرَّ إلى داخله! ففيمَ التردد وعلام الاضطراب؟ ألأننى أجهل ما وراء الستار؟ أم لأننى إذا ذهبت لا أعود؟ زم ذلك لأن الفكر من خاصته أن يتوهم الظلام والالتباس والخلو فيما لا يعلمه علم اليقين؟».

ثم أخذ هذا الخاطر يَحَلى رويدًا فى صدره، ويتفق مع أمانى قلبه، حتى أضرب[٢] جأشًا لهذا العزم كما يدل عليه هذا الكتاب المبهم الذى كتبه إلى صديقه.

٢٠ ديسمبر

«لك الشكر يا وليم على أن فهمت كلامى كما كتبته. ولقد أصبت فى نصحك لى بالرحيل فذلك خير وأولى. ولكن لم يَرُقنى طلبك أن

(١) يريد الستر الذى بين الحياة والموت.
(٢) وطن نفسه عليه.

أعود إليكم، فإنى أرغب على الأقل أن أجول فى البلاد جولة، ولا سيما إذا أَجْلَدَت[1] الأرض وطاب الطريق. ولقد سرنى كذلك عزمك المجيء للبحث عنى، غير أنى أتقدم إليك أن تمهلنى خمسة عشر يومًا وسيأتيك منى كتاب فيه تفصيل ما أجملت فانتظر. إن الثمرة لا تجنى قبل أن تينع، وإن خمسة عشر يومًا قبل أو بعدُ تؤثر كثيرًا. قل لأمى تدع الله لولدها، واطلب لى الصفح منها عما جررت عليها من الأذى والحزن. كذلك جَدِّى! لا أملك لمن كنت أُحبُّ إسعادهم غير الشقاء والألم! وداعًا يا صديقى الأعز، وسلام الله عليك وبركاته».

أما ما كان يختلج فى صدر شرلوت إذ ذاك، وما كانت تحمله من العواطف لزوجها وصديقها فذلك ما سنحاول شرحه بالقول وإن صعب. فإن معرفتنا بزخلاق شرلوت تعيننا على أن نجمع فى أنفسنا رأيًا عنها وحكمًا عليها. وكل نفس كريمة تستطيع أن تتحد بنفس شرلوت فتفهم ما يجول فيها ويقوم بها.

مما لا شك فيه أنها قطعت العزم سرًّا على أن تبتغى الأسباب لإبعاد ڤرتر. فإذا عادها التردد فذلك لأنها كانت ترغب رغبة المخلص الودود فى أن تحفظ كرامته وترعى شعوره. قد تعلم يقينًا ما يجره عليه فراقها من الويلات والحرَب، بل ربما كان فوق طاقته ووراء احتماله. غير أنها شعرت إذ ذاك بدافع شديد يدفعها إلى العمل بحزم وقوة.

أما زوجها فقد ظل فى هذا الموقف صامتًا لا يصرح ولا يلمح؛ وظلت هى كذلك فى مثل حاله لا تبدئ ولا تعيد، حتى إذا لم يبق

(١) أجلدت الأرض: أصابها الجليد.

للصمت موضع أرادت أن تبرهن لزوجها بالفعل أن عواطفها عِدْل لعواطفه، وأخلاقها كفء لأخلاقه.

ذهب ڤرتر مساء اليوم الذى كتب فيه الكتاب السابق إلى صديقه يزور شرلوت فوجدها فى البيت وحدها. وكان ذلك اليوم يوم الأحد الواقع قبل عيد الميلاد، وكانت تعمل فى ترتيب هدايا العيد التى أعدتها لإخوتها وأخواتها. فأخذ يتحدث عن سرور الأطفال بتلك اللُّعَب ويذكر ما كان يجد فى نفسه من الطرب وهو صغير حين يُفتح الباب فجأة فتظهر الشجرة[1] الموقَرَة بالشموع والتفاح والحلوى. فقالت له شرلوت وقد سترت ارتباكها بابتسامة حلوة: «ستنال هداياك أنت كذلك إذا عقلت: شمعة صغيرة وشيء آخر أيضًا» فقال لها: ماذا تعنين يا شرلوت بالعقل؟ وكيف ينبغى أنأكون؟ وماذا أستطيع أن أعمل؟ فقالت له: إن ليلة الخميس هى ليلة العيد، ولكن اجعل حضورك معهم لا قبلُ ولا بعدُ. فوجم ڤرتر كأنما أفرغت عليه ذَنوبًا واستمرت شرلوت تقول: سألتك بالله أن تسمع لقولى وألا تنبو فى يدى فذلك ما لا بد منه. أطع بحقى عليك إيثارًا لراحتى وسلامى. لا ينبغى أن تدوم هذه الحال طويلًا، فإن ذلك أصبح مستحيلًا».

فأشاح عنها بوجهه، وأخذ يتمشى فى الغرفة مغمغمًا بهذه الجملة: لا ينبغى أن تدوم هذه الحال طويلًا! وأحست شرلت بلهيب كلامها

(١) من عادة الألمان أن يخبئوا ليلة عيد الميلاد شجرة موقرة بالشموع الصغيرة والحلوى المختلفة فى خزانة كاذبة، ثم يفتحوها على غرة من الأطفال فيسروهم بهذه المفاجأة الحسنة.

فى قلبه، وتأثير ملامها فى نفسه، فأرادت أن تلهيه بالأسئلة المختلفة عن أمره وتذهله عن فكره فما رجعت بطائل. ثم صاح ڤرتر قائلًا: «كلا لن أراك يا شرلوت بعد!» فأجابته على الفور «لماذا يا ڤرتر؟ تستطيع أن ترانى، ويجب أن تراني؛ ولكن اضبط نفسك واملك هواك. سبحان الله! لِمَ خُلقت هكذا قوى الحدة شديد الانفعال يشتعل هواك بما يلقى كما تشتعل النار بما تمس!» ثم تناولت يده وقالت: «نشدتك الله والود أن تقبض زمام نفسك! إن لك فى فكرك وعلمك وذهنك لفنونًا من اللذة وضروبًا من اللهو. كن رجلًا وخلص نفسك من غرام مشئوم بفتاة لا تملك إلا الرثاء لك والإشفاق عليك». فتأوَّه ڤرتر وصرَّ بأسنانه، ثم نظر إلى شرلوت نظرة همّ وكآبة ويده لا تزال فى يدها. فقالت له: «أعرنى لحظة واحدة من رباطة جأشك وهدوء نفسك يا ڤرتر. ألا تشعر بأنك تخدع نفسك وتسوقها إلى الهلاك عن رضا وطواعية؟ ما معنى أن تقصر هواك عليّ يا ڤرتر وأنت تعلم أن زمامى بيد آخر؟ أنا أخشى أن يكون يأسك منى هو ما يهج رغبتك فيّ ويضرم ولوعك بى». فنزع يده من يدها ورماها بنظرة هم وسخط ثم قال: عقل رصين وحق مبين!! لعل هذه الملحوظة لألبير، فإنها على ما أرى دقيقة عميقة! فأجالته شرلوت: كلّ يستطيع أن يلحظها. أما فى العالم كله فتاة تبلغك ما فى نفسك وتدنى قلبك مما يؤمل؟ أشغل بالك بالبحث عنها ويمين الله لتظفرن بها. لقد ساورنى القلق منذ طويل عليك وعلينا، وداخلنى الخوف من تلك العزلة التى أسلمت إليهانفسك طوعًا. استعِدْ قواك ثم اعزم رحلة تنسيك وتسليك، ونقب عن فتاة تكون أهلًا لحبك، وكفاء لقلبك، ثم

عد إلينا نتمتع جميعًا بنعمة الصداقة الخالصة، ولذة العشرة الصادقة. فقال ڤرتر وقد افتّر عن ابتسامة مرة: «يجب أن يطبع هذا الخطاب فى كتبا ثم يوصى به المعلمون». عزيزتى شرلوت؟ خلينى قليلًا منالزمن فى سلام وراحة، وسينتهى الأمر على ما تشائين. فقالت له شرلوت: لا أطلب إليك إلا شيئًا واحدًا: ألا تجئ قبل ليلة العيد... فهمّ ڤرتر بالجواب لولا أن دخل ألبير. فتبادل الرجلان التحية بفتور ثم طفقا يمشيان فى الغرفة مرتبكين، وأخذ ڤرتر فى كلام لا معنى له ثم قطعه، وفعل ألبير مثل ذلك. ثم أقبل على زوجه يسألها عن عمل كلفها أداءه، فأجابته أن يدها لما تمسه. فكلمها كلمات رآها ڤرتر جافة باردة، فهمّ بالخروج فَعَيّ بالنهوض فبقى مترددًا حتى دقت الساعة ثمانى دقات، وهو فى خلال ذلك يشعر بنمو الانقباض والحزن فى صدره. فلما أقلبوا يمدون السماط تناول عصاه وقبعته ونهض. فاستبقاه ألبير للعشاء فحمل دعوته على المجاملة الكاذبة وشكره ببرود ثم خرج.

فلما رجع إلى منزله وجد خادمه ينتظره بالمصباح، فأخذه من يده ودخل إلى حجرته، وأخذ يمشى فيها طولًا وعرضًا وهو يبكى أحرّ بكاء، ويحدث نفسه غضبان مشترَك الخاطر، حتى ضاق بحمل نفسه، فتطرّح على فراشه دون أن ينضو ثوبه. كذلك وجده خادمه فى الساعة الحادية عشرة حين خاطر بالدخول عليه من ذات نفسه يسأله أن يخلع له حذاءه. فتركه يفعل، ثم حظر عليه دخول الغرفة فى صباح الغد قبل أن يدعوه.

وفى صباح الاثنين الحادى والعشرين من ديسمبر كتب إلى

شرلوت هذا الكتاب، وقد وجدوه بعد موته مختومًا على مكتبه فألقوه إليها. ونحن نثبته هنا قطعًا مجزّأة نرتبها على ما يظهر لنا من مساق الحوادث والظروف.

«عقدت النية وقطعت العزم يا شرلوت على أن أموت. أكتب إليك هذا الكتاب وأنا هادئ مطمئن لا سلطان للخيال عليّ، ولا سبيل للحماسة إليّ، فى غدوة يوم سأراك فيه لآخر مرة!

فى الساعة التى تقرئين فيها هذا الكتاب يا حبيبة القلب يكون القبر الموحش قد اكتنف بظلامه وبرده بقايا هذا البائس الذى لم يجد فى آخر حياته القلقة أسرّ ولا أسعد من الحديث إليك.

كانت ليلتى طويلة مروعة! ومالى أقول ذلك وهى التى قطعت عزيمتى على الموت؟ لم أكد أخرج من عندك بالأمس حتى هاجمنى الانفعال والجزع، وتمثلتُ حياتى بقربك من غير سرور ولا أمل فطارت نفسى شعاعًا من الفزع. وما بلغت البيت حتى جثوت على ركبتى فاقد الرشد، ومنّ الله عليّ بنعمة بالبكاء فنفَّس عن صدرى المكروب، ومرت على قلبى خواطر شتى ومقاصد جمة، فلم يبقَ منها ثابتًا مكينًا غير فكرة واحدة: هى الموت - نمت واستيقظت فوجدتنى وادعًا مطمئنًا، ثم تلمست جوانب نفسى فلم أجد فيها قويًّا ثابتًا غير هذه الفكرة فكرة الموت... لم يكن ذلك لقنوط ولا يأس، وإنما كان لأنى نزحت مَعين الأسى، وجرعت كأس الألم، وأردت أن أجعل نفسى فداء لغبطتك ورحتك. أجل يا شرلوت! إلى متى الكتمان والصمت؟ لا بد أن يموت أحد ثلاثتنا وأريد أن أكونه! آه

يا حبيبة القلب! طالما اندس فى فكرى أن أقتل زوجة، أو أقتلك، أو أقتل نفسى! وها قد وقع الخيار عليَّ!

إذا ما تسنمت الجبل وعلوتِ الربوة فى أصيل يوم من أيام الصيف الجميلة فاذكرينى! واذكرى كم مرة جئت هذا الوادى ساعيًّا إليك! ثم أرسلى طرفك إلى الجهة الأخرى وصوبيه نحو المقبرة وانظرى هناك تجدى ضريحى تتمايل عليه الأعشاب الطويلة فى أشعة الشمس الغاربة!

لقد كنت فى بدء الكتابة هادئًا، فلما تراءت لى هذه الصور الحية العابسة نفر منى الهدوء، ونأى عنى الجلد، وبكيت كما يبكى الطفل أفحمه البكاء».

* * *

دعا ڤرتر خادمه قُبيل الساعة العارشة وقال له وهو يرتدى أثوابه: «إنى أزعمت الرحيل بعد بضعة أيام فنظف ملابسى وهيئ حقائبى، واذهب إلى التجار فاقض ما لهم عليّ من الدين، واسترد الكتب المعارة، وأعط صدقة شهرين مقدمًا للفقراء الذين اعتدت الإحسان إليهم فى كل أسبوع».

ثم أعَدَّ لنفسهِ الغداء فى غرفتهِ فتغدى، وركب الجواد إلى الحاكم فلم يُصِبْه حاضرًا. فأخذ يتنزه فى الحديقة والأفكار تسايره وتساوره وهو ذاهل مستغرق، كأنما أراد أن يستجمع كل ذِكرياته المؤلمة فى هذه اللحظات الأخيرة ليعظم بثّه ويزداد حزنه. على أن الأطفال لم يدَعوه وأفكاره طويلًا بل سارعوا إليه وتراموا عليه وقالوا له: «إذا فات غَدُ، وغدٌ بعده، ويوم آخر، ذهبنا إلى شرلوت نتقبل منها هدايا

العيد!» ثم وصفوا له الأعاجيب التى تمنيهم بها مخيلاتهم الطفلية وهم فرحون مستبشرون. أما هو فقد صاح قائلًا: «غدٌ! وغدٌ بعده! ويوم آخر!...» ثم قبلهم بحنان وعطف، وأراد أن يذهب فعلق به أصغر الإخوة يريد أن يلقى إليه كلامًا فى أذنه، فمال به ناحية واستمع إليه فإذا هو يقول سرًّا: «إن إخوتى الكبار قد كتبوا تهانئ جميلة بالنيروز[1] على ورقة كبيرة! كبيرة! منها تهنئة إلى أبى، وتهنئة إلى ألبير وشرلوت، وتهنئة إلى السيد ڤرتر؛ وهم يريدون أن يقدموها صباح يوم النيروز» فما سمع ڤرتر هذه الكلمات حتى زهقهُ من الجزع ما ضاق عنه وُسعه، ووهن به جَلده. فأعطى كل واحد من الأطفال شيئًا من النقود وحمَّلهم السلام إلى أبيهم، ثم امتطى جواده وذهب دامع العين مفطور الفؤاد. رجع إلى منزله فى الساعة الخامسة فأوصى خادمته أن تُعنى بالنار وأن تمدها بالوقود حتى تدوم هزيعًا من الليل. وأمر خادمه أن يضع كتبه وأمتعته فى الصندوق وأن يصر ملابسه فى صرة. ومن المحتمل أنه كتب حينئذ الفقرة الآتية من كتابه الأخير إلى شرلوت:

«أنت لا تنتظرينني! تحسبين أنى أطيعك فلا أراك إلا ليلة العيد! لا وأبيك يا شرلوت، إما لقاء اليوم وإما فراق الأبد.

فى ليلة العيد ستتناولين هذه الورقة بيدك فترتعدين، ثم تبللينها بدمعك الغالى العزيز. أنا أريد ذلك[2]... وأراه واجبًا... ما أسعدنى بهذا العزم الذى لا يتزعزع ولا يحور».

---

(١) عيد رأس السنة.

(٢) يريد الانتحار.

على أن شرلوت كانت إذ ذاك فى مأزق حرج وحال سيئة، فقد دلها حَديثها الأخير مع ڤرتر على مبلغ ما سيلقاه كلاهما من الأسى والألم لفراق صاحبِه. ،قد اتفق أن قالت أمام ألبير إن ڤرتر لا يعود قبل ليلة العيد. ثم عرض لألبير أمر مع بعض الحكام فسافر إليه على جواده، ولن تتسنى له العودة قبل الغد. فبقيت شرلوت فى المنزل وحدها لا يؤانسها من عشيرتها أخ ولا أخت، فاستسلمت صامتة لأفكارها وهواجسها، ومر على قلبها حال نفسها وحرج موقفها، فرأت أنها متصلة أبد الدهر برجل تعرف فيه الوفاء والحب، وتضمر له الإخلاص والود، وتجد فى أخلاقه المتينة الرضية ضمانًا قويًا لسعادة امرأة فاضلة، وتذكر له أياديه عليها وعلى عشيرتها الأقربين ثم رأت تلقاء ذلك ڤرتر وقد أصبح إليها حبيبًا وعليها عزيزًا، فوجدت أن نفسيهما تآلفتا منذ تعارفتا، وأن عشرتهما المستمرة، ومودتهما المتبادلة، وعواطفهما المتجددة، قد تركت فى قلبيهما أثرًا لا يعفو على الزمان ولا يبيد. تعودت أن تساهمه ما تفكر فيه وما تشعر به، فخشيت أن يحدث فراقه فى حياتها فراغًا لا يملأ وصدعًا لا يُرأب. آه: ما كان أسعدها لو أمكنها أن تحوله الآن أخًا لها! أو تزوجه على الأقل من إحدى صواحبها! أو تقوى ما وهن من أسباب المودة بينه وبين ألبير. ثم عرضت فى نفسها جميع صواحبها واحدة فواحدة، فأخذت على كل منهن شيئًا فى أخلاقها، ونقصًا فى طباعها، ولم تجد فيهن من تستحق أن تتخلى عنه لها.

أحست شرلوت لأول مرة ـ دون أن تعترف صراحة بما تحس ـ زن رغيبة قلبها ومُنْية نفسها أن يكون ڤرتر خالصًا لها دون سواها. ولكن

صوتًا منأعماق ضميرها ناداها: «هيهات! لا تستطيعين أن تستخلصيه فقد غدا عليك حرامًا» فسقط قلبها النقى الطاهر بعد خلوه من الهم أو اضطلاعه به رازحًا تحت عبء من الحزن لا يشعر به إلا من دجا أمامه اليأس فلم يجد أثرًا للسعادة.

على تلك الحال الأليمة والبال الكاسف قضت شرلوت يومها. فلما انتصفت الساعة السابعة من مسائه سمعت خطوات ڤرتر على السلم صوته على الباب يسأل عنها. فخفق قلبها لقدومه ـ ولا بأس أن نقول ذلك ـ وتلك كانتأول مرة؛ فهمَّت بأمر الخادم أن ينكروجودها لولا أن دخل. فلم تر بُدًّا من قولها له بلهجة الولهان الذاهل: «إنك لم تصدق فى قولك، ولم تبر بوعدك» فقال لها: ما قلت ولا وعدت. فقالت: «لقد كان أقل ما يكون أن تجيبنى إلى ما سألت ابتغاءً لراحتى وراحتك» فما كان من ڤرتر إلا أن وضع كتبصا كانت معه ثم طلب غيرها. أما شرلوت فما كانت تدرى ما تقول ولا ما تفعل. ثمَّ عنَّ لها أن تبعث خادمها فى طلب فتاتين من صواحبها تشهدان الحديث، حتى لا تكون فى خلوة مع ڤرتر. وبقيت مترددة بين عاملين مختلفين، فتارة تتمنى أن تجئ الصاحبتان وتارة تتمنى ألا تجيئا. فلما عادت الخادم تحمل جوابيهما بالاعتذار خطر لها أن تأمر هذه الفتاة بالمكث فى الغرفة المجاورة، ثم بدا لها فأمسكتْ. وأخذ ڤرتر يمشى فى الغرفة ذَهابًا وجيئة، وحاولت هى أن توقع على بيانها لحنًا فما استطاعت. فعادت إلى مكانها وجلست هادئة

بجانب ڤرتر ـ وقد أخذ مجلسه المعهود من الكنبة[1] ـ ثم قالت له: أما معك ما تقرأه فأسمع؟ فأجابها لا شيء معى. فقالت: إن فى درجيَ تلك الأناشيد التى ترجمتها أنت من أُسيان لم أقرأها بعدُ أملًا فى أن أسمعها منك، فما سنحت الفرصة ولا سمح الزمن. فتبسم ڤرتر وذهب يأتى بمخطوطه، فما مسه حتى استقلته الرعدة، وما فتحه حتى غلبه البكاء، فرجع بالكتاب إلى مكانه وأخذ يقرأ:

* * *

«يا كوكب الشفق ويا نجمة الليل الوليد! ما أعجب أن ينير الغربَ ضوءك اللألاء، ويسمو فوق الغمام جبينك الوضاء، وتنتقل خطاك فوق الربوة بعزة وكبرياء!

عمّ يبحث طرفك الساجى فى سهول الخَلنج؟

«لقد سكنت رياح العاصفة، وبلغ أسماعنا دَوى السيل من بُعد، ولعبت صواخب الموج على أقدام الصخور الوعرة، وانتشرت حشرات الليل الطنانة زُمرًا فى الحقول.

«ماذا تنظر أيها الكوكب الجميل؟ مالك تبسم ثم تختفى؟ إن الأمواج تسارع إليك، وترقص حواليك، وتبلل ذلك الفخم الجميل!

«اذهب بسلام أيها النور الصامت الهادئ، ولُحْ بجلاء يا نور نفس أسيان!».

---

(١) آثرنا هذه الكلمة الأعجمية على الأريكة والصفة والمسورة لأنها أدق فى الدلالة على معناها ولا تخرج عن الأوزان العربية.

«بدا النور أشدّ ما يكون تألقًا وزهوًّا، فرزيت صحابتى المتوفين وقد تجمعوا حول لورا كما كانوا يفعلون فى تلك الأزمن السعيدة الخالية. وتقدم فنجال كأنه عمود من ضباب نديّ، وقد أحدق به أبطاله، والتف حوله أشباله. وأقبل الشعراء أولو الأناشيد الخالدة: فهذا أولين ذو الشعَّر الفضى، وذاك رينو الجليل العظيم، وهناك أُلبين ذو الصوت الرخيم، وهنا مينُونا ذات اللهجة الشاكية العذبة.

لَشَدَّ ما تغيرتم أيها الصحاب بعد أيام سِلْمى! تلك الأيام التى كنا نتقاتل فيها على جواذز الغناء تقاتلًا لينًا محمودًا كأنفاس الربيع الضاحك تهب من فوق الآكام والربى، فتخدّد الأعشاب[1] الكثيفة، وتحنى السيقان الضعيفة. هذه ميلونًا تتقدم وكأنها مثال الجمال أو إلهة الحسن. نظرائها مصوَّبة إلى الأرض، وعيناها مخضلتان بالدمع، وشعرها المرسل الأثيث يهتز فى يد النسيم الهابط من الربوة.

«ولما ارتفع صوتها الرخيم الحنون بالرثاء خيم الحزن على قلوب الأبطال. لأنهم طالما أبصروا قبر سُلجار، وشاهدوا ظلام بيت كُلْمى فى أحضان الثلج.

«لقد كانت كُلْمى ذات الصوت العذب وحدها على الربوة تنتظر إياب سُلجار وقد وعدها أن يؤوب. على أن الليل أرخى سدوله على الربى والبطاح ولم يعد المنتظر. اسمعوا صوت كُلْمى وهى وحدها جالسة على الربوة».

---

(١) تخدد: تشقق.

كُلْمى

«غشينى الليل بظلامه وأنا وحدى منسبة على الربوة وقد هاجمتها الزوابع. الريح تعصف فوق الجبال، والسيل يتدفق مُدَويًا بين الصخور، ولا ملجأ لى من المطر ولا كنَّ؛ أنا وحدى متروكة على الربوة وقد هاجمتها الزوابع».

«اخرج أيها القمر ساطعًا من بين الغيوم، وانشرى أضواءك الزاهية يا نجوم الليل، فعسى أن أهتدى إلى حيث يستريح حبيبى من متاعب الصيد، وقوسه المُرْخاة ملقاة إلى جانبه، وكلابه اللاغبة راقدة من حوله! ولكن كُتِبَ عليّ أن أبقى هنا فريدة على الصخرة المعشبة! إن السيل يزخر، والعاصفة تزأر، فلا أستطيع أن أسمع صوت حبيبى!

«لماذا تبطئ يا حبيبى سُلجار؟ هل نسيت موعدك؟ هذه هى الشجرة، وتلك هى الصخرة، وها هو السيل يدوى! لقد وعدت أن تكون هنا مع الليل! والهفتاه زين ضل حبيبى؟ كنت أريد أن أفر معك بعيدًا عن أبى الجبار وأخى المتكبر.

لقد جف[1] الثرى بين قومينا فتعاديا منذ طويل. أما نحن فلسنا عدوين يا سُلجار! احبس نَفَسَك أيها الهواء لحظة، وقِفْ جريانك أيها السيل لمحة، فعسى أن يرن صوتى فى جوف الوادى فيسمعه حبيبى التائه!

سُلجار! هأنذا أدعوك! هذه هى الشجرة، وتلك هى الصخرة.

---

(١) كناية عن العداوة والخصومة.

حبيبى سُلجار! هلمّ إليَّ فهأنذى. لماذا أبطأت فى العودة؟ انظر! لقد أسفر القمر فى السماء، وتلألأت الأمواج فى الوادى، وابيضّت الصخور على جوانب الهضبة، وحبيبى لا أراه فوق القمة، وكلابه لم تسبقه معلنة قدومه. لقد كُتب عليّ أن أبقى هنا وحيدة!

ولكن من هذان الراقدان هناك فوق سهول الخلَنْج؟ أهذا حبيبى؟ أذاك أخى؟ ردّا عليَّ الجواب يا خليليّ.. ويلاه إنهما لا يجيبان! واحر قلباه من حزن يذيبه وجوى يحرقهُ! لقد ماتا وبجانب كل منهما سيفه تجرى على ماء حديده نار الدماء. أخى! لِمَ قتلت حبيبى؟ حبيبى! لم قتلت أخى؟ لقد كنتما عزيزين عليّ. كان حبيبى أجمل الرجال فى الجبل، وكان أخى أشجع الأبطال فى المعركة. أجيبا النداء واسمعا الصوت يا خليليّ! ولكن هيهات! لقد أصابهما الخرس الأبدى فعَيّا عن الجواب، وبردت أحشاؤهما فأصبحت كصعيد الأرض!

كلمونى يا أرواح الموتى من فوق الهضبة ومن أعلى الجبل. كلمونى فإنى لا ارتاع ولا أفزع. خبرونى أين تلتمسون الراحة؟ أفى الغيران والكهوف أوافيكم فألاقيكم؟ حنانيك يا رب! لا يحمل الهواء إليّ صوتًا، ولا ترد العاصفة عليّ جوابًا! زنا وحدى فى وسط الآلام، أنتظر الصباح باكية بدموع الغمام! احفروا القبر يا أصدقاء الموتى، ولا تَهيلوا التراب قبل أن تأتى كُلْمى! مضت حياتى مُضيّ الحلم، وسبق الذين أحبهم فَلِم أتأخر عنهم؟ هنا أريد الثواء بجانب الأحبة على ضفة الجدول الهادر فوق الصخرة!

«حينما يضرب الليل بجرانه على التَّلعة، وتهب الريح رُخاء فوق الخلَنج، تجدون هناك روحى مع الهواء تبكى الأحبة وترثيهم

سيسمعنى الصائد فى كوخه فيفزعه صوتى، ولكنه لا يلبث أن يحبه، فإن صوتى سيكون عذبًا رخيمًا فى رثاء الحبيبين. لقد كان كلاهما عزيزًا عليَّ!».

* * *

هكذا كان غناؤك يا مينُونا يا ابنة طرمان، يا ذات الوجنتين المضرّجتين بحمرة العفاف والخجل. لقد سالت مدامعنا وجويت نفوسنا رحمة لكلمى.

ثم تقدم أُولينُ ومعه قيثارته فأسمعنا نشيد أَلْبينَ. كان صوت أَلْبينَ رخيمًا، وكان رينو متوقد النفس عظيمًا، ولكن المنية علِقتهما معًا فما تسمع نبرات صوتيهما فى سلمى!

مرَّ بهما ذات يوم أولينُ وهو عائد من الصيد فسمعهما يتعاقبان الغناء فوق الجبل؛

وكان غناؤهما مطربًا شجيًّا، يندبان به مصرع مورار رأس الأبطال. كانت نفس ورار كنفس فنجال، وسيفه كسيف أسكار، ولكنه خرَّ صريعًا فلم يغن ذلك عنه شيئًا. فبكاه أبوه، وأعولت عليه أخته مينونا الجميلة أخت مورار الباسل!

«لم تكد تسمع مينونا غناء أولين حتى انصرفت كالقمر أنذرته العاصفة بالمطر، ففر إلى الغرب وستر رأسه الجميل بين السحب».

«أما أنا فانطلقت أناملى على القيثارة تتابع أولين فى هذا اللحن المحزن».

رينو

«سكنت الريح، وأقلعت السماء، وصفا الجو، وانقشع الغمام، وشعشعت الشمس وهى هاربة زهور الربى المخضرة، وألقت الأرجوان من نارها على موج الجدول. ما أجمل خريرك أيها الجدول! ولكن أجمل منه ذلك الصوت الذى أسمع: صوت ألبين يندب الأموات ويرثيهم، وقد مالت برأسه الهموم وقرح جفنيه البكاء. مالى أراك أيها الشادى الرفيع وحيدًا على الربوة المقفرة الصامتة؟ ولِمَ تئن أنين الهواء السجين فى الغابة، وتنتحب انتحاب الموج على الساحل البعيد.

ألبين

«إن دمعيَ يا رينو على الأموات موقوف، وصوتى فى رثاء الظاعنين معروف. أنت فوق الربوة جليل عظيم، وبين أطفال السهول جميل وسيم، ولكنك ستُصرع كما صُر مورار، ويقف على قبرك أصحابك لمحزونون يبكونك ويندبونك! ستنساك التلاع، وستبقى قوسك المرخاة مهجورةً فى إحدى زوايا القاعة الكبرى! لقد كنت يا مورار سريعًا كالظبى فوق الجبل، مروعًا كالنار تضطرم ليلًا فى الأفق. وكان غضبك يثور كالزوبعة، وسيفك يلمع كالبرق فى المعمعة، وصوتك أشبه بهدير السيول غِبَّ المطر، أو بقصف الرعود على التلال النائية. كنت إذا حمى الوطيس أطفأته بالدماء، وأحرقت بنار غضبك جسوم الأعداء، فإذا أغمدت السيف عاد صوتك هادئًا كصوت الطفل، ووجهك طلقًا أبلج كالشمس بعد العاصفة، أو كالبدر فى الليلة

الساكنة الصامتة؛ وأصبح صدرك الثائر الهائج كصدر البحيرة إذا ما قرَّ الهواء وسكن. ما أضيق اليوم مثواك! وما أظلم يا مورار مأواك! وما أعجب أن يوارى مجدك وعلاك قبرٌ ذَرْعه ثلاث خطوات! واحسرتاه! لم يبق لمورار القوى القادر من أثر يتبينه السائح غير أربعة أحجار كللت رءوسها الأُشْنَة، وشجرة نضَت أوراقها يد الخريف، وأعشاب سامقة ترقص على صفير الرياح! ليس لك أم تذرف عليك دموع الحنان، ولا خطيبة تسكب عليك دموع الحب! لقد ماتت أمك وهلكت ابنة مُرْجُلان!

«مَن ذلك القادم متوكئًا على عكازته العَقْداء؟ ذلك أبوك يا مورار! أبوك الذى لا ولد له غيرك ولا وزَرَ له سواك! لقد قرع مسمعيه صيتك فى صدق اللقاء، وتشتيتك الأعداء تشتيت الهباء فى الهواء. علم أبوك يا مورار بفعلك العظيم ومجدك السامى، ولكنه واأسفاه لم يعلم بخطبك الجسيم وجرحك الدامى! إبك أيها لوالد ما أرقنت عينُك بالبكاء[1]، ولكن ولدك لا يسمعك. إن نوم الميتين عميق ثقيل، ووسائدهم من الثرى واطئة منخفضة. أبدًا لا يبلغه صوتك ولا يوقظه دعاؤك. متى ينبثق ضوء الفجر فى القبر فيقول للنائم: تيقظ؟ وداعًا يا أشرف الرجال؟ وداعًا يا سيد الأبطال يوم القتال؟ هيهات أن تراك بَعْد هذه الحقول! وهيهات أن يَمِض متْنًا سيفك فى ظلام الغابة! ليس لك من ولد يحمل فى الحياة اسمك، ولكن أغانينا ومراثينا ستخلد ذكرك بعدك، وتنقل إلى الأجيال المقبلة فخارك ومجدك».

(١) من قولهم: أرقنت السماء بالمطر: دامت ولم تقلع.

«فعلًا نحيب الأبطال واشتد بكاؤهم؛ ونفث أرمين من صدره نفثة خفتت دونها الزفرات، وضاع فيها الأنين. أذكره ذلك الرثاء مصرع ولده وهو فى وفرة الشباب وزهرة العمر، فلم يطق حبسًا لزفراته، ولا كفًّا لعبراته. وكان كرمور أمير جَلمالًا جالسًا مع الأبطال، فتقدم إلى أرمين يسأله ـ ما هذه الزفرة الدامية يا أرمين ولات حين بكاء؟ إن أنغام الشعر والغناء لتريض النفس وتبهج القلب وتنعش الخاطر. إنها لأشبه بالبخار الخفيف ينعقد فوق البحيرة ثم ينحل رذاذًا فوق الخمائل والأودية، فيرطب الزهر ويُنَدِّى الشجر. ولكن الشمس إذا ما علا ضحاها تبدد البخار وجف الندى. مالك يا أرمين تعلن الشكوى وتضج من الألم وأنت الحاكم على جُرما المحاطة بالأمواج.

أرمين

« ـ نعم أنا شاكٍ باكٍ حزين، وإن سبب عذابى لقويٌّ مكين! إنك يا كرمور لم تفجع فى ابن رطب العود، ولا فى ابنة ريانة الشباب. لا يزال كلجار الشهم وأميرا الجميلة يتنسمان روْح الحياة؛ ولا تزال فروع دوحتك يا كرمور تزهو وتزهر. أما أرمين فآخر نبعة من أرومته!

«ما أظلم مَرقدك يا دُورا! وما أطول رقادك تحت الثرى! متى تهبين من سباتك العميق فنسمع غناءك العذب وصتك الرخيم؟

«هُبى يا رياح الخريف هُبى! هُبى واعصفى فوق حقول الخلَنْج العابسة، واصدمى أيتها العواصف رءوس السنديان، ودوّى يا سيول الغابة، وتقدم أيها القمر خلال الغيوم الممزقة، واحسر عن وجهك الشاحب فترة بعد فترة، وأعدْ إليّ ذاكرتى تلك الليلة الهائلة المروِّعة،

ليلة دعا داعى الموت ولديَّ فسقط أرندال القوى، وهلكت دورا العزيزة!

ابنتى دورا! لقد كنت جميلة كالبدر على يَفَاع فيرا، بيضاء كالثلج على أجنحة الرياح، رقيقة كأنفاس النسيم فى فم الصباح!

«ولدى أرندال! لقد كانت قوسك صلبة شديدة، وحربتك فى الوغى سريعة سديدة؛ وكان نظرك كالبخار فوق الأمواج، وترسك كالغمامة الملتهبة فى الزوبعة!

«جاء إرمار الصيِّت فى القتال يخطب قلب دورا ويبتغى حبها فلم تنتع عليه طويلًا، فسر ذلك قلوب أوليائه ومحبيه إلا إراط بن أُدْجال فقد أَضَبَّ له[1] على حقد وحسد، لأن أخاه سقط فى حومة الوغى طعين أرمار. تنكر هذا الخائن فى زى ملاح تَوَّجه الدهر بتاج المشيب فبدا على محياه جلاله ووقاره، وأقبل تاركًا زورقه الجميل على الماء حتى لقى دورا فقال: «يا أجمل العذارى ويا ابنة أرمين الفاتنة! هناك على تلك الصخرة القريبة من الساحل ينتظرك أرمار. وقد جئت أدعوك يا حبيبة قلبه لأعبر بك البحر المزبد إليه»، فما ترددت دورا ولا كذبت، بل اقتفت أثره وربكت زورقه حتى دنت من الصخرة، فنادت أرمار فلم يجبها غير صداها! «أرمار يا حبيب مهجتى! أرمار يا مؤنس وحشتى! لم تركتنى فريسة الهم والقلق؟ سَمَاع يا ابن إرناط سماع! إن دورا هى التى تهيب بك وتدعوك.

(١) أضب له على حقد: أضمره ونواه.

«تركها الخائن إرناط على الصخرة بين الأمواج وارتد إلى الساحل ضاحكًا. فأخذت المسكينة ترفع عقيرتها مستغيثة بأبيها وأخيها: أخى أرندال! أبى أرمين! أما يأتى أحدكما فينقذ من يد الموت قرة عينه دورا؟

«عبر صوتها البحر إلى مسامع أرندال وقد كان هابطًا من الربوة موقرًا بمغانم الصيد؛ قوسه فى يده، وسهامه ترن إلى جانبه، وخمس سلوقيات[1] غُبْرٍ ضوامر تلهث من حوله. فرأى على الشاطئ إراط المقدام فشد وثاقه وربطه فى سنديانه، فملأ أنينه الج، وبلغ عويله السماء. ثم دفع أرندال زورقه بين الأمواج يريد خلاص دورا. فجرى القضاء المحتوم زن يأتى الساعة أرمار وهو لا يعرف نفسه من الغضب، فظن الأخ عدوًا فرماه بسهم مُرَاش لم يجد موقعه إلا فى قلبه. يالشقاء الجد يا ولدى! لقد أقصدتك[2] نبلة ريشت للعدو، وأصمتك ضربة كانت للخائن!

«وقف المجداف فجأة، ووقف بك الزورق على الصخرة يحث فاضت روحك بين يدى أختك! وارحمة لك يا دورا! ما أشد عذابك وأفدح مصابك حين خضبت قدميك دماءُ أخيك!

«نهشت الأمواج الزورق فتحطم، فلم يجد أرمار حيلة لخلاص دورا إلا أن يلقى بنفسه فى اليَمِّ، فإما أن ينقذها وإما أن يموت. سبح أرمار فوق الماء، وقضت مشيئة الله أن يجل الخطب، ويفدح الرزء،

---

(١) كلاب الصيد.

(٢) أقصده السهم: أصابه فقتله مكانه، وكذلك أصماه.

فأرسل من صياصى الجبال عاصفة هوجاء أثارت غضب البحر فابتلع أرمار!

«والهف نفسى على ابنتى وحدها على الصخرة ترسل أنَّاتها مع الرياح إلى الجهات الأربع! كانت صرخاتها حادة متواصلة، وأبوها لا يملك لها نفعًا، ولا يغنى عنها شيئًا.

«سهرتُ الليل كله واقفًا لعى الشاطئ أنظر إليها فى أشعة القمر الشحبة وما فتر صراخها طول الليل ولا همد. كان الهواء عاصفًا يملأ الجو صفيرُه، والمطر واكفًا يصك الجبل هديره، وابنتى ترسل الصيحة إثر الصيحة حتى خشع صوتها قبل الصباح وخفت. ثم غاب ذلك الصوت وذهب كما تذهب نسمات المساء بين أعشاب الصخور؛ وماتت ابنتى منهوكة القوى من الحزن والألم، وخلفت أرمين بنى مخالب اليأس وحيدًا. واحسرتاه! لقد قتل من كنت أتقوى به يوم الطعان، وماتت من كنت أفخر بها على الكواعب الحسان!

«كلما هبطت زوبعة من الجبل ولعبت ريح الشمال بالموج جلست على الشاطئ الهدار أنظر إلى تلك الشجرة المشئومة! وكثيرًا ما ألمح عند أفول القمر طيْفى ولديَّ يجولان معًا فى ضباب الفجر حزينين باكيين؟

* * *

انهلَّت مدامع شرلوت انهلال القَطر فنفَّستْ عن صدرها المكروب

وقطعتْ قراءة ڤرتر. فرمى الكراسة من يده وأخذ يدها ثم تساتل[1] دمعه وانهمل. أما شرلوت فاعتمدت على يدها الأخرى وسترت وجهها بمنديلها؛ وكان انفعالهما المشترك قويًّا شديدًا: رأى كل منهما عثار جده وسوء حظه فيما قدر لأبطال أسيان، فاتحد الأسى وامتزج الدمع. ووضع ڤرتر شفتيه الملتهبتين وعينيه المتقدتين على ذراع شرلوت فارتعدت. وأرادت أن تبتعد فَعَلْها الإشاف وكبّلها الألم فلم تستطع حراكصا. وأخذها الخُناق فبالغت فى الشهيق، وحاولت أن تعود إلى نفسها فأقسمت على ڤرتر بنغمة قدسية عذبة أن يواصل القراءة. فاضطرب ڤرتر وخيل إليه أن قلبه يكاد ينفطر، ثم تناول الكراسة وأخذ يقرأ بصوت يتهدج من النحيب، ويتقطع من الوجد:

«لِمَ توقظيننى يا أنفاس الربيع؟ هذه نفحاتك الحلوة تلاطفنى وتقول: «إنى أقطِّر لك الندى، وأسكب عليك طل السماء»، ولكن وقت ذبولى قد أفد، وأوشكت العاصفة التى تسقط أواقى أن تهب. وغدًا يأتى المسافر الذى عرفنى فى شبيبتى وجمالى فيفتس عنى فى الحقول، ويطلبنى فى السهول، فلا يجد لى خبرًا ولا أثرًا».

فوقعت هذه الكلمات المؤثرة فى قلب المغرم المسكين وقوع العبء الفادح على الكاهل الواهن المنحلّ. فارتمى على قدمى شرلوت فى حال من اليأس لا توصف. وأخذ يديها ووضعهما على عينيه، ثم على جبينه، فخيل إليها أن عزمه[2] المروِّع قد مر فى

(١) تقاطر وتتابع.
(٢) عزمه الانتحار.

قلبها مروع السهم فى الرميّة. فاضطربت مشاعرها وخارت قواها، فضغطت يديه ثم ضمتهما إلى صدرها، ومالت عليه منفعلة ثائرة، فتماسّ خداهما المحترقان وامّحى أماهما العالم بأسره. حوطها بذراعيه، وضمها إلى حِضنيه، ثم أنحى إلى شفتيها المضطربتين المغمغمتين بالقبل القوية الحارة. فأعرضت عنه وصاحت بصوت مختنق: «ڤرتر!» ثم أزاحته عن صدرها بيد فاترة، وقالت مرة أخرى بلهجة ثابتة تدل على أشرف الأخلاق وأنبل العواطف: «ڤرتر؟».

لم يقاوم ڤرتر، بل تركها تقلت من بين ذراعيه ووقف أمامها ساهمًا مشدوهًا كأنه أبله. واتجهت هى نحو الباب فزعة مسرعة تقول وفى قولها رنة الغرام والغضب: «تلك آخر مرة يا ڤرتر! هيهات لن ترانى بعد!»، وألقت على البائس الواله نظرة تفيض بالحب، ثم لجأت إلى الغرفة المجاورة وأغلقت عليها.

ما زاد الفتى على أن بسط ذراعيه إليها دون أن يحاول اعتياقها، وجسمه ممدد على الأرض، ورأسه مُسنْد إلى الكنبة؛ وبقى على تلك الحال أكثر من نصف ساعة، ثم عاد إلى نفسه على حركة الخادم وقد أقبلت تمد الخوان. فقام يتمشى فى الغرفة حتى رأى نفسه وحيدًا، فتقدم نحو الحجرة التى لجأت إليها ونادى بصوت خافت: «شرلوت! شرلوت! برِّدى حشاى بلفظة. ودّعى الظاعن بكلمة. حنانيك لا أطلب إلا ذاك» فلم ترد عليه جوابًا. فانتظر ثم تضرع ثم انتظر، فلما أبطأ الرد ولى مديرًا وهو يصيح: «وداعًا يا شرلوت! وداعًا إلى الأبد!» وأخذ سمْتَه إلى باب المدينة، فتركه الحرّاس يمرُّ دون أن يكلموه لاعتيادهم رؤيته على مثل حاله.

خرج منالمدينة ڤرتر والرياح شديدة عاصفة، والسماء مُثْلجة واكفة، فلبث حتى الساعة الحادية عشرة، ثم عاد إلى منزله فرآه خادمه منغير قبعة فلم يجرؤ على تنبهه؛ ونضا عنه أثوابه فوجدها مبللة. ثم رأى بعض الناس قبعته بعد حين فوق صخرة على سفح الهضبة، فلا جرم أنه تسلقها فى ليلة حالكة ماطرة دون أن يسقط.

نام تلك الليلة ملء جفونه. ولما أصبح الصباح دخل عليه الخادم بالقهوة فوجده مكبًا على الكتابة. كان يضيف هذه الأسطر التالية على كتابه إلى شرلوت:

«تلك إذن هى المرة الأخيرة التى أفتح فيها عينيَّ! واأسفاه! إنهما لن يريا ضوء الشمس بعد. الشمس محتجبة الغمام، والسماء منتقبة بالظلام، وهكذا فليكن حدادك أيتها الطبيعة. إن ابنك وحبيبك يقرب من نهاية أيامه، ويدنو من ساعة حمامه. شرلوت! إن الشعور الذى يشعر به المرء ساعة يقول لنفسه: «ذلك هو يومى الأخير» لا يوزايه شعور ولا يقاربه شيء؛ اللهم إلا عواطف الأحلام المبهمة. الأخير؟ هذه الكلمة يا شرلوت لا أفهم لها معنى. ألستُ اليوم فى مرح القوة ووفور العافية؟ وغدًا سأكون طريحًا على الثرى دون حركة ولا قوة. الموت! ما معنى الموت؟ ألا ترين أنا نحلم كلما تكلمنا عن الموت؟ لقد رأيت كثيرًا من الناس ماتوا، ولكن الإنسانية محدودة الإدراك فلا تستطيع أن تفهم لوجودها أصلًا ولا غاية.

أنا اليوم لا أزال لنفسى، بل لك يا حبيبة القلب! وفى لحظة واحدة ينسدل بيننا حجاب القدر فنتفرَّق ويفقد كلانا الآخر؛ ربما كان ذلك

إلى الأبد! لا لا يا شرلوت! كيف يعرونى الفناء وكيف يطويك ونحن مع ذلك نعيش ونوجد؟ ما معنى الفناء أيضًا؟ إنها كلمة جوفاء لا تُسفِر عن معنى ولا تدل قلبى على شيء: أمعنى الموت يا شرلوت أن أغيَّب فى جوف الأرض وأقبر فى لحد ضيق مظلم؟ يا للهول!

لقد كان لى فى شبابى المفقود صديقة لا تعرف سواى، فعدا عليها الموت، فشيعت جنازتها مع المشيعين، ثم وقفت على شفا الحفرة ورأيتهم وهم يدخلون فيها الناووس، وسمعت جرجرة الأحبال وهى تُحل وتجذب، ورأيت الهيْلة الأولى تسقط على التابوت فأخرجتْ منه صوتًا أصم ما زال يزداد على الانهيال صممصا حتى توارى الناووس تحت الثرى. فجثوت على ركبتى بجانب القبر مبللًا مأخوذصا يفيض الهم من جوانب قلبى المصدوع! ولكننى كنت أجهل ما يحدث أمامى، وما يتظرنى فى آجل أيامى. موت! فناء! قبر! كلمات مخيفة لا أفهم لها معنى ولا أردى لها حقيقة.

آه! عفوًا أيها الملاك وصفحًا! أمس! يا لله من أمس! ليته كان آخر عهدى بالحياة! أجل أيها الملاك الكريم! تلك كانت أول مرة شعرت فيها يقينًا بسرور نفسيٍّ، وشعور قدسيٍّ، سريا فى عروقى وجريا فى دمى، فاهتز بهما جثمانى، وفاض بهما وجدانى. ذلك لأنى علمت أنك تحبيننى! نعم تحبيننى! وهذه النار المقدسة التى سرت من شفتيك لا تزال تحرق شفتى! ألا إن نشوة شديدة جديدة قد ملكت مشاعرى، وملأت قلبى وخاطرى، فعفوًا يا ملاك وصفحًا!

آه! لقد كنت أعلم يا شرلوت أنك تحبيننى. نعم كنت زعلم ذلك

منذ تصافحنا لأول مرة، ومنذ رميتنى بنظراتك الأولى التى تمثلت فيها نفسك، وتجمع فيها حسك، ولكنى كنت مع هذا إذا تركتك أو رأيتك مع ألبير أخذتنى حمى الشك وملكنى شيطان الغضب. أتذكرين تلك الأزهار التى بعثت بها إليَّ عقب ذلك المجتمع البغيض الذى لم تستطيعى فيه أن تكلمينى أو تصافحينى؟ لقد قضيت تصف الليل جاثيصا زمام تلك الزهرات وهى تحدثنى عن حبك وغرامك، ولكن واأسفاه! لقد امَّحت تلك الانفعالات كما يمَّحى على التدريج من قلب المؤمن شعوره بفضل الله الذى أسبغه عليه وأسداه إليه!

كل ذلك يعفو على الزمن ويبيد؛ ولكن الحياة المضطرمة التى قبستها من شفتيك بالأمس لا يقوى الأبد على إطفائها وإفنائها. إنها تحبنى! وساعداى هذان قد التفَّا عليها، وشفتاى هاتان قد اضطربتا على شفتيها، وفمى هذا قد تمتم على فمها الضاحك العذب: إنها لى! أجل إنك لى يا شرلوت إلى الأبد! ماذا يهمنى أن كان ألبير زوجًا لك؟ زوجًا لك! إن ذلك فى رأى هذا العالم وحده، فى رأى هذا العالم الذى يعد حبى إياك خطيئة، ويرى انتزاعى لك من ذراعيه إلى ذراعى خطيئة. خطيئة! إن تكن فقد عاقبت نفسى عليها. لقد تلذذت بهذه الخطيئة ومتعت بمذاقها السماوى العذب، وسقيت منها القلب شرابًا طهورًا، وقبسته حياة وقوة وسرورًا: أنتِ لى منذ تلك اللحظة يا شرلوت. وسأتقدمك رلى أبى وأبيك فأشكو إليه همومى فيعزينى ويسلبنى ريثما تقدمين. فإذا ما قدمتِ طرت إليكِ، واستوليت عليك، ثم نقف أمام الخالق الأزلى ونفسانا ممتزجتان وجسمانا متحدان بعناق دائم سرمد.

أنا لا أحلم ولا أهذى. بل النهار يضئ ساطعًا فى عينى كلما دنوت من باب القبر. إنا سنوجد يا شرلوت، وسيرى كل منا الآخر، وسألقى أمك. أجل، سأراها وألقاها، وأفضى إليها بذات صدرى ودخيلة أمرى، فهى صورتك التامة الكاملة».

* * *

قبيل الساعة الحادية عشرة دعا ڤرتر خادمه وسأله أعاد ألبير؟ فأجابه أن نعم. فحمله رسالة مفتوحة إليه يقول فيها:

«لك الفضل يا صديقى إن سمحت بإعارتى غدارتيك أحملهما فى سفرة أمعتها. وإنى أستودعك الله!».

أما شرلوت المسكينة لم تنم تلك الليلة إلا غِرارًا. فقد كان ما خشيت أن يكون. كان ولكن بطريقة لم تحسها ولم تتوقعها، فعاد دمها الساكن المنتظم ثائرًا فوارًا؛ وألَحَّت العواطف المتناقضة المبهة على ذكل القلب الكريم فهوشته وأضرمته. هل كان ذلك لظى النار التى أشعلها فى صدرها عناق ڤرتر؟ أم من السخط الذى نالها من جرأته وإقدامه؟ زم كان ذلك لموازنتها المؤلمة بين حاضرها الظنين المروع، وماضيها الرخِيِّ البرئ، أيام كانت طليقة من عقال الهم شديدة الثقة بنفسها قوية الأمل فى حياتا؟ كيف تقف أمام زوجها؟ وكيف تَقِفه على هذا الأمر؟ وهل فيه ما تخشى الاعتراف به؟ على أنها الت تستطيع مع ذلك أن تنشره ولا أن تذكره. لقد لزم الزوجان الصمت منذ حين، فهل تكون هى أول من يقطع ذلك الصمت بحكاية ذلك الخبر الطارئ فى وقت غير مناسب. لقد كانت تخشى

أن يكدر زوجها زيارة ڤرتر البسيطة؛ فكيف إئا علم بهذه النازلة؟ هل كان فى مرجوِّها أن يرى ألبير هذا المشهد على حاله فيعلم أمرها من غير سوء، ويحكم عليها منغير ريبة، ويقرأ فى صحيفة قلبها البيضاء براءة نفسها ونقاء ضميرها؟ زم كان فى حسبانها أن تكاتمه الزمر وتطوى عنه الخبر؟ وما أدرى كيف يستطيع هذا القلب المفتوح أن يمسك على مافيه، وماعهده ألبير إلا ناصح الدِّخلة مأمون المُغَيَّب؟ ما حاولت شرلوت يومًا أن تدافع زوجها عن قلبها، فما زوت عنه سرًّا ولا كتمت دونه عاطفة. لذلك اعتراها من هذا الأمر اترتباك وقلق، وأخذت خواطرها تذهب وتعود فلا تقع إلا على ڤرتر، ذلك الذى هلك فى سبيلها فلا تستطيع أن تقطعه، ولاتجد فى وسعها أن تنفعه. وإذا ما فقدها فلن يكون له فى العالم أحد، ولن يبقى له فى الوجود شيء.

ماكانت لاضطرابها تستطيع أن تلحظ ذلك الفتور الذى كان لأجلها بين ألبير وڤرتر. فقد تعادى ما بين الرجلين على رجاحة عقليهما، وسمو فضليهما، ولزما جانب الصمت المطلق، وذهب كل منهما إلى النظر فى شأن أخيه فرأى الخطأ فى جانبه. ثم استفحل الأمر واستحكم الخلاف حتى أعضل الحلّ وعز الوفاق فى أشد الأوقات حرجًا، وأمسها بحسن الظن حاجة. فلو أن الثقة عادت إلى الصديقين، وتجدد التسامح والحب بين القلبين، لكان من الممكن أن ينجو صديقنا المسكين.

ومما زاد شرلوت اضطرابًا وحيرة أن ڤرتر لم يحاول كتم ما فى

نفسه من بغض هذا العالم ورغبته الشديدة فى تركه. ولطالما كانت هذه النية التى جد فى محاربتها ألبير موضوع الحديث بينه وبين زوجه. وكثيرًا ما دعاه مقته الانتحار إلى أن يقول بلهجة ليست من عادته ولا طبعه إن ذلك لا يصدقه، ولا يعتقده فى ثرتر ما يحققه. وربما خرج فى حديثه مع شرلوت عن هذا الأمر إلى التهكم به والسخر منه؛ فكان ذلك يذهب خيفتها ويسكن روعها كلما تمثلت فى ذهنها تلك الفاجعة الأليمة. على أنها ما كانت تستطيع الإفضاء إلى ألبير بتلك المخاوف التى كانت أوانئذٍ تهاجم قلبها وتذكى حشاها.

* * *

عاد ألبير فخفت إليه شرلوت فى عجلة وربكة، فلم تجده مشروح الصدر ولا صافى النفس، لأن أعماله لم تنجز، ولأنه وجد فى حاكم المقاطعة المجاورة رجلًا شكس الخلق صعب المراس دنئ الطباع. ذلك إلى ما لقى فى الطريق من وعورة ومشقة كدرت صفوه وغيرت مزاجه. سألها عماكان فى غيبه فأجابته فأن ثرتر جاءها ليلة الأمس. فقال لها ألبير: ألم يرد إلى مع البريد رسائل؟ فقالت: بلى جاءتك رسائل وأضاميم فوضعتها على مكتبك فى غرفتك. فذهب إلى مكتبه، وبقيت شرلوت وحدها وقد تفتح قلبها لانفعالات جديدة فى حضرة هذا الرجل الذى تحبه وتجله، ووجدت فى ذكرى كرمه وحبه وحنانه روحصا من الرخاء والهدوء لنفسها القلقة المعذبة. فشعرت فى نفسها بقوة خفية تدفعها إلى اللحاق به. فأخذت نسيجها فى يدها وذهبت إليه على عادتها، فوجدته مشغولًا بفض رسائله وقراءتها،

وكان بعضها يحمل أنباء لا تسر، فألقت عليه بعض مسائل أجاب عنها باختصار ثم جلس إلى مكتبه وطفق يكتب.

لبثا على تلك الحال ساعة من نهار. وكانت شرلوت تنقبض من حين إلى حين، وترى من المستحيل أن تصارح زوجها بدخيلة أمرها ولو كان فى خير حالاته وأسر أوقاته. فأخذها الحزن واحتضرها الهم، وكادت تنفجر لولا أن ملكت نفسها، ونهنهت دمعها، ولكن ظهور خادم ڤرتر فى تلك الساعة أتم عليها الحيرة وجاز بها حد القلق.

تقدم الخادم إلى ألبير وناوله بطاقة ڤرتر فقرأها، ثم التفت إلى امرأته وهو هادئ مطمئن وقال لها: «ناوليه الغدارتين»، ثم قال للخادم: «قل لسيدك إنى أرجو له سفرة حميدة، ورحلة سعيدة»، فوقعت على شرلوت هذه الكلمات وقوع الصاعقة. ثم نهضت حيرى يميد بها الشجو ويهفو بها القلق وهى لا تدرك شيئًا مما تحس وتشعر. وتقدمت إلى الحائط فى وناء وبطء فنزعت الغدارتين بيد واجفة ومسحت عنهما الغبار ثم وقفت مترددة. ولولا نظرة من ألبير خرجت بها عن موقف الحيرة لطال التردد وزادت الربكة. فدفعت السلاح المشئوم إلى الخادم دون أن تنبس بحرف. وشيعته بنظرها الحائر إلى باب الدار. ثم التقطت نسيجها من الأرض وانزوت فى غرفتها والقلق يعبث بها عبث الزعازع الهوج بالشجرة المتهدلة الغضة. وما كان وحى قلبها إلا المخاوف المروعة والأهوال الفظيعة. فتارة تريد أن تلقى بنفسها على قدمى خطيئتها المستترة ومخاوفها المتوقعة، وتارة ترى أن تلك طريق لا توفى بها على القصد، ولا تخرج منها إلى الغاية، فيتأس من حمله على الذهاب إلى ڤرتر.

مُدّ الخوان وأعدت المائدة. واتفق أن جاءت صاحبة تريد شيئًا على عجل فحجزاها للطعام، فكان حديث المائدة بسببها محتمًا مقبولًا، فإن الزوجين كظما على ما فى نفسيهما وتشقق الحديث فلها كل من شأنه.

عاد الخام بالغدارتين إلى ڤرتر ونبأه أن شرلوت هى التى ناولته إياهما فقبلهما جذلان طرب. ثم تناول ما أعد لنفسه من خبز ونبيذ بعد أن صرف الخادم يتناول غداءه ثم جعل يكتب:

«سلمتِهما إلى الخادم بيديك، ونفضتِ عنهما الغبار بيديك، فأنا أقبلهما ألف قبلة لأنك لمستهما ومسحتهما. أنت يا ملاك السماء أسعفتنى بحاجتى، وسهلت علىَّ تنفيذ رغبتى. أنت يا شرلوت التى قدمت إلى السلاح، ومهدت لى طريق الموت لقد كنت أطمع أن أنال شهد الحياة منك، وهأنذا اليوم أتجرع صاب الردى من يدك!

«كم سألت خادمى وسألت! فقال لى إنك كنت تضطربين ساعة ناولتِه السلاح، وإنك لم تحمليه وداعًا إلىّ! واأسفاه! وا ويلتاه! حتى الوداع لا أظفر به منك! هل أغلقت أبواب قلبك دونى من جراء تلك اللحظة المقدسة التى ربطتنى وإياك إلى الأبد؟ شرلوت! ستمر ألوف من السنين وتكر، ويتغير كل ما على الأرض ويعفو، إلا أثر تلك اللحظة، فإنه باق على الزمن لا يَمَّحى ولا يبيد. أجل، أشعر أنك لا تبغضين ذلك الذى يحترق فى سبيلك، ولا يتبع فيما يعمل دليلًا على دليلك».

ثم أمر خدامه بعد الغداء أن يحزم الصرر ويعد الحقائب، ومزق

جملة كبيرة من الأوراق، وخرج فقضى ما عليه من دون يسيرة؛ ثم عاد وما لب أن خرج تحت المطر الوابل إلى ظاهر المدينة يؤم حديقة الكنت. فتجول ما شاء فى الحقول ولم يعد إلا مع الليل. فدخل غرفته وأخذ يكتبك

«رأيت يا وليم السموات والغابات والمزارع لآخر مرة، أستودعك الله يا أمى العزيزة البرة. سامحينى واغفرى لى. عليك يا وليم أن تسليها وتواسيها وعلى الله أن يسبغا عليكما إحسانه، ويمنحكما بركته ورضوانه. كل أعمال مرتبة منظمة. أكرر لكما الوداع يا عزيزيَّ. سوف نتلاقى ونتراءى، ويومئذ يبتسم لنا ثغر السعود، فى جنات النعيم والخلود.

«لقد جزيتك يا ألبير على ودك شر الجزاء. فاعف عنى وسامحنى. كدرت صفاء بيتك، وبذرت التُّهمَة والحذر. أستودعك الله! سأجعل لكل ذلك حدًّا. وعسى أن يسعد كما شقائى، ويوجد كما فنائى. ألبير! ألير! أسعد هذ الملاك. وطئ له أكناف الراحة والغبطة. والله يفيض عليك خيراته، ويوليك رحمته وبركاتهس.

* * *

أمسى المساء فاشغل ڤرتر طويلًا يفحص أوراقه، فمزق منها جملة كبيرة وألقاها فى الموقد. ثم حزم مما بقى أضاميم تشتمل على أبحاثه القصيرة وأفكاره المنثورة وعنونها إلى وليم ـ وقد اطلعت على كثير منها ـ ولما حانت الساعة العاشرة زاد المصطلى سعيرًا. وطلب زجاجة من النبيذ، ثم أمر خدامه أن يذهب فينام ـ وكانت غرفته وغرفة

الأضياف فى طرف الفناة بنجوة عن مكان سيده ـ فتطرح الغلام على سريره دون أن ينضو ثيابه استعدادًا لهبو به بكرة، فإن خيول البريد ستقف على الباب قبل الساعة السادسة كما قال له سيده.

بعد الساعة الحادية عشرة

«كل ما حواليّ ساكن هادى، وكذلك نفسى آمنة مطمئنة. فلك الشكر يا مولاى على ما ادخرت لى فى ساعتى الأخيرة من قوة وحرارة وعزم.

«أدنو من النافذة يا شرلوت، فأرى من خلال السحب المُزْجاة فى جو السماء نجومًا مبعثرة تتألق فى أديم الجلَد[1]. معاذ الله أيتها الكواكب الخالدة أن تهوين. إن الدائم الباقى سيضمك مثلى إلى خلوده، ويلقى علينا نفحة من وجوده. كذلك أشاهد بنات نعش وهن أعظم كوكبة فى السماء جمالًا وروعة! لقد كنت ساعة أخرج من بيتك مساء أجدها أمامى تتلألأ وتلمع! ولطالما راعيتها بعين قريرة ونفس هائجة! ولكم رفعت يدى إليها أشهدها على غبطتى وهنائى، وأتمثل فيها بنات سعادتى ورخائى! تلك أيام خلت..!

«ليت شعرى يا شرلوت أى شيء لا يذكرنى إياك؟ ألم أك محاطًا بك م كل مكان؟ ألم أفعل ما يفعل الطفل فاختلست منك بشراهة وحرص ألف هُنَيَّة[2] لا تفيد، لأنك قدستها بلمسك وطهرتها بيدك؟

---

(١) الجلد: رقيع السماء Firmament.

(٢) الهنية: الشيء الحقير Bagatelle.

«والهفتاه عليك أيتها الصورة العزيزة! لقد كنت كلما دخلت أو خرجت أطبع عليك ألف قبلة، وأحييك ألف تحية! إنى أوصى إليك بها شرلوت وأناشدك المحبة فى تكريمها.

«إن فى آخر المقبرة لدى الزاوية المطلة على الحقل شجرتين من شجر الزيزفون أرجو أن يشق تحتهما لحدى، ويبنى فى ظلالهما ضريحى. تلك أمنية لا يضن بها أبوك على صديق حميم. ولقد كتبت إليه أسأله أن يرعى ضريحى ويكلأه، فعززى ندائى بندائك، واشفعى رجائى برجائك. أنا لا أطمع أن يدفن المسيحيون المتقون جثثهم فى جوار شقى بائس، بل كنت أرجو واحسرتاه أن أُدفن على قارعة الطريق أو فى عدوة الوادى، حتى يمر بشاهد قبرى الكاهن واللاوى فيصلبّا ويستعيذا، ويمر بعدهما السامرى فيذرف دمعة على ثراى الجديب.

«قدمى الكأس يا شرلوت فليس بى رعدة ولا جل. قدمى الكأس المخيفة الباردة أذق بها سكرة الموت. أنت التى تقدمينها إليّ فكيف أتردد أو أحجم؟ كذلك يا ربت تتم رغائبى وتتحقق آمالى فى الحياة!! سأقرع أبواب الموت النحاسية غير هياب ولا واجف. ليتنى نلت يا شرلوت سعادة الموت فى سبيلك، وضحيت هذه النفس المعذبة لأجلك! إذن لمتُّ قوى القلب مثلوج الصدر. ولكن واأسفاه تلك سعادة لا يؤتاها إلا أولو النفس الكريمة: يسفكون دماءهم فى سبيل أحبائهم، وينيرون بموتهم طريق الحياة العاملة السعيدة لأصدقائهم.

أريد يا شرلوت أن أكفن فى هذه الثياب التى لمستِها وقدستِها

وتلك إحدى أمانيَّ التى طلبتها إلى أبيك. إن روحى ستحلق فوق ضريحى، فخدار أن يقدم أحد على أن يبحث فى جيبوبى! إن العُقَد الوردية التى كانت تزين منطقتك يوم رأيتك لأول مرة بين أطفالك ـ آه!! قبلى لى أولئك الأبرار ألف قبلة، وقصى عليهم نبأ صديقهم البائس. والهفتاه على عهد مضى بين أولئك الأطهار الأعزة! لكأنى أنظر إيهم الآن مجتمعين حولى، مبتهجين بمداعبتى وقلى! أواه يا شرلوت! لقد تعلقت جد التعلق بأسبابك، ولم أر معنى للوجود إلا بك، وأصبح افتراقنا منذ عرفتك لا يحتمل...! ـ تلك العقَد يا حبيبتى أريد أن تدفن معى، فإنك أهديتها إليّ فى عيد ميلادى.

لَشَدَّ ما كنت أتقبل هذه الأشياء بجشع شديد ونهم قوى! واويلتاه! ما كنت أحسب هذه الطريق تفضى بى إلى هذه الغاية؟ نشدتك الله أن تطيبى نفسًا وتهدئى بالًا. إنهما محشوتان.... دقت الساعة اثنتى عشرة؟ ليكن ما قدر الله!..... شرلوت! شرلوت! وداعًا! وداع!».

* * *

رأى أحد الجيران وَمْض البارود وسمع صوت الطاقة، ولكنه لم ير بعد ذلك ضجيجًا ولا حركة فما نزع ولا اكترث.

وفى الساعة السادسة من صباح اليوم دخل الخادم الغرفة وفى يده المصباح فوجد سيده صريعًا على الأرض؛ ورأى الغدارة، ولمح الدم، فناداه، ثم أمسك به، ثم أقامه، فما سمع منه إلا شهيقًا وغطيطًا. فأسرع إلى الطبيب، ثم هرول إلى ألبير، فكانت شرلوت أول من سمع طرق الباب فمشت فى أعضائها رجفة قوية، وهيمنت على قلبها

خفيفة شديدة. أيقظت زوجها وهبَّ كلاهما يستطلع طِلع الطارق، فألفيا الخادم لدى الباب صارخًا مُعْوِلًا يغمغم بالخبر المشئوم، فخرَّت شرلوت أمام زوجها صعقة!.

جاء الطبيب إلى الصريع البائس فوجده مجندلًا على الأرض مُشفيًا[1] لا يحس ولا يعى. فلما جس راهشه وجده ينبض؛ إلا أن أعضاءه قد تصلبت فلم تدع الأمل فى شفائه محلًا.

كان ڤرتر أطلق الرصاصة على ما فوق عينه اليمنى من الجبهة، ففتح للمخيخ طريقًا فانبجس من الجرح وسال، فرأى الطبيب أن يجرب آخر حيلة، فقصده فى ذراعه فسال الدم واستمر النفَس.

إن الدم الذى لطخ ظهر كرسيه ليشهد أنه أطلق النار على نفسه وهو جالس إلى مكتبه، ثم وقع يتشحط فى دمه ويضطرب من غمرة الموت حول كرسيه حتى سكنت حركته، وسكتت نأمته[2] فبقى مستلقيًا على ظهره بجانب النافذة وهو منتعل مزمَّل فى سترة زرقاء وصدار أصفر.

موت ڤرتر

ريع البيت، وزفعت الجيران، وهرعت المدينة جمعاء، وجاء ألبير وقد سجُّوا على السرير ڤرتر وهو معصوب الرأس على وجهه طابع الموت ووسمه. وكان لا يزال يغط غطيطًا مروعًا، فتارة ينسم نسم

(١) مشفيًا: مشرفًا على الموت.
(٢) كناية عن الموت.

الريح الضعيفة، وتارة يشهق شهيقًا عاليًا، والناس من حوله ينتظرون أن يسكن نسيسه فى كل لحظة.

لم يشرب ڤرتر إلا قدحًا من النبيذ. وقد قضى ورواية (أمليا[1] جالوتى) منشورة على مكتبه.

ليعفنى القارئ وله الفضل من وصف ما عرا ألبير من الوله والجزع، وما أصاب شرلوت من اليأس والهلع، فذلك ما لا يقع فى الإمكان، ولا تناله قدرة كاتب. أما الحاكم الشيخ فلم يكد يصك مسمعيه الخبر حتى هرع إلى الدار وانحنى على الميت يعانقه ويقبله وهو يبكى أحر بكاء. ثم أقبل على أثره ولداه الكبيران راجلين فسقطا قريبًا من المحتضر على حال من الألم والحزن لا توصف. ثم مالا على يديه وفمه يقبلانهما بحرارة ولهفة. والتصق فم الأكبر بشفتى ڤرتر، وقد كان أحب إخوته إليه وآثرهم لديه، ولم ينفصل عنه إلا قسرًا بعد أن قضى الصديق أجله ولفظ نفْسه.

خلجته المنون ظهر اليوم. وقد كان وجود الحاكم وما اتخذ من تبير وتصرف سبيلًا إلى علم الناس فتقاطروا على بابه، واحتشدوا فى منزله. فلما أمسى المساء، ووافت الساعة الحادية عشرة حمل على نعش فوق أكتاف العملة. وسار فى جنازته الحاكم الشيخ وأولاده المحزونون دون أحد من رجال الكهنوت حتى غيب فى القبر وأدرج فى المكان الذى اختاره وأوصى به.

---

(١) مأساة شهيرة للكاتب الألمانى ليسنغ.

أما ألبير فقد خذلته قواه، وخانته رجلاه، فلم يستطع إلى السير سبيلًا وأما شرلوت فوالهف انفسى عليها! لقد أصابتها غشية ما ظنها أحد تفيق منها. وناء بها الخطب فتركها واجمة والهة تكاد ترهق نفسها من الحزن والهلع. فجزع الناس لمصابها، وخافوا على حياتها، ودعوا الله أن يوزعها الصبر. ويَشعب قلبها بالسَّلوة.

انتهت آلام ڤرتر